



قصص اجتماعية

ونماذج من أدب الغرب

لطائفة من أعلام الأدب الفرنسى

پول بورچيه . آناتول فرانس . أندريه تيرييه . فرانسوا كوپيه .
جى دى موپاسان . دى بانفيل . مارسل پريڤو . چان لوران

مترجمة بقلم

محمد عبد الله عنان
المحامى

ومقرونة بتراجم نقدية

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م

فهـــــرس

صفحة

صحف من تيودور دى بانفيل

صحف من مارسل پريڤو

صحف من ﭼان لوران

بسم الله الرحمن الرحيم

أتيحت لى فى الأعوام الأخيرة خلال عملى الصحفى ، فرصة واسعة لدرس طائفة كبيرة من أعلام الأدب الغربى ، ولا سيما كتاب القصص الصغير ، وانتهيت خلال الأعوام الخمسة التى عاشتها «السياسة الأسبوعية» الى ترجمة طائفة كبيرة من آثار هذا القصص ، لعشرات من الكتاب ، الفرنسيين والألمان ، واستطعت خلال هذا الإختيار المستفيض ، أن أقدر كثيرا من الخواص المختلفة التى يمتاز بها أسلوب كل كاتب وفنه وخياله ، ومذهبه الكتابى ونظرياته الإجتماعية . ولما كانت هذه الخواص هى التى تسبغ على القصص كل قيمته الأدبية والفنية ، فقد كنت أحرص دائما على أن أختار من آثار أولئك الكتاب ما يحمل طابع هذه الخواص ويصورها . ولما كانت قيمة الأساليب الأدبية فى روحها وقوة بيانها ، فقد حرصت أيضا على الترجمة الأمينة المطابقة ، وعالجت ما استطعت إخراج هذه الأساليب فى تعبيرها وقوتها وروحها وصورها الأصلية ، ولم أتصرف قط بحذف أو إضافة ، ولم أغير إلا فى بعض العناوين . ذلك أنى أعتقد أن الترجمة يجب أن تكون جهد الاستطاعة صورة طبق الأصل ، ولا أسيغ ذلك التلخيص أو التصرف الذى يمسخ الأصل ويشوهه ، فذلك

فى نظرى مذهب خاطئ للنقل ، إذا أريد بالترجمة أن تخرج صورا حية صادقة من الأدب المنقول عنه .

والترجمة على هذا النحو مهمة شاقة بالطبع ، تستلزم كثيرا من العناء والجلد، ولكنها وسيلة فريدة لإخراج صور ونماذج من الأدب الغربى ، تميزها نفس الروح ونفس الخواص الأصلية . وفى الظفر بمثل هذه النتيجة أو ما يشبهها أثمن جزاء لهذا العناء والجلد . ذلك أننا فى عصر ترجمة ونقل . وما زلنا بالأخص فيما يتعلق بفن القصص واتخاذه وسيلة لتصوير مناحى الحياة والمجتمع والأخلاق والعواطف ، فى بداية البداية . وكل ما يخرجه كتابنا اليوم من أدب القصة ، تافه غث ، عاطل من كل فن وخيال وبيان وابتكار حقيق . ومن الواجب أن نتزود فى هذا الميدان قبل كل شيء بالنقل الصادق الجلد، عن أساتذة الفن ، وبالدرس العميق المتزن لنواحيه وأساليبه وصوره المختلفة؛ أما التلخيص الطائر لآثار الأدب الغربى، والدراسة السطحية لبعض مذاهبه، والتعلق ببعض نظرياته ونواحيه ، على نحو ما يفعل الكتاب الفتيان اليوم ، فى مباحث ودراسات أكثرها غامض مضطرب ، فعبث واضح ، واستباق لنظام التقدم الطبيعى . وأما التأليف القصصى الذى يستغرق اليوم نشاط الشبيبة الكاتبة ، فهو فرار من ميدان العمل المجدى : من الترجمة الصادقة الشاقة ، والدرس الخطير . ومن ثم كان هذا الإغراق فى تأليف هذا القصص التافه الغث ، الذى يطغى اليوم على كل نواحى الأدب الرفيع المجدى ، جديرا فى نظرنا بالإشفاق والرثاء ، دون العطف والتشجيع .

وهذه مجموعة من نماذج الأدب الغربى ، كلها من القصص الصغير ، استخرجت عن ثمانية من أساتذة الأدب الفرنسى ، تكفى أسماؤهم للتنويه بعبقريتهم وسمو فنهم وروائع آثارهم . وقد تسنح لى فرصة لأخرج مجموعة أخرى من نماذج الأدب الألمانى . ولعلى ما كنت أقدم على ترجمة هذه القصص وإخراجها ، لو لم تكن قطعة من عملى الصحفى ؛ فقد رأيت فى الأعوام الأخيرة أن أحصر نشاطى الأدبى على المباحث التاريخية ، ولا سيما مباحث التاريخ الإسلامى . ولكن إخراج هذه القصص ، كان قطعة ممتعة ساحرة فى العمل الصحفى ؛ وكان التنقيب عنها يغرينى بقراءة عشرات المجلدات ؛ وكنت آنس فى ترجمتها غبطة ولذة ؛ وكنت أجهد النفس فى اختيارها وافرة الطرافة والتباين والفن ، لكى تكون صورا حية صادقة من الأدب الغربى . ثم كنت أجهد النفس فى إخراجها فى أدق ما يستطاع من صور البيان العربى ، وأحرص فى نفس الوقت على روحها وأساليبها الغربية ما استطعت . وقد كان ذلك أشق ما فى المهمة . ولكنى أعتقد أنى وفقت فى ذلك بعض التوفيق . وقد نوهت بذلك بعض دوائر المستشرقين ، واعتبرت هذه القطع التى أقدم بعضها اليوم ، نماذج حسنة للترجمة الدقيقة التى تجمع بين الحرص على الروح والأساليب الغربية ، والبيان العربى المتين [١] .

---

(١) راجع مجلة «العالم الاسلامى» الألمانية (Die Welt des Islams) — المجلد التاسع جزء ٢ — ٤ ص ٢٣ ، أو كتاب "زعماء الأدب العربى المعاصر" (Leaders in contemporary Arabic Literature) للاستاذ طاهر خميرى والدكتور كامبفماير فى ترجمة « محمد عبدالله عنان » .

هذا وقد صدرت مختارات كل كاتب بترجمة نقدية وافية، شرحت فيها خواص أسلوبه ونظرياته، لكى يتلو القارئ مختاراته على ضوء هذا الشرح، ويستطيع أن يتبين فيما يقرأ له شيئا من هذه الخواص والنظريات . وأملى أن يستطيع القارئ الذى قرأ هؤلاء الكتاب بالفرنسية، أن يتبين فى الترجمة العربية، كثيرا من خواص الروح والأساليب الأصلية، وأن يشعر، رغم وحدة القلم الذى ترجم، أن هذا القلم استطاع أن يجارى بعض الشىء هذه الروح والأساليب المختلفة، لكتاب مختلفين . فأشد ما أغتبط له أن يأنس القارئ مثل هذا الشعور .

ولا يسعنى فى الختام إلا أن أقدم خالص الشكر لصديقى محمد أفندى نديم ملاحظ مطبعة دار الكتب، لما بذله من عناية فى إخراج الكتاب فى هذا الثوب الأنيق .

القاهرة فى أول مارس سنة ١٩٣٢

محمد عبد الله عنان
المحامى

صحـــف

من

پول بورچيه Paul Bourget

پول بورچيـــه

بورجيـــه ، من أقطاب الأدب والنقد المعـاصرين ، ولد بأميان فى سبتمبر سـنة ١٨٥٢ ، فهو اليوم فى الثمانين ، ولكنه ما زال قوة أدبيـة مخصبة ، ينثر طرائف قلمه تباعا فى كبرى الصحف والمجلات الفرنسية . كان والده أستاذا جامعيا ، فنشأ نشأة حسنة ، وتلقى دراسة عالية وثقافة متينة . وبدأ ينظم الشعر منذ حداثته . ثم اشتغل بالصحافة . وفى سنة ١٨٨٤ زار انكلترا ، موطن أمه ، وقضى فيها ردحا طويلا ، وأخرج عندئذ أولى رواياته L'irréparable ، ثم Cruelle Enigme ، ثم André Cornélis ، وهى مأساة قوية مثيرة . وفى سـنة ٩٢ ، أخرج روايته الشهيرة Le Disciple ، فنالت نجاحا كبيرا ، ويعتبرها البعض أعظم قصصه ، وأمتنها أسلوبا ، وأوفرها افتنانا . وبعد ذلك بعامين انتخب بورجيه عضوا بالأكاديمية الفرنسية ، فهو اليوم من أقدم أعضائها الأحياء . وله ثبت حافل من القصص القوية الساحرة منها : La Duchesse blue, Le Fantôme, Terre promise, Mensonges, Complications sentimentales, Un Divorce, Un Crime d'amour, Cosmopolis. وله مجموعات قصص صغيرة منها : Drames de familles, Conflits intimes, Les Détours du cœur, Le cœur et le métier. وله أيضا ديوان شعر كبير ، وعدة قطع مسرحية ، وفصول فى الوصف والسياحة مثل : Etudes et Portraits. وله كثير غير ذلك مما يضيق المقام بذكره .

وبورجيه كاتب وافر القوة والدقة والبراعة ، يكتب للخاصة ، وقلما يتناول فى قصصه بالوصف غير الطبقات الخاصة والأوساط الرفيعـة . فهو كاتب أرستقراطى ، يكتب للأرستقراطية فى صورها المختلفة ، ويوقف مواهبـه

القوية على تصوير هذا المجتمع الخاص ، وما يتصل بحياته من بذخ وترف وإناقة ، وما يتخللها من نواحي الجمال والفن والعواطف الدقيقة ، وما يسرى اليها من عوامل الإنحلال والفساد . وهو يعرض ذلك كله بأسلوب رفيع ممتاز ، ويبدى براعة فائقة فى الوصف والملاحظة والتحليل والتعليل ، وبالأخص فى جميع ما يتصل بنزعات القلب ، وأهواء النفس ، وتطورات الخلق الإنسانى ؛ ويؤثر فى تصويره دائما جانب الحقيقة والمعقول ، على جانب الغلو والمفاجأة . ولا يميل بورچيه الى الفكاهة ، وقلما يثير الضحك . وقد يقصد الى الدعابة فى بعض المواقف ، ولكنها أكثر ما تكون دعابة الملاحظة الدقيقة وسخرية التصوير . على أن الجد والخطورة يطبعان أسلوبه ومقاصده دائما ، وكثيرا ما تغشى الكآبة صوره وملاحظاته ، وكثيرا ما ينتهى بالقارئ الى مفاجآت محزنة . ومع ذلك فانه يأخذ لب قارئه بسحر عرضه ، وجمال وصفه ، وسمو فنه ، فيقرأه رغم خطورته وصعوبته ودقته ، بلذة وشغف . ويرى القارئ فى الفصول التى نقدمها اليه من بورچيه ، والتى اخترناها من ثلاثة من كتبه ، هذه الخواص كلها ماثلة فى تفكيره وتصويره وأسلوبه . وبورچيه أستاذ فى التحليل النفسى لا يجارى ، ولعله يكتسب من ذلك كثيرا بالوراثة والبيئة ، فأبوه روسى وأمه انكليزية ، وقد نشأ فى مهد علم وثقافة ، وكونه مزيج من النفسيات والحضارات المختلفة . على أنه يميل فى كتاباته الى التشاؤم والكآبة ، وقلما يصف الجانب المرح من الحياة ، فان عرج عليه ، عامله بسخرية وزراية . وهو يعنى بنفسية الشباب عناية خاصة ، ويعالج توجيهه الخلقى بمهارة . وهو الى جانب ذلك فنان يعشق الفن ويسمو به ، ولا زال يشترك فى رعاية بعض المتاحف والمجموعات الفنية . كذلك يعتبر بورچيه من أساتذة النقد المعاصر ، ولا زالت له فى ذلك الميدان جولات قوية بعيدة الأثر .

حالة ضمـــــير

تناولت عشائى هذا المساء فى دار أعرف أنى لا بدّ أن ألقى فيها الأستاذ ف . وليس الأستاذ ف من أكبر أطباء باريس فقط ، فهو يغدو أيضا ، اذا شاء ، محدّثا قوى التعبير . فلما تركنا المائدة وقع الحديث على أحوال الضمير . فقص علينا الطبيب الأشهر واحدة منها ذات صبغة فنية محضة ، لاحت لى يومئذ أنها ذات مميزات خاصة ، حتى لقد استأذنته فى أن اتخذها موضوعا لقصة ، بيد أنى ما كدت أحاول ذلك حتى آثرت أن أنقل أقواله فقط . واليك القصة كما هى : وهى تحتمل جدلا لا نهاية له . ولقد لبثنا فى الليلة التى أشير اليها بعد انصراف الراوية الى الساعة الثانية من الصباح ، ونحن نتحدث فيما اذا كان قد أخطأ أو أصاب التصرف فى الحادث الذى أفضى الينا بسره . وأزيد ، لكى لا أخفى حقيقة عواطفى ، أنى كنت ممن استحسنه . بيد أنى أعترف أن الحالة غامضة ، وما زالت عرضة للجدل .

استهل حديثه بالجواب عن سؤال القاه أحدنا فقال : أجل ، شهدت فى حياتى الطبية احدى هذه الفواجع التى تتعلق بالذمة . واحدة فقط فى أوائل عهدى بالمهنة . والحق أن الظرف كان من الخطورة والشذوذ ، حتى لقد طبع نفسى كطبيب ، و بلاها الى الأبد . اضطررت أن أقرر أمرى فى ذلك الظرف ، فاتخذت قرارا ذا صبغة خاصة ، وما ترددت بعد قط فى أن اتبع بمنتهى الصرامة قاعدة سنت وقبلت يومئذ ، وهى : إن أعظم واجب على الطبيب يبذ كل واجب آخر هو خدمة المريض ، ويجب على الطبيب ألا يعرف سوى هذا ، وألا يرى سواه . هل المريض غنى أم فقير ؟ هل هو صديق أم عدوّ ، وغد أم عدل ، طيب أم خبيث ؟ هذا ما ليس من شأن الطبيب . وكل ما يقدر ، هو أنه يرى آلة حية يجب فحصها واستجلاء

غامضها ، وإصلاحها بكل ما أوتى من ذكاء وقوة . وهـذا هو لب المهنة وجوهرها . وليس من ريب فى هـذه النقطة من حيث المبـدأ ، ولكنكم سترون فى التطبيق ، أن ضمير الفرد قد يصطدم مع ضمير المهنة الذى صغت لكم معدنه . فويل للطبيب الذى تسول له نفسه أن يفسر دوره أمام فراش المريض ! فهو لن يظفر بعد بتلك السكينة النفسية التى حافظت عليها ، أنا محدثكم ، ستة وثلاثين عاما ، ازاء عملائى وفى المستشفى . ذلك لأنى منذ الفاجعة الخلقيـة التى سأقص ، لم أتخذ لى هدفا قط سوى مكافحة المرض مهما كان المريض ومهما كانت النتائج .

«ويرجع هـذا الحادث الى تاريخ أذكره جيـدا وان لم يرتبط بحادث خاص بى — الى أواسط يونيه سنة ١٨٦٧ ، وفى الثالث والعشرين منه توفى الأستاذ الذى لم أحب ولم أقدر أحدا مثله — تروسو ، ذلك الرجل المدهش الذى مازلنا نتلمس الى اليوم فكره ماثلا فى كل مبتكرات علمنا ، وذلك العبقرى البارع الذى كانت تزينه خلال بديعة ، وقلب يغدق حنانه على من يصطفيه من تلاميذه . وقد كنت ممن التحقوا بعيادته فى أواخر أيامه . وكان يعرفنى فقيرا جدا ، وكان من أعظم همومى أن أحصل على المـال اللازم لطبع رسالتى التى أدين بموضوعها اليه . ففى أوائل يونيه هذا ، أرسل يستدعينى الى مكتبه ، فكانت آخر مرة رأيته فيهـا . ولم تكن تساوره ذرة من الريب فى مصيره ، فتوفى . ولكنه توفى واقفا ؛ وما زلت أرى ، وأنا أحدثكم ، أمامى شـبحه المتقع ، الفيـاض مرارة وعزة وذكاء وألمـا . وكان يجيب عن أسـئلتى بقوله : « انى لن أكون حيا فى يونيه » . ثم أشار الىّ بيده الطويلة الشاحبة يحظر الجواب وقال : « لقد طلبتك لأرسـلك الى أحد مرضاى وهو يقيم اليوم فى ضيعته فى الريف ، ولا يستطيع القدوم الى باريس ، ويجب أن يعنى به طبيب ثقة يفهم تعليماتى . وقد فكرت فيـك ، بل لقد حددت الأتعاب »

ثم ذكر لى رقما رأيته يومئذ ضخما جدا . وكان هذا الأستاذ الكامل قد فكر فى هذا أيضا ! ثم أخذ، دون أن يفسح لى لشكره، يسرد علىّ التاريخ النفسى لهذا المريض، بذلك البيان الفائق الذى لم أعرفه لسواه، بل لم أشعر ببراعته كما شعرت بها فى تلك الحادثة الأخيرة . وكان المرض كلويا حادا يقترن بمضاعفات عصبية . ولتسمحوا بهذه التفاصيل لأنى أروى لكم قصة فنية . وقد أصيب المريض بنوبة رآها تروسو عن بعد خطرة جدا . بيد أنه قال لى إنى أستطيع إنقاذ المريض اذا اتبعت ما ألقى علىّ من التعليمات . ثم قال لى : « ان الوقت ضيق، ويجب أن تسافر هذا المساء ذاته » ولاح البشر فى أسارير ذلك المجاهد الباسل، الذى لم يمح نفسه هدنة قط، لما أبديت من قبول وأهبة وقال لى : «لم أكن أنتظر منك غير هذا، وسوف تظفر. وهذا ما أعدك به . وان أعيش حتى أشهد هذا . ولكنى أعرفه وأحب أن أعرفه» . ثم تناول يدى وهو ينهض، فأردت الاحتجاج أيضا، ولكنه وقفنى وجذبنى الى مقعده قائلا : «والآن أوصيك وصية أخيرة، هى أن تذكر هنالك كما تذكر فى كل مكان، ومدى حياتك، شعار أبقراط، وهو أن الطبيب يجب ألا يذكر وألا يسمع شيئا مما شهده عند فراش المريض» . وكانت هذه آخر كلمات سمعتها من ذلك الفم الذى كثيرا ما ألقى صادق الفحص والتشخيص .

٢

ونفذ ذلك اليقين الذى آنسته من أنى لن أرى بعد ذلك الأستاذ الأسمى، الى نفسى قويا حتى كان فكرتى الوحيدة بقية اليوم . ولم تساورنى وصيته الأخيرة إلا حينما ركبت القطار . فبرزت الى ذهنى بغاة وسألت نفسى : لماذا أصر الأستاذ على هذه النقطة؟ انه لا يتكلم عبثا . فهل تضم الدار التى أذهب اليها سرا يجب ألا أكشفه ؟ وهل يخاطر المريض بأن

يعترف أثناء نوباته بأمور يجب ألا أذيعها ؟ وهل تقع حول ذلك المحتضر فاجعة يجب ألا أدركها؟ كنت آقلب هذه الأفكار تباعا فلا أدركها ، ولم أكن أعرف سوى أن المريض الذى سأراه يدعى الكونت ده . ولنفرض أن اسمه روكڤيل . وكان يقيم يومئذ فى قصر بالقرب من نواى . وكنت أعرف أيضا أنه كان ضابطا فى البحرية ، وانه فى الرابعة والستين من عمره . وهذا كل ما عرفت ، فهل كان الكونت ده روكڤيل متزوجا أم لا؟ أم هل كان أرمل ؟ وهل كانت له أسرة أم لا ؟ هذا مالم يذكره لى أستاذى . بيد أنى قلت لنفسى بعد تفكر : « لن أرى شيئا ولن أصغى اليه ولن أدركه » . وكنت قد غادرت باريس فى قطار الساعة التاسعة مساء ، فلما نزلت فى محطة نواى فى الفجر ، كنت قد قطعت شوطا من النوم أكملته فى العربة التى حملتنى . وما تنفس الصبح حتى كنت أمام قصر روكڤيل ، منتعشا صافى الذهن ، متأهبا لأداء مهمتى ، معتزما ألا أدخر وسعا فى أن أشرّف اختيار الأستاذ العظيم الذى أمثل .

وكان روكڤيل قصرا عتيقا ، عبوسا ، وعر الجمال ، فخيل لى وأنا أنزل من العربة ، ان ذلك البناء الموحش يضم مناظر موحشة مثله .

٣

وما كدت أجوز أوّل خطوة فى ذلك القصر الموحش ، حتى لقيت الجواب على سؤال من الأسئلة التى وضعتها لنفسى أثناء السفر . وذلك أن خادما أخطرنى فى الحال بأن الكونتة تنتظرنى لتقودنى الى غرفة الكونت : وإذن فقد كان الكونت متزوّجا . وهنا ذكرت وصية الأستاذ فهل هذا هو السر الذى أراد أن يحذرنى من مفاجأته ؟ وهل كان الكونت متزوّجا من امرأة أصغر منه سنا ؟ وهل كان يوجد من جراء ذلك ولا سيما ازاء ما يكبده اياه

مرضه من قهر وغم ؟ بيد أن هذه الفكر الروائية انهارت لأول نظرة ألقيتها على الكونتة، فقد كانت فى نحو الخامسة والخمسين، بيضاء الشعر، قد أضنى محياها السهر، وأضاءت الحمى عينيها، اللتين لم أر فيهما بادئ بدء سوى الجزع لمرض زوجها .

قالت لى : «انه ينتظرك وقد عيل صبره كثيرا يا سيدى . أما أنا فأسألك فقط أن تفضى إلى بكل الحقيقة» .

ولم أدهش لهاته الكلمات القليلة التى أعقبتها بشرح موجز لآخر أعراض لوحظت على المريض، لأنها كانت تعرب فى الواقع عن جزع عميق، مشروع فى مثل هذا الظرف . فوعدتها أن أحدثها بكل صراحة . وقادتنى الى غرفة الكونت . وهنالك وجدت طبيبا من زملائى الريفيين قضى ليله الى جانب المريض . وفى الحال أيقنت أن الرجل هالك إذ كان الموت مرتسما على وجهه الممتقع . ولكن الموت كان يصارع إحدى هاته العزائم التى تدحض أدق الفروض . وقد قرأت هذه العزيمة حينما دخلت، فى إنسانيه الملتهبين . وكنت أمثل فى نظر هذا المحتضر الشخص الأوحد الذى يثق بعلمه أتم ثقة؛ وأدركت أن هذه الثقة فى أستاذى هى الملاذ الذى يجب أن أقصده فى ذلك الهيكل الذى أشرف على الزوال . وكان فعل هـذا الوحى البعيد عجيبا ، إذ ما كدت أشرح للمريض ما أحمل من تعليمات دقيقة بشأنه، حتى لاح لى أن الاحمرار يسرى الى وجنته، وان الحياة تعود اليه .

قال لى زميلى الريفى لما انفردت به بحجة الاستشارة : إن ذلك مدهش، فقد اعتقدت أنه لن يمضى هذه الليلة ، ولكن منظرك فقط أعاد اليه الحياة .

قلت : بل قل هو ذكر اسم تروسو وحده، ثم عنايتك به .

فقال ضاحكا : لا تعتذر أيها الزميل . ثم خفض صوته وقال بجد :

«أنت لا تدرى أى عبء ترفعه زيارتك عن نفسى ، وأى غبطة تخالجنى للتخلص من هذه المسئولية . وعندى أن هـذا الاشتداد المفاجئ فى سير المرض ، برجع الى سبب لا أعرفه ولم يقله لى أحد . فالكونت لم يصب بردا ولم يرطب ، ولم يحرف عن نظام العلاج . ولست أرى لذلك سوى سبب ، هو الانفعال العنيف . وقد سألت السائق وهو من هنا ؛ والاشاعة تجرى فى القصر بأن منظرا هائلا حدث فى الأسبوع الماضى بين الكونت ده روكثيل وزوجه . أفلم يقل لك مسيو تروسو شيئا عن الأسرة ؟

أجبت : كلا ! على الاطلاق .

فقال محدثى بعد برهة تردد : الحق أن الصراحة واجبة بين الزملاء . فاعلم أن الكونتة لم تكن زوجا مخلصة . وقد لبثت مدى أعوام ، تتصل فى شبه علانية بقريب لزوجها ، هو ابن عم له يقيم بالقرب منا . وأريد بالعلانية ما يذكره الناس ، لأن الكونت لم يعرف بالطبع شيئا من ذلك . ويقال أيضا إن واحدا من أبناء الكونت الأربعة ، وهو الثالث ، انما هو ولد خليلها الذى توفى منذ أربعة أعوام . ويلوح لى أن الكونت لم يكن يرتاب يومئذ فى شيء مما شهدت من تأثره لموت هذا الصديق الزائف ... فكيف ولم استيقظ ريبه اليوم فى حين أن ذلك لا يفيده سوى أن يسمم لحظاته الأخيرة؟ هذا ما أجهله . ولكن ريبه قد اضطرم . متى؟ هذا ما أجهل أيضا . بيد أنه أخذ من يوم لآخر يغير من معاملته للكونتة . وكان ذلك بادئ بدء فى ثوب نزق لا يكاد يخفيه أمام البعض مثلى ، ثم كان نزقه ظاهرا . وكنت أستطيع أن أرجع ذلك الى تهيجه الذى هو نتيجة لازمة لمرضه . ولكنى أردت أن أتحقق يوما ، فلفظت اسم خليل زوجه المتوفى أمامه ، بينما كنت أجس نبضه ، فشعرت فى الحال من نبضه بالحقيقة ، وهى أنه يعرف اليوم أو يتكهن .

قلت : وما الذى تستخلص من ذلك ؟

أجاب : ان هـذه النوبة التى ستفضى الى مصرعه — ولا بد انك من رأيى -- ترجع بلا ريب الى حديث جرى فى ذلك مع الكونتة . فهل اعترفت؟ أم هل وصله تبليغ غفل؟ أم حصل على شهادة حاسمة من وصيفة قديمة؟ أم عثر بمستند؟ انك لو شاهدته مدى خمس دقائق والكونتة أمامه، وخمس أخرى وهى بعيدة عنه، لاقتنعت مثلى . وكونه لم يوفق الى استدعاء أبنائه فى مثل هذا المأزق آخر سهم يصيبه . فهو ليس على يقين من أنه أبو الجميع . وانك لتدرك الآن مبلغ غبطتى بقدومك . وانك لتعلم الآن من الأمر قدر ما أعلم .

٤

ولقد أثارت قصة الطبيب الريفى لى كثيرا من خفاء هذه الوصية الغامضة التى ألقاها على أستاذى الكبير ذو البصر الثاقب . وكانت هذه الموهبة فى تفهم الشخص معنى وجسما، بنفس المهارة، موضع عبقريته، فقد استطاع الأستاذ أن يشخص أعراض هذه المأساة الجاثمة فى تلك الأسرة، بنفس الوضوح الذى فسر به أعراض داء الكونت، فأعجبت مرة أخرى بنفاذ بصيرته، وبذلك الدرس الذى ألقاه على فى الحزم، بالإشارة الى اللغز الذى سأصطدم به دون أن يكشفه لى . وكان أول ما عنيت به حين عدت الى جانب المريض، هو أنى أفرض حوله عزلة تامة . ولقد أنست فى إنسانيه لمحة غريبة من الفرح حينما أجبت على سؤال الكونتة : «أترى يشملنى أمر المنع ؟» فى جفاء «أجل يشملك يا سيدتى» . والحق أنى لم أك أتوقع أن يفضى هـذا القرار الى نتيجة شدّ ما كنت أريد تجنبها، أعنى تدخلى فى هذه المأساة الزوجية التى لم أعرف إلا خلاصتها . وما مضى علينا، أنا والمحتضر، نحو ثلاثة أرباع الساعة حتى سألنى سؤالا، جم البساطة فى الظاهر، بيد

أنه كان يتصل بفكرة الانتقام التي يجيش بها رأسه ، وما أغدقت عليه الإسعافات الأولى حتى خيل لى مدى لحظة ، أنى أرى أمامى بدل المحتضر الذى هرعت لأذلل ذهابه ، من لا بد أن كانه المسيو دى روكفيل ، أى رجلا مريرا منظما ، ذا خلال فى مجموعها تنضح جفاء وسموا . وقد بدأ يحدثنى عن الأستاذ الذى جئت بأمره ، وعن عرفانه لمبادرتى بمغادرة باريس الى ذلك البلد النائى ، وعن أمله فى أن لا ينتقص شيء من راحتى فى روكفيل ، وعن أسفه أن لم يستطع هو أن يقوم بواجب الضيافة .

ثم قال : يجدر بك أن تذهب لتجوب القرية هذا الصباح ، فانى أشعر بتحسن لم أشعر به منه أيام ، وسوف تتركنى أستريح . ولا بد أن تشاهد كنيستنا فانها شائقة جدا ، وترجع الى القرن الحادى عشر . هذا الى أنى أطلب أن تسدى إلى يدا حقه . فانى أريد أن أرسل بعض البرقيات ، وأناشدك أن تقدمها الى مكتب البريد بنفسك ، أفتجيب سؤلى ؟

فاه بهذه الكلمات بلهجة غريبة ، ولمعت عيناه بشدة ! وظاهر أن ذلك لأنه لقى فى النهاية شخصا ثقة يطلب اليه أداء خدمة لها فى نظره أهمية عظمى . فبم كنت أستطيع جوابه غير القبول ؟ سألنى أن أجلس الى المائدة وأن أكتب ما يمليه على من صور البرقيات . ولقد ارتجفت لعنوان أولاها ، فقد كانت مرسلة الى المسيو چان ده روكفيل ضابط الفرسان فى نانصى ، وكانت الثانية الى المسيو لويس ده روكفيل وهو ضابط أيضا فى بواتييه ، والثالثة الى المسيو روبر ده روكفيل الملحق بسفارة لوندرة ، والرابعة الى المسيو إيمرى ده روكفيل الطالب بمدرسة الهندسة بباريس . وكان هؤلاء أولاده الأربعة . وكان موضوع البرقيات واحدا هو خطورة حالته ، ودعوة بالمجيء العاجل .

ثم قال لى : لقد بحثت مواعيد القطر ، فهم يستطيعون القدوم الى هنا عصر غد ، وعليك أن تحافظ على حياتى الى ذلك الحين .

فأكدت له أن الخطر ليس بداهم .

فقال لى : وهل تعدنى بارسال البرقيات توا ؟

أجبت : أعدك بهذا .

قال : وأن تقدمها بنفسك .

قلت : وأعدك بهذا أيضا .

قال : وألا يعرف انسان أننى كلفتك بها قبل أن ترسل ؟

ولئن ترددت فى تفهم هـذا التضرع الأخير لحظة، فقـد كانت اللهجة التى سألتنى بها الكونتة كفيلة بالإيضاح، وقد كانت تنتظرنى ، وهى تجيش باضطراب عصبى لم تستطع إخفاءه . وقد علمت بعد ذلك الباعث المعقول الذى حدا بها ألا تخطر ابناءها الأربعة باقتراب أجل ذلك الذى يحملون اسمه. ولكن هـل كانت تعدم الرسائل البرقية لو أن المحتضر عهد بها اليها ؟ هـذا ما كان يعتقده المسـيو ده روكفيل . ذلك أنه لم يكتشف إلا بعـد أعوام ما لحقه من خيانة، فكان طبيعيا أن يتصور هذه المرأة مارد نفاق . ومع ذلك فقـد كانت امرأة فقط، وامرأة مسكينة، استسلمت لشهوة ما كان واجبا أن تطيعها . وكانت تناضل لتنقذ على الأقل مستقبل الولد الذى ولد فى مهاد الخطيئة . وكان الوعيد الذى وجهـه زوجها اليها ، فى غموضه أشد روعة، يذهلها جزعا دون أن تستطيع وزنه أو تقديره . فكان ذلك التوجس الخفى الأليم يسمرها فى البهو الذى يشرف على الغرفة التى احتجبت فيها مع الكونت زهاء ساعة . ماذا قال لى ؟ قرأت هـذا السؤال فى عينيها . وشـعرت بالاحمرار يصـعد الى وجهى . وهـذا بالرغم من أنها القت الى سؤالا آخر اذ قالت : لقد وجدته فى حالة سيئة أليس كذلك ؟ لقد وعدتنى صراحة .

فأجبت : لقد وجدته كذلك فى الواقع . ولكنى أسعفته ما استطعت . وقد استفاد من ذلك فائدة كبيرة . فحذار من الإنفعالات . وتجنب العزلة التامة... .

فقالت ، فى اضطراب يشتد : أترى من واجبى إذن أن أخطر أولادى ؟
فزدت احمرارا . وهل أستطيع أن أقول لها انى أحمل فى جيبى البرقيات التى أملاها علىّ المحتضر ؟ لقد أقسمت له بشرفى ألا أبوح بسرها لإنسان .
وأجبت : يحسن أن يحضروا .
ثم لزمت الصمت ، ولم تلح بعـد . ثم انتحلت قصـد الصيدلى عذرا لمغادرة القصر والذهاب الى القرية . ولم يكن كذبا . فقد أردت أن أشرف بنفسى على اعداد قدر من « الأكسجين » ليتنفسه المحتضر . ولم تمض ساعة حتى أرسلت البرقيـات الأربع . وما عدت الى روكفيل حتى بعث المريض فى طلبى ، وعلم أنى قمت بمـا طلب .

٥

قال الدكتور ف : وترون معى أن الاصطدام الفجائى بمثل هـذا السر المؤلم بالنسـبة لفتى فى الخامسة والعشرين لا يعرف من الحيـاة إلا أروقة المسـتشفى ، وبهو المحاضرات ، إنمـا هو اغراء شـديد يحول دون مراعاة القاعدة الآبقراطيـة . بيـد أنه إذا كانت طُلعتى قـد اضطرمت فى الساعات التى تلت الى أعظم حدّ ، فانى على الأقل لم أفعل شيئا لإروائها ، بل كنت أعنى بعليـلى كما أعنى بأى مريض فى مستشفى « الأوتيل ديـيه » لا يعرف لى إلا بنمرة سريره . ولكن كان مقدّرا أن يذهب هذا الجهد الذى أبذل لاجتناب التـدخل فى المأساة سدى ، لمصادفة ترجع الى نظام القصر ذاته . فقد قلت لكم إن روكفيل كان قصرا عتيقا ، عظيم الكثافة ، حوّلت بعض أروقته القديمة الى غرف صغيرة للزينة . وكانت احدى هذه الغرف تقع بجوار الغرفة التى يرقد فيهـا الكونت ، وقد حوّلت مؤقتا الى صيدليـة صغيرة ، ولها بابان أحدهما يفضى الى غرفة النوم والآخر الى البهو المستدير .

فحدث فى مساء ذلك اليوم الحافل بالاكتشافات ، أنى حينما شرعت فى كتابة التقرير الطبى عن الساعات الأولى ، لم أجد السجل الصغير الذى قيدت فيه حالات القلب المتوالية ، فذكرت أنى لا بدّ قد نسيته فى غرفة الزينة ، وارتجفت خشية أن يكون قد وقع فى يد المريض ، وذهبت فى الحال لأبحث عنه مخترقا البهو المستدير على أطراف الأصابع لكى لا أوقظ الكونت إذا كان نائما ، بيد أنى ما كدت أجوز العتبة حتى سمعت صوت الكونت والكونتة ينفذ خلال باب غرفة النوم المنفرج قليلا ، جليا كما لو كنت الى جانب المريض ذاته ، وكان واجبا أن أنذرهما بحضورى بالسعال مثلا أو بتحريك قطعة من الأثاث ، لأنهما لم يشعرا بدخولى غرفة الزينة ، وهما يشغلان بالحديث . ولكن لا ، فانى لبثت جامدا كالمسحور دهشا ورعبا ، أصغى الى المريض « يستجوب » زوجه وهى تجيبه بنبرات تمزق القلب حتى انى ارتجفت ألما .

قال الكونت : أجل سوف يكونون هنا غدا ، وقد اعتقدت أنك تحولى دون إخطارهم بيد أنى أستطيع الخداع أيضا متى شئت .

فأجابت الكونتة : أكرر انك لم تكن فى حاجة الى هذه الحيلة ، لأنك لو كنت فقط أبديت لى رغبة فى رؤيتهم لكنت أبرقت إليهم بنفسى .

قال الكونت : « ان وسيلتى أوثق وأنجع » ثم قال بخشونة وغلظة : « أجل سوف يحضرون ... ولكن ألا تكلمت أخيرا قبل أن يصلوا ؟ » .

أجابت : لقد قلت لك كل ماأستطيع قوله .

قال : أسألك مرة أخيرة عن اسم الولد الذى ليس منى ؟

فقالت فى أنين : أما هذا فأبدا

فصاح بها : أبدا ؟ انى أعرف كيف أرغمك .

قالت : لقد تكسرت النصال على النصال ، فليس بعد من شىء

لا أحتمله ، وأنت تعرف ما قاسيت لأنك قرأت هذه الرسالة المنكودة ...

فصاح : ان ما أريد أن أعرف هو الاسم : فهيا . أهو جان ولدى البكر؟ هذا مستحيل . أم هو لوى ولدى الثانى ؟ هذا مستحيل أيضا . فقد كنت فتية يومئذ . أم هو روبر ؟ أم إيمرى الأخير ؟ لشد ما أحببته آه انه لمن دمى . أم هو الثالث . لقد أحببته كثيرا أيضا : هيا ، من هو؟ من هو ؟

قالت : لن أجيبك .

قال : بل سوف تجيبين ... وإلا هدرت شرفك أمامهم ، ولو مت غدا . وغدا سيكون الأربعة هنا حول سريرى . وعندئذ أقص عليهم ما فعلت ، وكيف كان لك خليل ، وكيف عرفت من هو ، وسوف أتلو عليهم تلك الرسالة ، رسالة هذا الوغد التى لم تجدى شجاعة لحرقها . يالله ، كم شغفتِ به حبا ! سوف يقرؤونها ، ويعرفون أن منهم واحدا ليس منى . ولأموتن بعد ذلك ، أى بعد أن أكون قد انتقمت ... .

فصاحت : انك لن تقدم على هذا العمل الشنيع يا أميديه ! ولن تفرض على ثياب العار أمام أولادى مدى الوقت الذى بقى لى من الحياة .

قال : أريد الاسم . تكلمى اذن ، من منهم ليس ولدى ؟

قالت : لست أجيب . ليس فى وسع الأم أن تجيب ، فتسلم اليك ذلك الولد ، وروحك يضطرم بمثل هذا البغض . وأؤثر ان تنزل النقمة بى .

فقال بغلظة أشد : سوف تنكبين أنت اذن .

قالت : ولكن أذكر ياسيدى ربك الذى قد تلقى .

قال : غدا سوف أزهق ، ولكن بعد أن أكون قد انتقمت .

ثم صمت الصوتان ، فسمعت زفرات أليمة علمت منها أن الكونتة لم تقو بعد على احتمال ذلك الحديث الرائع . بل ما كنت أنا لأقوى بعد على

الاصغاء اليه ، ففررت من المتزين ، وقد اهتزت كل جوانحى ، وسحقتنى قسوة هذا الرجل الفياضة ، و بؤس هــذه المرأة الفياض ، رعبا و إشفاقا . وأذكر إنى نفذت الى الغرفة التى خصصت لى ، ولبثت هنالك زهاء ساعة أرجف من سائر أوصالى ، ولا أستطيع ان أكتب سطرا من المذكرة التى يجب أن أرسلها الى تروسو . بل لقــد كدت أُسر وقتئذ لأستاذى المبجل ان بعثنى الى روكڤيل ، وهو يعرف ما يحيط هذه الاسرة من الفواجع الأليمة . فقلت لنفسى ، وأنا أعرك الورقة التى أعدت أمامى فوق المــائدة «ماذا أتيت أصنع هنا ؟ ألكى أمهد السبيل لهذا الحديث بين ذلك الضال ، وأولئك الفتيان الأربعة الكرماء ، الأبرياء من خطيئة أمهم ؟ لقد كانت هذه مهمتى ! وهذا ما سوف يفعل كما قال . وهــذا هو سر هــذه الارادة فى البقاء التى دهشت لها هــذا الصباح ، فانه يريد أن ينتقم وأى انتقام شائن ! ولكم تصيب الكونتة فى أن لا تسلم اليه اسم ولدها من الخليل ! فهى بذلك تفضح اسمه لإخوته ، فى حين أنها بالصمت قد يتاح لها أن يرتد الكونت عن عزمه أو يموت قبل أن يرتكب هذه الجريمة ، جريمة أن تلوث شرف أم فى نظر أولادها ، وأن تلقى فى قلوب رجال ريبا فى شأن مولدهم ... وكيف السبيل الى اتقاء هذا العار ؟ لو أن للكونت قليلا من ايمان أهل طائفته لكان يكفى لذلك قسيس ، ولكن الكونت لا يؤمن بشىء ... وأنا الذى أرسلت البرقيات ! فوالله لو علمت من قبل ما أعلم الآن ما أرســلتها . ولكن ألا يفضى الإنفعال الذى يحدثه هــذا المنظر الى أزمة جديدة فيزهق ؟» .

و بينا أنا فى تلك المناجاة ، إذا بقرع محموم على الباب ، يوقظنى من ذلك الكابوس . ثم ظهــر خادم ممتقع الوجه ، ونبأنى بأن الكونت قــد أصيب بنوبة . فأصابتنى رجفــة ذلك الوهم الذى يأخذنا إذا ما وافقت الحوادث الخارجة عن إرادتنا فجأة ، أمنية نجيش بها ونريدها فى الحال . ومع ذلك فلم

يك ثمة فى الأمر سوى حادث طبيعى جدا . وفهمت من ذكر الخادم للنوبة ، أن المريض قد أصيب باحتباس بولى شديد هو من خواص الداء الكاوى المزمن متى وصل الى ذروته . وكان انفعال الحديث الذى سمعت فى مخبئى يكفى لتعليل هذه الأزمة التى لاحت لى فى منتهى الخطورة مذ أشرفت على غرفة المريض . فان عدّة من الحشم كانوا حول الفراش ، يحاولون إسعاف الكونت الذى أصابته نوبة حادّة تشبه الصرع ، كثيرا ما رأيت تروسو يقفها بالضغط على الوريدين تباعا . وقد حاولت أنا هـذه الوسيلة عبثا مدى دقائق ، وأنا أرى الكونتة تجثو فى مؤخرة الفراش وهى تصلى معتمدة رأسها بين يديها . ترى ماذا كانت تطلب الى الله ، هى التى لبثت تقيه رغم خطيئتها ؟ هل كانت تدعوه أن يزهق زوجها قبل أن ينفذ وعيده الهائل ، مادام أنه مقضى عليه؟ أم كانت تقدّم ألمها قربانا للتكفير عن سعادتها الأثيمة فيما مضى ؟ هـذا ما ساءلت نفسى عنه فيما بعد . أما وقتئذ ، فقد كنت أتفرّغ للمريض الذى أرى الخطر الداهم يحدق بحياته . ولكن وسيلتى الأولى لم تفلح فلم تبق سوى الوسيلة الجرئية أعنى الفصد .

٦

ففى تلك الآونة وثبت الى ذهنى مدى دقائق خلتهـا استطالت ، حالة الضمير ، فى وضوح يصعب على أن أصوّره لكم . ولو كان بينكم زميـل لى لاستطاع أن يفهمنى . بيد أنكم شهدتم جميعا طبيبا كبيرا يدعى للاستشارة ، ولا بد أنكم لاحظتم جميعا ما يصيب محياه من تغيير أثناء فحصه للعليل ؟ وقد رأيتم بلا ريب جراحا على وشك البدء فى عملية جراحية ، ولاحظتم هذا التغيير يرتسم على وجهه؟ عندئذ ، فى تلك اللحظات الحاسمة فى مهنتنا ، تقع ظاهره من التفتح العميق ، وذكاء لمواهبنا ، حاد جدا ، قوى جدا ، حتى لقـد عرفت

نفرا من نوابغ الأطباء لا يستطيعون تأدية أكثر من استشارة خطيرة فى اليوم الواحد، وبعض كبار الجراحين، يلزمون الفراش متى غادروا المستشفى، ويرقدون لاغبين مدى ساعات . أقول لكم ذلك ، لأوضح لكم كيف وثبت الى ذهنى بغتة بادرة تأمل تقتضى الساعات لدرسها ، فلم تدم سوى لمحة البرق! كان المريض أمامى، يهتز من ألم النوبات العنيفة . فاذا لم أعمل فهو هالك، وهو هالك اذا عملت . وكل ما أستطيع أن أؤمل هو أن الفصد يقف الأزمة، فتتأخر الوفاة يوما أو اثنين أو ثلاثة على الأكثر . أعنى أنى «سأعطيه ما يلزم بالضبط من قوة ووقت لإتمام الانتقام الأثيم الذى توعد به زوجه» سرت هذه العبارة الى ذهنى بمثل هذه الألفاظ ذاتها، وكأنما هتف بها فى أذنى صوت . هل أغدو حقا ، شريكا فى الإثم، بإطالة حياة أعلم وأرى أنها زاهقة، فأسبب نكبة خمسة أشخاص، هم تلك الكونتة المنكودة التى مزقت فؤادى بزفراتها، وأولادها الأربعة الذين خيل لى من مهنهم أنهم فتيان ذوو مستقبل وهمة . استمر الهاتف يهتف : «كلا، فلن تساعد فى ارتكاب هذه المهمة الشنيعة، هذا الى أن الفصد قد يخفق أيضا ، فهو ليس بفرض مطلق ، وهنالك من الأطباء من لا ينصحون به فى مثل هذا المأزق» ولكن صوتا آخر هتف بى «أجل، ولكن لو كنت فى مكان آخر، أمام مريض آخر، فماذا كنت تصنع؟» وأجبت رغما عنى «لقد كنت أفصده ...» أليس واجبا على الطبيب ألا يذكر شيئا مما رأى وسمع وفهم؟ وثب المبدأ القديم المبجل الذى يعتنقه تروسو الى ذهنى بغتة، فرأيت أن أعمل كما لم أكن رأيت أو سمعت أو فهمت شيئا ، أعنى كما لو كنت فى أروقة المستشفى . كان فى هذا واجبى كطبيب ، فى تلك القاعدة الأخلاقية التى تقول بأن المريض بالنسبة إلينا إنما هو مريض قبل كل شىء، ثم هو مريض ، وهو أخيرا مريض فقط ، بغض النظر عن كل اعتبار آخر...

ولكن ما ذا يكون من واجبي كرجل ؟ ألم أك مرغما ، وقد فاجأت السر الذى فاجأت ، أن أحول دون وقوع هذه الشناعة ؟ يكفى أن أترك المرض يفعل فعله ، وينتج أثره متقدّما بضع ساعات . ثم ماذا ؟ ... تصوّرت بغأة أن الكونت ده روكفيل قد مات ، وقد عدت الى أستاذى فى باريس أبلغه نتيجة مهمتى ، فيسألنى « ألم تجرب الفصد؟ » ورأيت النظرة التى يقرن بها هذا السؤال ، فشعرت انى لا أقوى ماديا على احتمالها ، لأن ضميرى كطبيب هو الذى سيحدجنى بواسطة عينيه الثاقبتين ، ويصدر حكمه علىّ . وأزالت هذه الصورة فى الحال كل أسباب تردّدى فاستجمعت كل عزمى ، وطلبت أن يعدّ ما يلزم للفصد ، ولم تمض ربع ساعة حتى كنت قد استخرجت من جسم المسيو ده روكفيل اربعمائة جرام من الدم . وكانت الهزات أثناء ذلك تهدأ رويدا ، والتنفس يعود ، ويعود معه الرشاد .

لقد كان الموت يأتمر أيضا

ثم قال الراوى «وقد نجحت هذه الوسيلة نجاحا باهرا حتى أن الأبناء الأربعة حينما قدموا ، ألفوا أمامهم ذلك الشخص القاسى ، بالغا كل رشاده ، وكل قوله ، وكل بغضه . وقد ساورنى أمل فى أن أحول دون وقوع هذه المأساة الفظيعة بأن أحظر دخول أكثر من شخص الى غرفته فى وقت واحد . ولكنى لم أحسب حسابا لعزمه الشرس الذى وجب أن تتكسر أوامرى على صخرته . بل لعله كان ينهض من فراشه ويذهب بنفسه لرؤية أولئك الذين أراد أن يسلم زوجه الى احتقارهم . وقد وقع المنظر الهائل ؛ ولم يمت إلا بعد أن ثلم شرف الأم فى عين أولادها ، وبث فى روحهم جرثومة مسمومة من الريب الرائع . وكان من فداحة الضربة أن توفيت مدام ده روكفيل قبل مرور عام من داء فى الكبد بعثه الحزن . أما الأولاد الأربعة ، ففر كل منهم من وجه أخيه من ذلك الحين ، ولم يبق اليوم منهم سوى الأكبر

والأصغر، وهما لا يلتقيان إطلاقا . ولعلكم تعتقدون إزاء ذلك، اننى أسائل نفسى أحيانا «ترى ماذا كان يحدث لو تركته يموت فى نوبته؟» ولكن لا . فانى مدى ستة وثلاثين عاما، ما أزال أعاود الكرة كما فعلت يومئذ، لأؤدّى واجبى كطبيب . وضميرى يؤكد لى أننى أحسنت صنعا، وأنه يجب ألا نتعرّض لتأويل هذا الواجب، بل يجب أن ننفــذه فقط . بيد أنكم ترون أنه يغدو أحيانا مرّا فادحا »[1].

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Le Cœur et le métier

شـــــريك فى الإثم

قابلت إدم رايمون على رصيف محطة ميلان . وكنت ذاهبا الى چنوه، وكان ذاهبا اليها، فلبثنا نتبادل خلال الطريق شتى الأحاديث، حتى ألقى على هذا السؤال البسيط وهو : أين تنزل فى چنوه؟ — فذكرت له اسم فنـدق فى ضاحية المدينة كنت أحبه لحديقته الشاسـعة ، فقال صاحبى : «سوف نفترق إذن ، فتصور أن هذا الفندق يرتبط عندى بذكرى أليمة جدا . وقد اعتدت فى نوع من الوهم ألا أعود إلى الأماكن التى لقيت فيها سيىء الوقائع . هل أقول واقعة؟ إنها كلمة ضخمة، ولكن...» ثم قال بعد صمت « هل تريد أن أقص عليك هذا الحادث، إذ أريد أن أعرف ماذا كنت تفعل لو كنت فى مكانى، وسوف أغير الأسماء وإن كنت لا تعرف الأشخاص ... »

وبدأ حديثه فقال — «كان ذلك منـذ خمسة عشر عاما أيام زيارتى الأولى لچنوه . فنزلت فى هذا الفندق لمثل ما يدعوك الى النزول فيه . وكنا فى الخريف فى جو بديع ساحر، فجلست فى المساء فى دغلة فى حديقة الفندق، لأدون بعض مذكرات عما شاهدت فى الصباح وفى العصر، واذا بنـبرات صوت على مقربة منى فى ممشى تفرق بينى و بينه حظـيرة من الزهر جعلتنى أرتجف، وكان صوت امرأة تتكلم موقنة بأنها لا تسمع من أحد، وكان الى جانبها رجل يسير ببطء . وكانت العبارة التى قالتها مبتذلة، فقد قالت :

« آه ، يا حبيبى العزيز، ما كنت أجرؤ على أن أتصور وجودى معك هنا، أمام ذلك البحر، وتحت هـذه السماء، وأمامنا ساعات ناعمة كثيرة ... ثمانى عشرة لأن قطارى يقوم ظهر غد ... »

فأجابها : «وأنا كذلك ما كنت اؤمل أن تظفرى بهذه الحرية . ولكن حذار، ولنعد إلى الفندق فغرفتنا أمينة . أما هذه الحديقة فليست كذلك، وقد يرانا أحد ...»

فقالت : «ومن ذا نلقاه؟ ما أبدع أن أتنفس هذا النسيم، وأن أتأمل مغيب الشمس إلى جانبك ... » .

فقال : «لقد كان الأفضل أن أتبع رأيي وأن أتحقق من ثبت المسافرين لدى وصولي » .

فقالت بلهجة عتاب رقيق : « بالك من قاس ! أتأسف أن لم تسرق مني خمس دقائق؟ لو كنت تحبني ما لجأت إلى كل هذا التقدير، وما كان لك ذلك الحذر » .

قال : «هذا من أجلك أنت أيتها الحبيبة، فأنت التي أريد أن أنقذ من كل حرج » .

فزفرت قائلة : «فليأتوا، فالأمور جميعها سواء عندي بعد أن نعمت بهذه السعادة؛ أفهمت ! نعم يستوي كل شيء ...» .

« ومضيا دون أن يشعرا بي . والآن في وسعك أن تقدر طبيعة انفعالي ومداه، إذ عرفت في هذه العاشقة التي لم تستطع أن تخفي سعادتها ، زوجة صديق من أعز أصدقائي . وسأسميه خلال قصتي شارل روتييه، وأسمي زوجه إذا شئت مرجريت . أما شريك هذا الموعد الذي ضرب في هذا الفندق النائي فلم أكن أعرفه؛ واعلم أيضا أنني حينما ذهبت صباح هذا اليوم لأتلقى رسائلي من مكتب البريد ألفيت بينها خطابا من روتييه نفسه ! فقد كتب إليّ من باريس يقول لي ، إن زوجه انتهزت فرصة سفر ابنة عم لها، دعتها إلى تمضية اسبوعين معها في فلورنس وروما، ويشير إلى ابنة العم هذه بعبارات الشكر والعرفان لما هيأته من دواعي السرور لعزيزته مرجريت . ولم تكن أسرة روتييه غنية ، فقد كان هو، أعني الزوج محاميا في بدء حياة أضحت اليوم باهرة . ولكن الفريبة كانت ذات دخل قدره مائة ألف . وكنت أعرف هذه التفاصيل لأني شهدت زواج شارل، بل لقد كانت هذه

القريبة زميلتى فى موكب الزواج . وقد مر على ذلك أعوام خمسة : أعوام خمسة صغيرة !

«وكان المحبان الطائشان قد أويا منذ بعيد الى مقامهما حيث كانا بلا ريب يتناولان العشاء وحدهما ، فى تلك الخلوة الخطرة المثيرة التى هى نعيم العلائق الخفية ، والتى تحتوى على جوانب أخرى كثيرة من التدهور الشائن . ويجب لكى نفهم سحرها للشاعر الدقيقة أن نعترف بما تحتويه من ضروب الشعر . أما أنا فكنت ما أزال أجلس الى خوانى الصغير فى الحديقة أمام كراستى المفتوحة جامدا باهتا . او لم يكن روتبيه صديقى العزيز لكانت تعرونى الكآبة بأكثر مما تعرونى السخرية لما أشهد من انهيار سريع لهذه الأسرة الفتية . ولكن أليست ضروب من السخرية هى ضروب من الكآبة ؟ ولقد كنت أشعر بمرارة غريبة إذ أستعرض التباين البسيط بين الحفلة الزوجية ، و بين هذا الموعد . ولكن روتبيه كان صديقى ، وكان يعبد هذه المرأة التى تزوجها على بعض كره من والديها ؛ وكنت أعرف أنه يرهق نفسه عملا من أجلها لكى يرفهها و يغمرها ؛ وأنه ، ولما يرزق منها بولد ، يضطرم شوقا الى أن يرزق به ؛ ضع كل ذلك جنبا الى جنب ، فتدرك أى غمرة من الاضطراب ألقى الى بها ذلك الاكتشاف الفجائى : كانت هذه المرأة التى تُعبد ، تخون زوجها وهو صديقى . فمتى بدأت هذه المغامرة ؟ وأنى لقيت ذلك الفتى الذى لا أذكر أنى رأيته فى منزلها ؟ وماذا كان الدور الذى أدّته ابنة العم ؟ هل كانت متواطئة مع مرجريت ؛ أم استطاعت مرجريت أن تخدعها كما خدعت شارل بعذر حسن ؟ وهل كانت هذه أول مرة حظى المحبان فيها بالوصل ؟ من يدرى ! فقد يكون ذلك الولد الذى يتمناه صديقى بما عرفت منه من لهفة الأبوّة ، قد حُمل به فى ذلك الفندق الذى كنت أرمق من خلال أشجار الحديقة واجهته اللامعة ذات النوافذ العديدة ؟ فأى هذه النوافذ

كانت تخص الجناح الذى يسكنه الجبان الآثمان ؟ كانت هـذه الأسئلة تطرح على ذهنى معا ، وانتهت جميعا بأن اندمجت فى سؤال آخر : ماذا كان واجبى ؟

«هنالك مثل هندى تعرفه مثلى . وهو أنه يجب ألا تضرب المرأة ولو بعود من الزهر . وان عظة الشهامة التى يحتويها لتمتزج بأعماق نفوسنا ، حتى لقد بدأت أجيب نفسى بأن واجبى هو السكوت . أألزم الصمت ؟ رأيت فى لوحة الفكر شارل روتييه مثل ما رأيته منذ زواجه مرارا وتكرارا ، منحنيا فوق أوراق موكليه ، وهو يستقبلنى فى مكتبه بهذه العبارة أو مايشبهها : «لا يتسع وقتى لمصافحتك ، فانى أغص بالقضايا ، وهى تزيد فى ثروتنا الصغيرة . واذا كان للمرء من يعمل لأجله هان عنده كل جهد» . ثم يرمقنى بمحيا أضناه التعب ، ولكن تضيئه ابتسامة سعيدة . وبينما هو يكد على هذا النحو ويقتل نفسه فى أداء عمله لكى يحقق لزوجه ترف الحياة ، اذا بها تستسلم الى وصل غيره ! واذا بها تنفق على زينتها ذلك المال الذى يكسبه زوجها المجدّ ، لكى تروق لغيره ! وأنا الذى سمعت ما سمعت ، أأصبر على أن يستمرّ استغلال سافلة لرجل هذا إخلاصه وهذا شرفه ؟ وهل ألزم الصمت؟ لقد كان ذلك اشتراكا فى الإثم . وعادت الى ذهنى مراحل صداقتى القديمة مع شارل كلها ، فرأيته تلميذا فى العاشرة يرتدى ثوبا كثوبى وتصوّرت هاتيك الأيام . ورأيته فى الخامسة عشرة وأنا معه نقضى العطلة المدرسية فى ضواحى تور عند أقاربه فى الريف . ثم كنا معا فى كلية "لوى الأكبر" . ثم رأيته فى العشرين يؤدّى خدمته العسكرية معى . ثم كانت حياتنا فى الحى اللاتينى حينما كنا ندرس معا فى كلية الحقوق . فكل هـذه العشرة ، بل كل هذه الأخوة التى استطالت زهاء ربع قرن ثارت فى نفسى إزاء هذا الاشتراك فى الإثم ، يجريه الصمت . أجل ! فصمتى اشتراك فى الإثم . ولئن ارتكب

المحبان يوما حماقة ، فهل أستطيع اذا ما قص على شارل خيانة مرجريت أن أجيبه « بأنى كنت أعرف كل شيء » . واذا أجبته بهذا ، أفلن ينقم منى أنى لم أنذره؟ ومع ذلك فهل أنذره ؟ وهل أبلغ فى حق امرأة ؟ وهل يمكن هذا ؟ وقد كان واجبا أن أرد على خطاب صديق ، أفليس الأفضل أن ينكسر قلمى مما لو سطرت قصة ما فاجأت؟ ولست أزيدك ، فأنت تعلم الآن لماذا أرى فى الفندق الذى أمضيت فيه هذا المساء وهذا الليل أتخبط فى غمار الضمير ، ذكرى لا تحتمل . وكان تصورى ان الخيانة تقع فى نفس هذه اللحظة على مقربة منى ، وان مرجريت بين ذراعى عاشقها فى غرفة قد تكون مجاورة لغرفتى ، يجشمنى الى جانب هذا النضال المعنوى ، اشمئزازا ماديا يصل الى حدّ المعاناة .

« وفى الصباح كنت اعتزمت أمرى . فلن أبلغ فى حق الفتاة بلا ريب ، ولن يعرف شارل شيئا ، ولن يكون أول أوآخر زوج يخان فى أسرته ويعيش هادئا . ولما كان يحب هذه المخلوقة كما يحب ، فان إبلاغه أمر نذالتها يعنى وضع سلاح الانتحار فى يده . فليجهل إذن كل شيء . أما أنا فقد أملت أن أنسى هذه الرؤية التى هيأتها لى تلك المصادفة العجيبة . فان مرجريت روتييه لم ترنى ، ولا تعرف انى أعرف ، ولن تعرف أبدا . وسوف تركب قطار الظهر طبق ما قالت فى ممشى الحديقة . وكان علىّ أن أركب قطارا الى الجهة المعاكسة فى نفس الوقت . تعوّلت على أن أؤخر رحيلى حتى لا أخاطر بمقابلتها ، رغم أنى كنت أوقن انها ستذهب الى المحطة بمفردها ، ولم يكن محتملا أن تعيد حماقتها فتبدو جهرا مع عاشقها . غير أنى لم أحسب حسابا لذلك التمول الخبيث — تمول الخطر — الذى يدفع المحبين أحيانا الى تحدى كل شيء . وإن خليلة تهيم شغفا بذلك الذى استسلمت إليه سرا واطلاقا ، لتأنس سحرا لا يقدر اذا سارت متوكئة على ذراعه ،

أو برزت معه جهرا كأنها زوجه . لماذا ؟ لست أستطيع إيضاحا لذلك ، ولكن استعرض ذكرياتك تشعر بهذه الحقيقة . وفى وسعنا أن نقول إن السواد الأعظم من المصائب التى تختتم بها أحوال الزنا بصور فاجعة ، لا ترجع الى سبب آخر ، مع انها قد تفتدى بأقل التحوطات .

ثم قال صاحبي : « وإليك مثلا آخر : غادرت الفندق مبكرا ، بعد هذا الليل الأرق ، معتزما ألا أعود اليه إلا متأخرا ، أعنى بعد أن تكون مرجريت قد ذهبت بلا ريب الى المحطة ، وكنت أفضل ألا أراها ولو منفردة . وبعد أن جبت شوارع المدينة عرضا ، أشرفت فى نحو الساعة الحادية عشرة على القصر الأحمر ، ودخلته لأرى صور « ڤان دايك » مرة أخرى . فتصور مبلغ دهشتى إذ سمعت من جديد ذلك الصوت الذى اضطربت له بالأمس تحت أشجار الحديقة ، يرن فى أروقة القصر المقفرة . أجل ! كانت الفتاة هنالك . وشد ما كنت أخشى رؤيتها ولو فريدة . فآه لو كانت فريدة فقط ! ولكن صوتا كان يجيبها ، هو صوت صاحبها بالأمس . وكنت فى تلك اللحظة أمام صورة « پاوولا » . الشهيرة . وكان العاشقان يقتربان منى كما يدل صوتهما ، وكانا يتكلمان عندئذ بشىء قليل من التحفظ . ولعلهما قدرا أن أحدا قد يراهما من الأصدقاء ، فكان لها أن ينتحلا المصادفة عذرا لهذا الاجتماع . بيد أنهما صمتا فجأة ، واستطعت بتلك الحدّة التى تتفتح فى حواسنا أحيانا ، أن أميز صوت همس . فقد غيرا لهجتهما . وقد رأتنى مرجريت وعرفتنى . ولا ريب أنها قالت لخليلها هذه العبارة التى تروعها «صديق لزوجى ! » . على أنها لم تفر ، بل ظلت الخطوات تقترب منى . أما أنا فلبثت جامدا أتأمل الصورة دائما كمن استغرق فكره ، وأسائل نفسى : « هل أرتد ؟ أليس الأفضل أن أفر عليها وعلى نفسى هذا الحرج ؟ بيد أنه ليس من المعقول أن أبقى كذلك دون حراك ، إذ تغلب

على عندئذ هيئــة من رأى ، ولا يريد أن يراها ، وهى إهانة لاريب فيها ...
ذلك لأن إحجامى عن رؤيتها معناه أنها فى حالة مريبة . واذا حييتها قدّمت
اليهــا فرصة الإيضاح واختراع عذر يمكن أن أتظاهر بقبــوله ... » كنت
أجادل نفسى على هذا النحو وألبث على جمودى . ثم وقف الاثنان ورائى .
ولا ريب أن المرأة المسكينة كانت تسائل نفسها عما اذا لم أكن ألعب دورا .
بيد أنها لم تعتزم أن تفاتحنى هى بالحديث . ولكنها تدرعت بتلك الشجاعة
التى يبديهــا النساء دفاعا عن هنائهن ، وجرؤت أن تتكلم بصوت عال لكى
ترغمنى على الارتداد .

« فقالت ، انك على حق ياسيدى ، فهذه الصورة هى أبدع ما فى الرواق...
وأشكرك ان أريتنى إياها ... وأؤمل أن أراك فى باريس ... أما الآن فيجب
أن أعود حالا لكى لا يفوتنى قطارى .

« وكان مستحيلا ، ان لم أكن أصم ، ألا أسمعها . بيد أنى لم أرتد قط !
وترددت مرجريت روتييه برهة ، ثم ابتعدت كأنها لم تلاحظ وجودى أيضا ،
وتبعها الفتى بعد بضع ثوان ، بينما لبثت أنا فى موقفى الشاذ فى هيئة المأخوذ
أمام صورة « ڤان دايك » . والخلاصة أنه لمــا ابتعدت عنى خطوات عاشق
مدام روتييــه ، وعدت أنا الى السير ، سقطت فى غمار من الندم لا أستطيع
وصفها . ذلك أنى بمــا تظاهرت من عدم رؤية مرجريت ، قــد نبأتها كما
لو نبأتها بأوضح الكلام ، أنى أعتقد فى إثمها وفيم هذا الإثم . ولا ريب أن أوّل
ما فعله الفتى عنــد عوده الى الفندق هو مراجعة ثبت النزلاء ، فهنالك يجد
اسمى . وعنــدئذ يقفان على الحقيقة ويعلمان أنى قد اكتشفت وجودهما
فى ذلك المقام العرضى . وكونى لم أرتد فى رواق القصر الأحمر دليــل على
أنى لم أفاجىء بهذه المقابلة ، وإلا فلا بدّ أن الدهشة كانت تثير منى حركة .
والنتيجة المحققة هى أننى لا أستطيع بعد ، فى نظر زوجة شارل أن أتظاهر

بجهل زلتها . أجل ! كانت تعرف أنى أعرف لها خليلا ، وكانت تعرف أنى أعرف . بأى وجه سيقابل أحدنا الآخر؟ لقد كنت أشمئز من شركة فى الإثم . ولكنى انحدرت اليها الآن . فاذا مجرم يحصل منا على دليل بأنا نعرف ذنبه وأنا نشاركه فيه بالصمت ، فإن له الحق أن يعتبر أنا نتواطأ معه . فشد ما كان الأعقل أن أسيغ المهزلة التى كان تدعونى اليها عبارتها . ولو أنى ارتددت بكل بساطة وقلت لها : أهذه أنت يا سيدتى ، لكانت قدمت الى صاحبها قائلة إنها لقيته فى جنوه مصادفة فقط ، ولكانت كتبت عنه وعنى الى زوجها . ولكنها قد غدت الآن مرغمة على الصمت إزاء زوجها لكى لا تناقض ما سوف أقوله لصديقى ، لو قلت له شيئا . وهكذا تصبح علائقنا وقد سممت الى الأبد ، وذلك من جراء ما ارتكبت من غباء أو حذر .

« وكان الأثر الأول لهذا الموقف الزائف هو أنه استحال على ، خلال الاثنى عشر يوما التى قضيتها فى سفرتى ، أن أرد على خطاب الزوج المعتدى عليه . ولعلى ألبث لأول مرة مدى أسبوعين دون أن أستفهم من شارل عن أخباره ودون أن أبعث اليه بأخبارى . فلما عدت الى باريس لبثت مدى أسبوعين آخرين دون أن أستطيع الإقدام على زيارته . وكنت أشعر أن هذا الاحجام أكثر حماقة من تصرفى فى القصر الأحمر ، وما كان بوسع شارل ألا يدهش لذلك ، ولا بدّ أنه سوف يسألنى عن السبب . بيد أنى كنت قوى العزم ألا أبلغ اليه خيانة زوجه . واذن فماذا كان يعنى هذا الإحجام عن زيارته ؟ جادلت نفسى ، فأرغمتنى فكرة أنى شريك فى أشنع إهانة تلحق هذا الرجل ان أبقى على احجامى . وكنت أخلو الى نفسى يوما فى منزلى ، وأسائلها : متى أستطيع أن أستأنف هذه العلائق التى تتحرج يوما عن يوم ، واذا بخادمى يعلن الىّ أن سيدة تريد أن ترانى ، فأمرت بإدخالها ، فاذا بى أرى مرجريت روتييه بذاتها .

فابتدرتنى قائلة : انى هالكة .

ثم قالت دون شرح وفى لهفة الجزع : « لقد ألقت المصادفة سرى بين يديك ، وأعلم أنك لم توقع بى لدى شارل ، ولهذا أراك انقطعت عن زيارتنا . لكن لك قلبا ، وسوف تشفق على منكودة . أكرر لك أنى هالكة ... فقد حملت ... » .

« فلم تكن المنكودة تطلب الى فقط أن أبقى عند اشتراكى فى الاثم بطريقة سلبية ، بل كانت تطلب الى الاشتراك الفعلى . وكانت قد عادت من ايطاليا منذ ثلاثة أيام فقط ، وعرفت من أمارات لا شك فيها أنها قد حملت منذ شهر . ويجب أن أزيد على ذلك ما اعترفت به خلال الدموع والزفرات ، وهو أنها منذ كان لها خليل ، كانت تعتذر باعتلال صحتها لتعيش منفصلة عن زوجها ، فجاءت هذه الأمومة لها خطرا أروع ، هذا فى حين أنى كنت هنالك ، أنا عزيز زوجها بل أخوه لأقص ما شاهدت . وقد فكرت فى أن تفر مع خليلها ، وبذلت لديه مسعى لم ينرها تماما عن طبيعة عواطفه نحوها ، ففكرت فى الانتحار ، ولكن غريزة البقاء غلبت عليها . فهرولت خلال اضطرابها الى لأنها تعرف أنى أعرف سرها كما قالت ، لكى تناشدنى الرأفة ... ماذا ؟ لقد شعرت خلال ذلك أى حاجز ضئيل يردنا عن الجريمة ! أجل ! لقد جاءت تضرع الى أن أصحبها الى طبيب لكى ترجوه ... ماذا أيضا ؟ ترجوه مساعدة دنيئة هى أن يقف هذا الحمل الفاضح . وهل ترانى فى حاجة لأنبئك بجوابى ، وما نصحت به اليها ، وما تضرعت أن تعيش ، والا تعتدى على حياتها أو حياة الولد الذى تحمل فى جوانحها ؟ لقد ألحفت عليها قائلا :

« — خير أن تعترفى الى شارل بكل شىء ، وأن تفترقا ، وسوف تحتفظين بمالك وولدك . وفى وسعك أن تجدى الوسيلة الى الطلاق . وان تحملى ذلك الندم الخالد ، ندم القتل — وأى قتل — عبئا على ضميرك .

«وأخذت أثناء حديثى تعاودها السكينة، ثم انصرفت بعد أن أقسمت لى أنها لن تحاول انتحارا أو اعتداء على حياة الطفل . وفى الغد زال منى كل تردد فى زيارة شارل، فقصدت الى منزله منذ الساعة العاشرة. وكنت واثقا أنى أجده فى هذا الوقت، فتلقانى بفرح أيقنت منه أنه لا يعلم ذرة من حقيقة المأساة التى كان منزله لها مسرحا .

قال لى مبتهجا : لقد كدت أنكرك، فما هـذا التصرف ؟ لقد عادت مرجريت من ايطاليا راضية عن رحلتها كل الرضا، أما أنت فماذا حدث لك؟ أخالك قد وقعت فى شرك غرام. ألم يحن الوقت لاستقامتك بعد؟ ومع ذلك فان السعادة فى الزواج، وصدقنى أن لا سعادة الا فيه ... ! » .

وانى لأفر عليك شرح الأعذار التى قدمتها الى ذلك الرجل المخدوع شرحا لصمتى وغيابى .

«وفى مساء نفس اليوم كنت أتعشى عنده، الى جانب المرأة اليائسة التى زارتنى بالأمس ، والتى كان يبدو على وجهها الجامد، أنهـا قد نسيت غمرة الاضطراب التى تجوزها والخطر المروع الذى يهددها . وأدركت أى حل بسيط لقيته لذلك المشكل المؤسى، وذلك حينما أفضى الى شارل بعـد ذلك بشهر باعتراف جديد . وكنا ندخن فى خلوة بعد أن تناولنا العشاء معا .

« قال لى — انى جم السـعادة أيها الصديق ، فسوف يتحقق حلمى اذ أؤمل أن أغدو أبا . وسوف تكون الولى » .

« وقبل أن تمضى ثمانية أشهر على ذلك وضعت مرجريت ابنا، حدثنى عنه شارل بكبرياء لم أفكر أن أبتسم لها .

« قال لى — أجل أيها الصديق، أنه طفل قوى وقد جاء قبل الأوان فى سبعة أشهر ونصف، وهو أمر عجيب . وكنت خائفا فطمأننى الطبيب وهو طبيب بارع ، عرفت مرجريت عنوانه مصادفة من احدى صديقاتها

عقب عودها من إيطاليا . وكانت فى الواقع عليلة، وكنت أخشى أن لا أكون أبا، فأسعفها بعنايته وحذقه، وانى أكرر لك أنى جم السعادة .

«وكنت وهو يحدثنى أكاد أسقط خزيا وخجلا . ألم أكن أحد أولئك الذين عاونوا فى تأييد ذلك الوهم الشنيع الذى سوف يعيش فيه منذ الآن وسوف يهرم ؟ وقد فهمت أن مرجريت حينما غادرت منزلى ذهبت الى طبيب ما، وسألته فى الإجهاض، فنصح الطبيب الى عميلته اليائسة أن ترد الأمور جميعا الى زوجها متعهدا بحمله على قبول التواريخ، وهى لا تدعو الى الشك .

«هل كنت على حق أم على ضلال إذ أحجمت عن الكلام منذ البداية؟ وهل أنا على حق أم ضلال اذ ألزم الصمت الآن ؟ إنى بعد هذه الأعوام العدة مازلت أسائل نفسى دون جواب : وهل كنت على حق أم ضلال اذ حملت الى التعميد هذا الطفل الذى أعرف أباه الحقيق؟ بيد أنه لم تمض ستة أشهر على ولادته حتى استطاعت أمه أن تكدر صفو علائق مع شارل، فلم أحاول أن أنير الموقف، بعد أن أصبحت أشعر عند زيارتى لذلك البيت بأشد الآلام ... وفى وسعك أن تفهم الآن لماذا لا أرافقك الى فندق... فى جنوه .

«وهل أقول أنى أيضا لم أنزل فى هذا الفندق عطفا على شعور إدم رايمون ؟ وكثيرا ما سألت نفسى ماذا كنت أفعل أنا لو كنت مكانه . إن مثل هذا الصمت إزاء صديق حق، جريمة ! ومع ذلك فما أقسى التكلم ! وهذا برهان على أنه يجب علينا دائما أن نتجاهل بعض الأسرار، فان أحكم سياسة فى الحياة، هو أن يغلق المرء عينيه وأذنيه لكى لا يعلم شيئا عن زلات الغير، وهو الأسلوب الوحيد الذى يبقى للمرء كل طهارته . بيد أنه ليس من اليسير دائما»[1] .

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Les Détours du cœur

صـــــدقة !

تألق فى سماء الأدب، حوالى سنة ١٨٨٠، عام وقوع هذه السيرة، أسم هو اسم الكاتب القصصى چوليان دورسين. وكان قد نشر أول كتبه، وربما خيرها، وهو "مباحث فى النساء" فنال ظفرا ما زلنا نذكره؛ ولكنه أثار حوله عاصفة من الحسد. بل انى لأعترف أن أولئك الحساد كانوا يحتشدون فى كل ناحية، حيثما بزغ بخر هذا المجد الفتى بين رفاق حداثة هذا الصديق، وهم رفاق حداثتى أيضا. وكانوا يبدأون العمل فى صحف الطريق، بينا هو قد بدأ العمل للمكتبة؛ و بينا يكتبون مقالات ضئيلة الأجر، اذا به يستمرئ لأول جولة طرب الورقة ذات الألف. وكان طبيعيا ألا يروق فوزه لدى معظم رفاقه فى المران والبداية. ولكن الحق أن هـذا التذمر لم يتعدّ حدود الحانة أو المكتب. ولم يكن إلا واحد كان من أعز أصدقاء دورسين، هو الذى اضطرم غضبه لذلك الفوز الى حدّ أنه لم يملك الجهر به. وقد نُسى اسمه اليوم كما نسيت حملاته؛ واسمه أمبرواز تورى. وقد عرفناه أنا وچوليان فى الحى اللاتينى. وكان أكبر منا بعشر سنين. وكان يكتب قصائد للمجلات الجارية، التى كانت تحوم يومئذ كما تحوم اليوم حول "الأوديون". وكان قد هجر الحى الى الشارع. فلما سئم نظم الأناشيد التى لم تكن تحمل اليه سوى مديح السوقة، أو بالحرى مديح المقاهى، اعتزم الكتابة فى الصحف؛ فنشر فيها فصولا لقيت نجاحا. وكان يحرّر فى صحيفة اختفت اليوم، ولكنها كانت وقتئذ فى إبان ذيوعها. ففيها بدأ الحملة على دورسين، أوّلا فى كلمات صغيرة عرضية، ثم فى فقرات أشدّ صرامة، ثم انتهى الى كتابة إحدى هذه المقالات المسمومة التى لا يمليها إلا بغض حل مكان حب، فجاءت فياضة بالمخازى والإشارات الكاذبة الى شؤون الحياة الخاصة، وجاءت كل كلمة

منها جارحة للعزة فى المواضع الحساسة . وانى لأذكر حتى اليوم رغم بعدى عن الموضوع ، أننى آنست لدى قراءتها عاطفة شنيعة من بؤس حياة الكاتب ؛ وكنت كثيرا ما تناولت الطعام مع هذين الرجلين وكثيرا ما رأيتهما يتصافيان فى تبادل الآراء ، ومزج المشاريع الأدبية .

قلت لنفسى ، عسى ألا أقابل تورى مدى حين ، وأنا أطوى الصحيفة التى حاول الشاعر القديم أن يهدم فيها مجد صديقة الفتى ، « واعمرى انه لسخيف يجب ألا تصافحه يدى ... وكذا دورسين لابدّ أنه فى حاجة الى السكينة ، فلست أفعل إلا أن أزيد فى ثورة نفسه ... » .

على أنه ما انصرم الأسبوع حتى لقيتهما الواحد بعد الآخر ، وأستطيع أن أقول أنى لقيتهما معا .

٢

وكان تورى أوّل من لقيت ، لقيته أمام أطلال مجلس الدولة القديم . ولم أكن رأيته منذ أشهر . فتأثرت لانطفاء وجهه الوسيم ، وذبول شخصه النحيل ، حتى لقد كدت أنسى غضبى منه يوم قراءة المقال . وكان ضعيف البنية دائما ، ولكن نحوله ، و بياض شعره ، وحركاته العصبية ، لم تكن تشف بعد عن فقر فى الخلق ، بل كانت أعراض حمى صدرية لا بدّ أنها ترجع الى أسباب أعمق . ذلك أن عينيه الزرقاوين ، اللتين كانتا تسطعان عادة بقبس من السخرية ، كانتا تحترقان وقتئذ بضرام الفكرة الثابتة . وكان يعرف شدّة صداقتى لدورسين ، و يوقن أنى لا بدّ أن أثور غضبا عليه إذا لاقيته . ولكنه كان شديد الألم . فلم يفكر فى ذلك ، بل لم يدهشه برود لقائى حينما اعترضنى .

قال لى بعد أن تبادلنا عبارات التحية المبتذلة : « اعترف أنك تجدنى قد تغيرت . ذلك لأنى تعيس ، تعيس جدا ؛ فإن ماتيلد تحتضر ... » وكانت

ماتيلد هذه ممثلة صغيرة، حسناء المحيا، عديمة الفن، يعيش معها منذ أعوام. ثم قال «أتذكر كم كانت صبوحة، ضاحكة، ظريفـة؟ ... لقد غدت الآن جثة تسعل، وأى سعال! ... إنى لأفر من البيت حتى لا أسمع هذه الحشرجة، ولكنى أبقى فيـه لأراها قبل أن لا أستطيع ذلك بعد. ولعمرى لم أدرك حبى لها إلا بعد أن أصيبت. ولقد أصيبت من جراء بؤسنا، فقد كان فقرنا شديدا قبل أن التحق بجريدة ...» وذكر لى اسم الصحيفة التى حمل فيها على دروسين «كانت هذه فرصتى، ولكنى وأنا أستطيع اليوم أن أعنى بها بعض العناية بعد الإخلاص الذى أبدت، أراها تغادرنى! ولست أجرؤ أن أتصور ماذا يحل بى متى غادرتنى. آه، إنه لشنيع، شنيع جدا!».

ومازلت اليوم أذكره وأذكر رنة صوته الخشنة يلقى هذه الكلمات كأنها الأنين. كان يشـعر أنه مضطر الى الإفضاء بالألم الذى يخنقـه وأنى كنت أستطيع أن أجد قوة لتأنيبه؟ لقد كانت مقالته فى حق دورسين كهذه الشكوى، نفثـة مضطرمة لإحساس يعانى عذابا مبرحا يتجدّد فى كل يوم. وكانت سعادة زميله الفتى التى تحوم حولها أسطورة من الهوى الناعم، شديدة الوطأة على بأسائه؛ ولم يك ذلك جميلا ولكنه كان بشريا! وبعد فمن الذى أصابه باجترائه؟ لقد أصاب نفسه بتحقيرها أمام ضميره. أما دورسـين فلم ينقصه لا قارئ ولا صديق، واستأنف تورى غداة هذا المقال عمله الصحفى فى ظروف لم أشك أنها محزنة مثيرة.

وقال تورى: «إن ما سردته ليس إلا نصف عذابى. إنه لرائع أن أرى ماتيلد تذهب كذلك. وليتنى كنت أستطيع أن أتفرغ الى شخصها الذى سأفقد والذى أضحى مثوله معدودا بالأسابيع، بل الأيام! ولكن العمل؟ يجب أن أقوم به أثناء ذلك وأن أجد مواضيع للمقالات ثم أكتبها وأصححها. يجب ذلك من أجل المـال، والمرض كما تعلم كثير الكلفة. وهذا واجب

أيضا لكى أخدعها ولكى لا تعلم أنها مائتـة . ولقد طالمـا سمعت أن المصدورين لا يرون ، ولكن المسكينة صافية الذهن ، وقد كانت وما زالت وافرة الشجاعة ؛ ومع ذلك فانى أجد الوسيلة لأن أخدعها قليلا ، واليك البيان : إنها تعلم كم أحبها وأن العمل فى نفس الوقت يكون مبهظا اذا لم يكن ذهنى صافيا . ثم هى ترانى أحرر قسمى وتراه يظهر دون انقطاع ، فتعتقد أنها ليست فى خطر ، لأنى ما زلت أسـتطيع أن أسود الورق وأن اخترع الفـكر وأن أعنى أخيرا بشىء غير شخصها ... وهذا ما استطعته فى الواقع حتى الأيام الأخيرة . ولكنى أرى مذعورا لحظة لا أستطيع فيها بعد ... فاسمع ، إنا يوم ٢٣ ديسمبر ، وعلى أن أقدّم للجريدة قصة ليوم الميلاد ، مساء الغد ، ولكنى لم أستطع أن أكتب منها سطرا ، بل لست أجد موضوعا للكتابة ، وأشعر أن ذهنى أبيض ناصعا ، فقد مرت بى ليلتان هائلتان اشتدّت فيهما وطأة المرض وكنت أسهر عليها . وكان خداها المسكينان قـد تجوّفا ويداها محمومتين ، ثم كان ذلك السعال ! فدفعت مائدتى الى قرب فراشها ونبأتها بخبر القصة ، وأنى سأكتبها بالقرب منهـا ... وأخذت لكى أحملها على الاعتقاد بأنى أعمل ، أسـطر فى الورق الأبيض كلمات لا معنى لها ... ثم سألتنى قبيل أن أخرج عما اذا لم أكن قد أتممت كل شىء فأجبتها ، ان نعم ، وانى ذاهب الى الجريدة أحمل الأصول وأصحح النماذج ، فلاحظت أنها سرت لأنها لم تمنعنى من أداء عملى . وارحمتاه للعزيزة ، إن أهم ما نتألم له هو أن ما تجهلنى إياه من الهموم سيحطم حيـاتى ، فلا أستطيع بعد أن أحتفظ بمركزى الحالى ! وتالله إن هذه الصحف القذرة لسـوق التنافس ، فقـد جذبت آلاف المشتركين الى جريدة * * ولكن صاحبها قد يسر اذا استطاع أن يستبدلنى بأحد أولئـك المبتدئين الأحداث الذين يعملون بتافه الأجر ! ... على انى سأكتب القصة وسأجد الموضوع ، سأجده وسأكتبه ... » .

وكنا قد وصلنا الى زاوية شارع دى باك، وتورى يكرر تأكيده بغضب يتهدج فيه يأس ممتزجة تعني بمحتضرة حبيبة، وكان ثمة مقهى حمله القفر على الإغلاق . وكان تورى، وهو يقيم بالقرب من هذا المكان، من رواد هذا المنتدى فقال لى : سأتركك الآن لأعالج كتابة هذه الصفحات . نعم سأكتبها هنا، أيدهشك هذا ؟ لقد غدا هذا المقهى مكتبي، فاذا برح بى الجوى قلت لماتيلد أنى ذاهب الى الجريدة كما فعلت الآن ثم آتى هنا فهيا ووداعا ! » .

٣

وما كاد يدفع الباب ويختفى ظهره المقوس فى ظلمات المقهى المقفر، حتى سمعت شخصا ينادينى باسمى . فارتجفت لأنى سمعت صوت دورسين . وكان يركب عربة فرآنى، فاستوقف السائق ثم نادانى . ولو تقدم برهة لالتـقى مع قاذفه وجها لوجه . فارتجفت خشـية أن يخرج تورى فى تلك اللحظة، وهرولت نحو عربة دورسين بسرعة جعلته يبتسم . ذلك لأنه حزر السبب، وعلمت من كلمـاته الأولى أنه رأى صديقنا القديم، الذى غدا عدوه الألد .

قال لى بتهكم مغصوب تبينت فيه الغيظ الخفى : «لست فخورا إذ تسير جهرا الى جانب شق مثل تورى . لقد قرأت قذفه القذر فى حق، أجل . ولكن الذى لا تعرفه هو أن مديره قد أرسله ليطلب الى التحرير فى صحيفته منذ أشهر، فرفضت فكلفه أن يشهر بى . ولكنى قد اعتزمت أمرى . وهو ما تستطيع أن تنبئه به . لست أنحرف عن طريق لأبحث عنه، بيد انى اذا لاقيته، حيثما اتفق سواء فى المسرح أو المطعم أو الشارع، فسوف أحطمه . ولو أن نفرا من زملائنا الذين يخجى عليهم حذا حذوى لكف لسانه وقلمه عنا . ومع ذلك فقد انتقمت منه بالفعل . وذلك انى علمت من مصدر

ثقة، أن الصحيفة التي يعمل فيها ستحتجب عما قريب بعد أن نضبت مواردها، وستقوم مكانها أخرى » — وذكر لى اسم صحيفـة ظهرت بعد ذلك بيومين — « وسوف يظهر العدد الأول فى أقرب وقت . وقد جاءنى أصحابها أيضا يطلبون منى الكتابة، فطلبت ثبت المحررين، فوجدت فيه اسم السـيد تورى، فأبيت وآشترطت أن يختاروه أو يختارونى، فاختـارونى . بل انى لأحمل فى جيبى قصة الميلاد كتبتها للعدد الأول . وعلى هذا الشرط فلن يكون ثمة تورى! ... ما ذا تريد، ليس فى الأمر ظرف، ولكن راق لى أن أضايق هذا الوغد، وأن أرى كتّاب القصص الصغيرة أنى رجل الميدان مثلهم؛ والحق انهـا مهمة شاقة ولكنها أصلح الخطط لبعض الموضوعات؛ وقد عرضت لى موضوعات كثيرة ولكنى أعتقد أنى قد أحسنت الاختيار، فهل تريد أن تقول لى رأيك ؟ » ثم أخرج من جيبه عدّة أوراق كتبت على الآلة الكاتبة، وهو ما كان يندر يومئذ، وقال « بيد أنى لن أجشمك هذا العنـاء، بل اصعد الى العربة، فسوف أصحبك الى صديقتى، وهى جديدة لا تعرفها، لكى نتناول الشاى؛ هى غانية ولكن أنيقة رفيعة، وسوف تنسى برؤيتها قبح تورى اللهم الا اذا أردت العودة اليـه فى المقهى حيث رأيتـه يدخل . أما أنا فلن أدخل لألطمه، فانظركم أتدرع بالحكمة؛ ولكن فيم تفكر ؟ » .

فأجبت، « أفكر فيما قاله لى تورى فى هذا المكان بعينه منذ عشر دقائق » والحق أن البون كان شاسـعا بين ما سمعت فوق الافريز بعينه من صـديقى حداثتى، أحدهمـا وهو الكبير، قد حطمته الحياة وأضنته، والثـانى وهو الصـغير، ظافر، غنى بالأعمال والآمال . لقد كان يبدو فى عينى دو رسـين يقينه بقوّته، و يتفتح جبينه وتفتر شفتاه عن وافر ذكاء، وكانت هيئته الفياضة بالقوة، واناقة حركاته تؤكدان طوالعه الحسان، ومنها ذلك الذى أخذ يترنم به

فى ساذج حماسة ! ثم أى بون فى نفس الوقت بين هذا الشغف الذى يبديه قصصى شهير بغانية ، و بين ماتيلد المسكينة ، تلك الصاحبة القديمة المصدورة ، لشاعر تحطم . هذا الحلم المزدوج ، يضم حظا جم السعادة ، وحظا جم الأسى ، حملنى بغتة ألا أسيغ ذلك الحقد الذى يحمله أسعد الرجلين للآخر . و بدا لى ذلك الانتقام الذى يتلخص فى نزع القوت من أديب بائس ، من جانب فنان شهير ، خسة لا تليق بصديق . أليس فى كونه محبوبا ، غنيا ، جميلا ، شهيرا فتيا ، صفحة مذلة لتورى ؟ واشتدت بى هذه العاطفة حتى أنى لم أملك نفسى عن الكلام ، فقصصت على دورسين ، فقرة فقرة ، كل ما سمعته من صديق ماتيلد ، وصفا لما يعانيه من عذاب معنوى أمام فراش العذاب المادى . ووصفته له ، وهو فى تلك اللحظة بعينها يفر من المحتضرة حبا بها ، وانه يحبس نفسه وراء زجاج المقهى ، و يحاول بضربات الأبسنت أن ينتزع من ذهنه الدى صرعه الحزن ، موضوعا لتلك القصة التى يرغمه على كتابتها عمل يوشك أن ينفصم ، وحتى يحمل الى المسكينة شيئا من الطمأنينة يجعلها تعتقد أنها لم تشرف على النهاية . ثم قلت :

« قارن نفسك به ... وفى هذا فقط » وأشرت له الى أصول قصته التى مازال يمسك وقلت : « لقد انتقمت بكونك أنت وبكونه هو ، فلا تحاول انتقاما آخر ، فاذا قابلته فأنكره فقط ، واذا كانت صحيفته ستعطل ، فلا تغلق عليه باب أخرى ... هل تعد بذلك ؟ » .

فأجابنى بجفاء : « أما أنا فأرى أنه يجمع الى صفاته فى الحقارة والحسد وصمة النذالة ، فهو يعرف أنا صديقان ، وهو يعرف أيضا بلا مراء ماشترطته لدخولى فى تحرير الصحيفة الجديدة . وقد مثل أمامك هذه المهزلة عن خيانته المصدورة لكى تعيد على ما سمعت ولكى أشفق عليه . أما أنا فلا أشفق ، ولن يعمل هو فى الصحيفة الجديدة ، بل إنى سأحمل هذه الأصول وأجدد

شرطي هـذا ... وهذه لطمتي الأولى في انتظار اللطمة القادمة ، فهيا ، ووداعا ... » .

٤

فلم يبق ثمة مجال بعد لتناول الشاى عند الصاحبة الحسناء أو قراءة القصة الجديدة . لقد كان دورسين أبيقوريا ممتازا وكاتبا بالفطرة ، ولكنه كان أديبا أيضا . والأديب الذى تجرح عزته يغدو كثور المسرح اذا ما وخزته ، فيغلق عينيه ويطعن كالوحش الضارى . فتركته دون إلحاف ، متأثرا بما غلب على نفسه من صرامة ازاء بأساء عدوه . ولكنى كنت موقنا أن عناصر طبيعته الرفيعة ، ستغلب فى النهاية بعد التأمل ؛ وانه اذا كان قد فكر لحظة تفكيرا خسيسا ، فأنه لن تمضى ساعة أو يوم حتى يثيره ذلك المنظر ، وحتى يصنع ما طابت . ولم أشك أنى سأشهد فوز الضمير على هـذا النحو ، وان هـذه الروح الوثابة ولكن الكريمة ، تستشعر حالا بالحاجة القاهرة الى تطهير نفسها . والواقع انه لم يمض ربع ساعة وأنا أشغل بتأمل واجهة مكتبة فى هذا الشارع ، حتى خيل لى انى ألمح دورسين فى عربته . فقط كانت هذه العربة تيمم شطرا آخر . ولم أكن واهما فقد كان هو ... وقفت العربة أمام المقهى ونزل منها دورسين . ثم دفع الباب الذى اختفى وراءه تورى من قبل . لم يبق ريب ، وقد اعتزم الفتى المنتقم أن ينفذ مشروعه فى العقوبة . ولكن تورى لن يضرب دون دفاع عن نفسه . واذن كانت هـذه مبارزة محققة ، اللهم إلا اذا كان الصحفى يحجم عن المغامرة بضربة سيف ، قد تعجزه عن العمل ، فتتأثر صاحبته بنكبته وتذهب سريعا الى القبر .

ولعمرى إنى ليخفق قلبي اذا ما استعرضت ذلك المنظر رغم كرور الأعوام . وما كنت أستطيع أن أشهد معركة تقوم بين هذين الرجلين دون أن أمثل فيها ، إذ كنت الشخص الوحيد الذى يستطيع الوثوب بينهما ،

فهرولت الى باب المقهى ، ولكنى سرحت البصر قبل الدخول فوقفت جامدا إزاء مارأيت ، ولم أتقدّم خطوة . كانت تجلس وراء « المصرف » سيدة عجوز، تعلو محياها كآبة تشف عن جزع مالكة ترى فى قفر البهو شبح الأفلاس . ولم يك ثمة سوى عميل يدخن مستغرقا فى قراءة صحيفة مصورة . وكان أحد الخادمين يقرأ أيضا . أما الثانى فكان يحمل الى دورسين شرابا . وكان دورسين يرقب من مكانه امبرواز تورى الذى كان جالسا إلى المائدة المجاورة له . ولكن تورى كان نائما ، وأى نوم ! ذلك أن الشاعر القديم نفذ مشروعه فى استمداد الوحى من الأبسنت ، فشرب الكأس تلو الكأس دون أن يفتح عليه بشيء . وكان ثمة أمامه ورقة عليها سطور مشوشة ، تنم عن نكبة ذهنه . وقد استغرق الآن هادئا فى سبات ، لينسى على الأقل . وكان دورسين يتأمله مليا . فماذا كانت عواطفه عندئذ ؟ لم أعرفها قط . ولكنى رأيته يلقى ثمن مشروبه الذى لم يلمسه . ثم استخرج من جيبه أوراقا عرفت أنها أصول قصة الميلاد . ثم طلب غلافا من الخادم ، أودعه الأوراق ، وكتب عليه عنوانا . ثم جال ببصره فى البهو ، ليتأكد من أن أحدا لا يراه ، ووضع الغلاف بخفة أمام تورى ، وكان ما يزال غارقا فى سباته . ثم خرج مسرعا من المقهى ، فاصطدم بى ، فقلت له : ترى ماذا فعلت ؟

أجابنى ، وقد اشتد احمراره لتلك المفاجأة : لقد انتقمت لنفسى . وكنت أريد ضربه فى الواقع ، ولكنى ألفيت ما هو أحسن .

ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة ، يكذبها اغروراق عينيه بالدمع . وقال : «عدنى أنه لن يعرف قط ! ومن حسن الطالع أنى لم أوقع قصتى ! »

٥

هل استطاع تورى أن يحزر من أين جاءته هذه الصدقة الجميلة ، وهى

أشد ما رأيت من الصدقات طرافة وجدة ؟ لم أعلم شيئا من ذلك . ولكن الذى عرفته هو أنه لم يعش إلا ثلاثة أشهر بعد ماتيلد، التى ماتت ليومين فقط من لقائنا الذى لم أره بعده . ولم يذهب كرم دورسين عبثا لأن القصة ظهرت، وظهرت بتوقيع ذلك الذى وهبت اليه على هذا النحو الغريب . ولم يشكره تورى قط . بيد أنه اذا كان قد عرف شخص المحسن اليه من مادته، أفلم يكن قبوله تكفيرا عما أساء به الى جوليان، وهو تكفير دقيق فى صمته كهذه الصدقة ذاتها ؟ (١)

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Le Cœur et le métier .

اللواحظ الضائعة

دفعنى موعد عمل هـذا الصباح الى قلب الحى اللاتينى ، وكان غد يوم وقعت فيه جريمة قتل سـياسى رنانة روعت أوربا ، فمررت بشارع مدرسة الطب ، أمام مطعم للطلبة ، عرفت فيه نوعا من هذه المخلوقات النادرة عندنا ، أعنى فتاة نهليزية ، وسرعان ماتنبهت جميع ذكرياتى ؛ وكان ذلك منذ عشرة أعوام ، ولكن المطعم لم يتغير . وكانت الأقمشـة اللامعة تغطى موائده هنـا وهنالك ، وثمة مدفأ فى الوسط ، وبجانب أحد الجدران دولاب مقسم توضع فيه فوط العمال مرقمه ، ويلى هذا الدولاب سلم مدور يغطيه ستار من الحرير الأخضر ، يفضى الى المخادع الخاصة ، التى يقود الطلبة السعداء اليها صاحباتهم من فتيـات الحانات أو الحـدائق . وإنه لمطعم متواضـع كثيرا ما ارتدته فى ذلك العهد البعيد ، الذى كنت فيه بعيدا عن أسرتى كما تقضى التقاليد الأدبية . وكنت أعطى دروسا فى الفلسفة واللاتينية . أجل ، كم مرة جلست هنالك ! كنت فى ذلك العهد ألاحظ ذلك الهو الصغير ، بعين تغترف من الحقيقة ما كنت أحلم بالانتقال اليـه فى خيال بديع . فاشد ما كان سرورى ذات صباح ، ثم مساء هذا الصباح ، ثم فى كل يوم بعد ذلك ، أن أرى فتاة تجلس على مقربة منى ذات هيئة غريبة تحمل المستهتر نفسه على التأمل . وكانت صغيرة القد ، نحيلة الجسم بالنسبة لرأسها ، شعرها كلون القسطل ، مقصوص مفروق ، قد يخيل اليك أنها ذكر لولا شحوب شديد فى لونها ، ودقة متناهية فى ملامحها . وكانت زرقة عينها الخضراء كأنها أمارة السقم فى هذا الشحوب ، وشفتاها شديدتا الحمرة ، حتى لكأنهما مدهونتان . بيد أنها كانت فى كل لحظة تعض على شفتيها المصبوحتين ، كأنمـا كانت تريد أن تؤكد أن هذا الاحمرار إنما هو احمرار دمها الحى ؛ فتكشف بذلك عن أسنان ناصعة مفترقة . وكان

ثمة نوع من النعومة يبدو فى حركات هذه المخلوقة الدقيقة الظريفة . وكانت ذات هيئة عصبية ، حينما تضع يدها اليمنى على وجهها الشاحب ، وهى يد فتى ، مربوعة ، ذات أصابع طويلة عاطلة من الحلى . ففيم كانت عندئذ تفكر هاتان العينان الجامدتان القاسيتان ، اللتان لم يكن ينطبع فيهما شىء مما يحيط بهما من الأشياء المبتذلة التى تتحرك خلالها ؟ كانت عندئذ هادئة جامدة كأنها حمى باردة . وكان لها أفتنان بديع فى التأمل وهيئة استسلام مطبق ، حينما تسند الى هذه المائدة المسكينة جسما كانت أحلامه تطوف فى عالم آخر ، حتى أنى لم أحاول أن أنبهها ، بل قنعت بأن أشدد التأمل ، فى كل ملامحها . فمن كانت ، ومن أين أتت ؟ لم أسألها ، إذ ما الخير فى محادثة رءوس بيلغ من أثر نظراتها المحيرة أن يحملها خيالنا على عواطف لا تتفق من حقيقة مع الحقائق .

ولكن حدث ذات مساء أن جاء ثلاثة من أصدقائى ، وهم فتيان أدباء مثلى ، ومثلى طلاب للنبوغ ، لتناول العشاء فى المطعم ، فجاوزنا المعتاد فى الشراب قليلا ، فانطلقت منا الألسن ، وطفقت أنا أحدث أضيافى عن « النهليزم » بحماسة ، وأنتقل من متناقض الى متناقض ، داعيا الى اضرام النار فى العالم القديم بأسره . ومن ذا الذى لم يأنس بين أولئك الذين يعيشون كثيرا بالحديث ، طرب الحديث ، أو الطرب الذى يبعثه سرورك باخراج فكرتك ؟ ومن ذا الذى لم يأنس تلك الحاجة الغريبــة فى نهك خياله بجرأة تطرفه ؟ لقد كنت فصيحا كما كان يدل على ذلك مرح أصدقائى لمــا أبثه من هذه الاشتراكية التى يذكيها الشراب ، وكنت أغرق فى تأييد نظرية أعرف أنها سخيفة ، ولا أعبأ بهــا إلا كما أعبأ بأنشودتى الأولى ، التى ترسلها فتوة عقل حارة ، تأسف بعد ذلك لمــا بددت من تراث مخصب .

ولم أكن قد لاحظت أن الفتاة المجهولة كانت تشهد هذه العاصفة من فلسفة التشاؤم ، فدهشت أن أراها فى الغد ترمقنى ، ولكن بنظرة لا تدعو

الى الغزل، إذ لم يك يمثل فيها شيء من الدلال . بل لقـد تنزلت بأن تبتسم لمزحة بريئة وجهتها الى الخادمة، فارتسمت على فمها الأحمر ابتسامة بيضاء، وانتهى الأمر بأن عقـد الحـديث بيننا . بأى عبارات مبتذلة كان ذلك ؟ لست أذكر شيئا منه ؛ ولكن المرأة اذا أرادت أن تحدّث رجلا ، فان لهـا فى السكوت أسلوبا يرغمك على أن تخاطبها . وسرعان ما أدركت أن ثرثرتى فى المساء السابق كانت سبب هـذا الانقلاب، إذ لم يمض على حديثنا ربع ساعة حتى علمت أن هـذه الفتاة روسية ، ولم تمض نصف الساعة، حتى كشفت لى نظرياتها العامة أنها كانت نهليزية متطرفة ، وقد اعترفت لى أنها مذ قدمت الى فرنسا تعـانى ألم الوحدة المرّة ، وتأكل قلب نفسها ، وأن عثورها بجار لهـا يقترب منهـا بنظرياته ، قد أنعشها كما ينعش قدح المـاء فى يوم صـيف حار . والحق أنى شعرت بشيء من الخجل لأن نظرياتى النهليزية ، كانت قد تبدّدت مع بخار النبيذ . لكن هذا الفم الأحمر، وهاتان العينان الزرقاوان بخضرة، ولكن هذا اللون الناصع الشاحب، الذى كأنه لون « كاميليا » سقيمة؛ ولكن هذه اللهجة الروسية التى ليست بلهجة، ولكنها تطبع بالرنين كل عبارة — ولعمرى لقد كنت على أهبة لأن أعتنق الإسلام أو غيره لأعرف ما ذا يكون ثمة وراء كل هذا ؛ ولكن كل ما كان يطلب منى هو ألا أعتقـد فى شيء ؛ وكان هـذا أيسر — واذا فقـد احتفظت بحجاب المنكر المتطرف . بل لقـد حدث فى نفس اليوم ان طلبت فى قاعة المطالعـة عدّة مجلات تمدنى بقـدر كاف من الأدب الثورى ؛ وأذكر أنى استظهرت عناوين مؤلفات اسكندر هرزن المسكينة، وترجمة السـخيف باكونين ، ولبثت فى الغد وما يليه أمثل هـذه المهزلة أتقن تمثيـل . فمن ذا الذى لم يجب : « أجل »، لكل سؤال تلقيه امرأة كل ما فيه أن تكرر من جديد « أليس كذلك؟ » مقرونة بابتسامة ناعمة ؟ .

ورب أقل سذاجة منى يدهشه ما تعرضه هذه الحياة من مزيج مدهش من الاستقلال والانتظام . ذلك أن صوفيا — أكان ذلك اسمها الحقيقى؟ — كانت تسكن باريس منذ عامين . وكانت تدرس الطب ... فلماذا لم تبق لتعيش فى وطنها؟ وهل لها أهل أو لها شىء من الثروة؟ لم أعرف قط عنها إلا ما رأيته . إما مشروعها الذى باحت لى به بعد فهو أنها تعتزم العودة الى روسيا ، وان تزاول مهنتها فى قريتها ، وان تعمل على إذاعة الأفكار الغربية بين الفلاحين . وكانت أخلاقها طاهرة كأخلاق فتاة تخضع لرقابة أم تقية . فكنت أرى ، وأنا الذى أومن بتماثل الروح والفؤاد ، وأومن بنظريات الحس ، فى ذلك التناقض بين النقاء الذى يدنو من الورع ، وهذه النظريات التى يضطرم فيها ذلك الذكاء المنقول ، موضوعا لتأملات لا نهاية لها . وكانت الغرفة المفروشة التى تقيم فيها ، والتى قادتنى اليها منذ بدء تعارفنا ، تطل على فناء الطبقة الثالثة فى منزل بشارع السوربون . وكان الفتيان الذين يعمرون هذا المنزل اليسير ، يقضون أوقاتهم فى « حياة باهرة من الفتوة والكآبة » على قول رينان ، فكان سلمه يغص بمخلوقات شاحبة حول أعينها هالات ، وأذيال أثوابهنّ قد نال منها القذى ، وأرواحهنّ تجرجر فى أعماق الرذائل الباريزية . ولكن صوفيا كانت تصعد هذا السلم وتهبطه دون شائبة تلحق باحمها الذى كأن البَرَد يجرى فيه . وكانت كتبها ومراسلاتها ، ودروسها ، تستغرق كل أوقاتها . وكان الايمان المضطرم — ذلك لأن هذا التعصب الصامت الذاكى كان إيمانا — يهدئ من ثورة هذا الرأس الغريب ؛ فكانت حتى فى هذا المعترك الذى يفيض بالفساد والرذيلة ، تفرض نوعا من الاحترام ، وتحظر التجاوز والتبسط ، وهنالك تحفظ يقوم مقام العصا ، فكذلك كان تحفظها .

هل كنت أهواها؟ أكذب لو قلت بلى ؛ كذلك أكذب لو قلت انى

لبثت بعيدا عن الانشغال بها . فقد غدا الفضول الذى تثيره فى نفسى شغفا، جعلنى مدى حين شقيا، كما يحدث دائما فى العواطف الغامضة، اذا كان موضوعها امرأة . وكنت أطيل التأمل والتحليل فى بعض اللحظات، التى كنت أقضيها متحدثا معها، مهملا بذلك قصة بدئت، وأطرح عمل الليل . ثم كنت بعد ذلك أنهض فى الفجر كما كان يفعل بلزاك، لأسود الورق، ملتهب الجوانح، مؤملا أن أشتق من أساليب الأستاذ (بلزاك) قبسا من النبوغ . وكان كل سرورى، أن أحصل لصديقتى الجديدة على تذاكر المسارح، أو أصحبها الى رياضة ريفية، أو أهدى اليها كتابا جديدا . ولم تنجع قط هذه الأيادى التى كانت تقبلها بنفس نظراتها المستقيمة الواضحة، فى أن تخرق هـذا الغموض الثلجى، الذى كان يحيط بشخصها، كأنما كانت تعيش فى جو غير جونا . وتالله لقد كانت فتاة عجيبة، تحدّث عن الحب، وعن الأمومة، وعن الموت، بعبارات المادية العلمية، ولم يحظ قط انسان حتى بتقبيل يدها ! .

... وهأنا فى ذات صبح من أيام الربيع اخترق قلب الحى اللاتينى فى ذروة حركة طلبته السعداء، وفتياته الضاحكات، والكآبة تسودنى، إذ أفكر أن صاحبتى كل هذه الأمسية التى قضيناها فى البهو الصغير، قد رحلت لكى لا تعود الى الأبد . ذلك أنها غادرت منزلها ذات يوم، ولم تترك عنوانها . ولم تكتب الى قط . ولم اقرأ من ذلك الحين قصة مؤامرة أو قصة إعدام سياسى فى روسيا إلا وانقبض منى الفؤاد[1] .

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Profils perdus.

صحـــف

من

آناتول فرانس Anatole France

آناتول فرانس

آناتول فرانس ؛ من أعظم أساتذة التفكير والأدب الفرنسى فى العصر الحديث ، و يعتبره البعض أعظم كتّاب فرنسا المعاصرين وأشهر كاتب فرنسى منذ ڤولتير . ولد بباريس سنة ١٨٤٤ ، وتوفى بتور فى أكتوبر سنة ١٩٢٤ . ودرس فى كلية استانسلاس ؛ وكان أبوه تاجرا فى الكتب ، فشغف منذ صغره بالمطالعة فى مكتبة أبيه ، واشتغل بالصحافة الصغيرة ونظم الشعر ، فلفت الأنظار بجمال أسلوبه . وظهر بادئ بدء برسالة كتبها عن الفرد دى ڤني سنة ١٨٦٨ . وفى سنة ٧٣ ، أخرج مجموعة شعرية عنوانها «القصائد الذهبية» Poémes dorés . ثم عالج النثر والقصة ، فأصدر سنة ٧٩ مجموعة قصص عنوانها Jocaste et le chat maigre ؛ وبعد عامين أخرج أولى رواياته Le Crime de Sylvestre Bonard ، فلقيت نجاحا عظيما ، وتوجتها الأكاديمية الفرنسية ، وكانت فاتحة مجده الكبير . وتعرف فى ذلك الحين بمدام أرمان دى كاياڤيه ، وهى من أكابر سيدات عصرها ؛ وكان لها بهو يتردّد عليه عظماء المفكرين والفنانين والساسة ، فاتصل بهم ، ودخل المجتمع الرفيع ، وذاعت شهرته ، وتبوأ مقام الزعامة الأدبية ؛ وانتخب عضوا بالأكاديمية الفرنسية منذ سنة ٩٦ ، وأخرج طائفة متنوعة من الكتب والروايات القوية ، معظمها يعتبر نماذج باهرة للادب الرفيع ، والبيان الساحر ، والفن الأسمى ، نذكر منها : Thais ، وهى رواية فلسفية يصف فيها الاسكندرية ومجتمعها فى فاتحة النصرانية ، و L'Etui de nacre, Balthasar, Contes de Tournebroche, Le puits de St. Claire ، وهى مجموعات قصص صغيرة ؛ ثم La Révolte des anges, Les Sept femmes de la barbe-blue, Le Lys rouge, Jardin d'Epicure, Le livre de mon ami, Histoire comique, Les Dieux ont soif وغيرها . ومن

مؤلفاته التاريخية والنقدية : La Vie de Jeanne d'Arc, M. Bergeret à Paris, L'Orme du mail وغيرها .

وآناتول فرانس مفكر كبير وفيلسوف قبل كل شيء، ثم كاتب مبدع وفنان بارع . وهو أقرب كتاب فرنسا المعاصرين شبها بڤولتير، وأشدهم تأثرا بفلسفته في التشكك وفى السخرية ، والتنديد بالضعف الإنسانى . ولعل أهم ما يميز أسلوب آناتول فرانس أنه ساخر لاذع ، شديد الصرامة والخبث فى تهكمه، لا يرحم ضعفا أو فسادا إنسانيا، وخصوصا ما تعلق بالإيمان أو التقاليد . وكثيرا ما يعمد الى الفكاهة، ولكن فكاهته قارصة مؤلمة أيضا لأنه قلما يقصد بها الى غير التشهير والتحقير . وهو أستاذ بارع فى التحليل والملاحظة ، يذهب فى درس الطبائع البشرية الى أعماقها ، ويصوّر مناحى النفس وأهوائها، ومواطن انحطاطها وسموها، أقوى تصوير وأبدعه . وكان شغوفا بالعالم القديم وحكمته وفلسفته؛ ولكنه كان كأستاذه ڤولتير عدو الإيمان والدين، خصما عنيدا للكنيسة، شديد الوطأة عليها، يشهر بتعاليمها وبرجالها فى سخرية لاذعة . وأسلوبه مثال الدقة والبساطة معا؛ فهو رغم سهولته الظاهرة أحيانا ، فى منتهى الدقة والصعوبة ، وكثيرا ما تراه يعرض أعقد النظريات الفلسفية والاجتماعية بنفس الفصاحة والبساطة اللتين يعرض بهما حادثا أو يصف شخصا أو شيئا . وفى هذا وذاك تطبع أسلوبه ظاهرة ساحرة من الإناقة والظرف .

ومما يذكر أن آناتول فرانس حاول أن يخوض غمار السياسة فى فاتحة هذا القرن، حينما طغت السياسة على الأدب أيام قضية دريفوس ، وخاض غمارها أكابر الكتاب فى ذلك العصر ، ولكنه لم يظهر فيها ظهورا قويا لأنه لم يكن خطيبا ولا داعية، فاكتفى بأن يخرج بعض صور نقدية سياسية لاذعة للحياة السياسية والمجتمع الباريزى يومئذ . ولكن آراءه أخذت تتطوّر من

ذلك الحين ، حتى كانت الحرب الكبرى ، فأحدثت فى آرائه انقلابا كبيرا .

ولبث آناتول فرانس يتزعم الحركة الأدبية فى فرنسا زهاء ثلث قرن بقوة وبراعة وجلال ، حملت اليه لقب "الأستاذ الأكبر" الذى لازمه حتى وفاته . وكان لمجهوده الأدبى أعظم أثر فى تطور الأدب الفرنسى المعاصر .

طالع بونابارت

مضى أكثر من ثلاثة أشهر لم يتلق فيها بونابارت أى نبأ عن أوربا . فلما عاد من عكا أرسل رسولا الى الأميرال العثمانى بحجة مفاوضته فى تبادل الأسرى ، ولكن فى الحقيقة بأمل أن يقبض عليه السير سدنى سميث[1] فى طريقه ، و يوقفه على خبر الحوادث الأخيرة ، اذا كانت ، كما كان يتوقع ، خطوبا ومحنا للجمهورية . فأصاب الجنرال هدفه واستدعى السير سدنى الرسول الى سفينته ، وأكرم وفادته . ودار بينهما الحديث ، فأكد له أن جيش سوريا لم يقف على شىء من الأنباء ، وأشار اليه الى الصحف المفتوحة فوق مائدته ، ورجاه فى مجاملة خادعة أن يحملها .

ولكن بونابارت قضى ليلته فى خيمته دون أن يقرأها . وما لاح الصبح حتى كان قد اعتزم العود الى فرنسا ليسترد هنالك سلطانه الضائع . ولئن أتيح له فقط أن يجوز الى أرض الجمهورية فسوف يسحق حكومتها الضعيفة العنيفة ، التى تسلم الوطن الى الأوغاد والحمقى ، و يستأثر وحده بالميدان الممهد . وقد كان واجبا كى يحقق هذه الغاية ، أن يخترق البحر الأبيض فى رياح معاكسة وهو يومئذ يغص بالبوارج الانجليزية . ولكن بونابارت لم يكن يلحظ سوى غايته وطالعه . وكان شديد الغبطة اذ كان قد وصله إذن من الحكومة المؤقتة (الديركتوار) بأن يغادر جيش مصر ، وأن يعين خلفه هنالك بنفسه .

فدعا الأميرال جانتوم الذى كان منذ تحطيم أسطوله يقيم فى المركز العام ، وأمره أن يبادر سرا بتسليح نسافتين كانتا فى الاسكندرية ، وأن يقودهما الى مكان قفر من الشاطىء عينه له . ثم ألقى الى الجنرال كليبر أمرا مختوما

(١) قائد الأسطول البريطانى الذى كان يرابط يومئذ فى مياه الشأم ، والذى عاون فى انقاذ عكا من السقوط فى يد بونابارت .

بانتدابه للقيادة العامة . وسار بحجة التفتيش، فى سرية من الأدلاء الى خليج مرابو (مريوط؟) وأشرف فى مساء ٧ فركتيدور سنة ٧ (من النتيجة الجمهورية) على ملتقى طريقين يفضيان الى البحر، فألفى نفسه بفأة أمام الجنرال مينو الذى كان عائدا الى الاسكندرية مع فرقته . وهنا لم يربعد وسيلة ولا داعيا لإخفاء سره، فألقى على جنده كلمة وداع موجزة، وأوصاهم بالثبات فى مصر وقال لهم :

«لئن أسعدنى الطالع بالوصول الى فرنسا، فقد انتهى حكم الثرثارين» .

وكأنه كان يلقى هذه الكلمات فى وحى، دون ارادته . ولكنه كان يقصد الى تبرير فراره، وأن يلقى فى روع سامعيه هيبة سلطانه المستقبل .

ثم وثب الى قارب حمله تحت جنح الظلام الى النسافة «مويرون» فتلقاه الأميرال جانتوم فى روشنه بهذه الكلمات :

«انى أسير السفينة بإرشاد نجمك» .

ثم أمر بنشر القلوع فى الحال، وكان يصحب الجنرال، لافاليت أركان حربه، ومونج، و برتوليه . وأما النسافة «كارير» التى كانت تسافر الى جانب أختها احتياطا، فكانت تحمل الجنرال لان، والجنرال مورات، وكانا جريحين، ودينون، وكوستاز، وبارسفال جرانميزون .

ومذ بدأ الرحيل، ساد الصمت . واقترح الأميرال أن يلتجئوا الى الاسكندرية لكى لا يطلع الصبح عليهم فى أبى قير حيث كانت ترابط سفن العدو . وتضرع لافاليت الى الجنرال أن يستمع الى هذا الرأى، ولكن بونابارت أشار الى عرض البحر قائلا : هدئ روعك فسوف ننجو .

ولم يأت منتصف الليل حتى هبت ريح طيبة . وما جاء الصبح حتى كان الركب الصغير قد غاب عن الأنظار . وكان بونابارت يتمشى فريدا فوق سطح السفينة، فدنا منه برتوليه وقال : لقد كنت صادق الوحى أيها الجنرال

حينما قلت للاڤاليت أن يطمئن واننا سوف نجو .

فابتسم بونابارت وقال : انى اطمئن رجلا ضعيفا مخلصا . ولكنى أتكلم اليك يا برتوليه بغير ذلك لأنك خُلق من ضرب آخر . ان المستقبل جدير بالاحتقار ، ويجب أن لا يعتبر سوى الحاضر ويجب أن يستطيع المرء جرأة وتقديرا ، ثم يأتى الى الحظ ما تبقى .

وأسرع الخطى وقال مغمغما ، أن يجرؤ وأن يقدر...لا يعنى أن يبقى أسير فكرة مرسومة بل يجب أن يسير مع الحوادث ، وأن يسلم زمامه اليها ، وأن يستفيد من أقل الظروف كما يستفيد من أعظم الحوادث . وألا يفعل سوى الممكن ولكن كل الممكن .

وفى نفس اليوم ، أثناء العشاء لام الجنرال ، لاڤاليت على اضطرابه فى المساء السابق ، فأجاب لاڤاليت أن مخاوفه اليوم غيرها بالأمس ، ولكن ليست أقل منها ، وأنه يعترف بها فى غير خجل لأنها تتعلق بمصير بونابارت ، ومن ثم بمصائر فرنسا والعالم أجمع .

قال : انى أعلم من سكرتير السير سدنى أنه يعتقد أن فى الحصار الذى يوقع بعيدا عن الأنظار مزايا كثيرة . واذا كنا نعلم طرقه وأخلاقه ، فواجب أن نتوقع لقاءه فى طريقنا ، وعندئذ ...

فقاطعه بونابارت قائلا : وعندئذ ألست تعتقد أن إلهامنا وتصرفنا يسموان على الخطر؟ . انا نغدق كثيرا من الشرف على هذا الفتى الأحمق إذ نعتقد أنه يستطيع أن يتصرف بمنهج وفطنة . إن سميث يجب أن يكون قبطانا لحراقة صغيرة .

وكان بونابارت متحاملا فى الحكم على الرجل المخيف الذى أضاع طالعه فى عكا ، وذلك ، بلا ريب لأن هذا الخطب الفادح ، يغدو أخف وقعا فى نفسه اذا نسب الى ضربة من المصادفة ، لا الى عبقرية رجل .

ورفع الأميرال يده كأنما يؤكد عزمه وقال : لو التقينا بالبوارج الانجليزية ، فسوف أصعد على ظهر « كارين » وبها أستطيع أن أشغل الأعداء حتى تلوذ «مويرون» بالفرار .

وهم لاڤاليت بالكلام . وكان يتوق الى القول بأن «مويرون» بطيئة السير لا تستطيع أن تستفيد كثيرا من المهلة التى تمنح ، ولكنه أخفى جزعه خوفا من أن يسوء الجماعة كلامه . بيد أن بوناپارت قرأ فكره فى وجهه يجذبه من زر ردائه قائلا : أنت رجل نزيه يا لاڤاليت ، ولكنك لن تغدو جنديا كبيرا . فأنت لا تعتد كثيرا بمزاياك ، وتقف عند صعاب لا تقبل التذليل . فليس فى وسعنا أن نحسن أهبة هذه النسافة للسير . ولكن يجب أن تذكر ركابها الذين تحدوهم أسمى العواطف ، والذين هم اهل لأن يأتوا بالخوارق حين الحاجة . وقد نسيت أن اسمها هو «مويرون» وأنا الذى سميتها بهذا الاسم . وكنت يومئذ فى البندقية فدعيت لأسمى نسافة سلحت حديثا ، فانتهزت الفرصة لأخلد ذكرى عزيزة على ، هى ذكرى أركان حربى ، الذى سقط فوق جسر أراكولا ، وهو يقدم جسمه درعا للذود عن حياة قائده الذى كان ينهمر الرصاص عليه . وهذه هى السفينة التى تحملنا ، أفترتاب فى أن اسمها ينذر بحسن الطالع ؟

وأغرق الجنرال حينا فى أحاديث حماسية يشحذ بها القلوب ، ثم نهض لينام . وعلم الجماعة فى الغد أنه قرر ، لكى يجتنب الطرادات الانجليزية ، أن يسير الركب مدى أربعة أيام أو خمسة بحذاء الشاطئ الافريقى .

ومن ذلك الحين تعاقبت الأيام متماثلة مملة ، وظلت «مويرون» سائرة بحذاء السواحل المبسوطة المقفرة . وكان بوناپارت ينفق يومه فى أحاديث وفى أحلام . وكان أحيانا يذكر اسمى «أوسيان» و«فنجال» . وأحيانا يطلب الى أركان حربه أن يقرأ له بصوت عال كتاب « الثورات » للاب ڤرتو ،

أو تراجم بلوتارخوس . ولم يكن يبدو عليه شيء من أمارات الجزع ولا فروغ الصبر، بل كان يحتفظ بكل صفاء ذهنه، مما يرجع الى ميل طبيعي عنده لأن يعيش بكليته للحاضر أكثر مما يرجع الى قوة روحه . وكان أحيانا يأنس لذة تشوبها الكآبة فى تأمل البحر الباسم أو المظلم، الذى يهدد جده ويحول دون غايته . وكان بعد الطعام ، اذا ما صفا الجو، يصعد الى سطح السفينة، ويضطجع فوق مؤخرة مدفع، فى هيئة استسلام ووحشة اعتادها منذ طفولته أيام كان يجلس فوق صخور جزيرته . ويجلس العالمان مونج و برتوليه ، وقبطان النسافة ، ولافاليت حوله[1] . وكان يؤثر الحديث غالبا عن ابتكار علمى محدث . وكان مونج يعبر عن آرائه فى بطء وغموض، ولكن حديثه كان يشف عن ذهن منير منتظم ، وكان يميل الى تحرى الفائدة فيبدو حتى فى الطبيعة وطنيا صادقا . أما برتوليه فكان أعمق فلسفة، وكان يعرض نظرياته العامة فى اختيار وفيض .

وكان يقول : يجب ألا نجعل من الكيمياء علما خفيا لتغيير الأشياء . فان هذه المناظر تملأ الأذهان المضطرمة، ولكنها لاتقنع الأذهان المفكرة التى تريد أن تخضع تغييرات الأجسام الى قوانين الطبيعة العامة .

وكان بونابارت يرغب عن الجدل المجرد، فقاطع برتوليه ذات مساء بقوله : تبا لنظرياتك فانها ليست إلا كالفقاقيع تولدها نسمة ، وتبددها أخرى . ان الكمياء يابرتوليه تغدو لهوا فقط اذا لم تخدم حاجات الحرب والصناعة . فيجب أن يتحرى العالم فى مباحثه غاية معينة عظيمة مثمرة، وهذا ما فعله مونج اذ بحث عن النترات فى الكهوف لكى يصنع البارود .

وهنا قال مونج نفسه و برتوليه للجنرال فى ثبات : انه يجب أن يسود

---

(١) مونج و برتوليه من العلماء الذين رافقوا الحملة الفرنسية الى مصر . ولافاليت أحد قواد الحملة .

الانسان الظواهر ، وأن يخضعها للقوانين العامة قبل أن يستخرج منها تطبيقات مفيدة ، فاذا فعل غير ذلك انحدر الى ظلمات المضاربة الخطرة .

فوافق بونابارت على ذلك ، ولكنه كان يخشى المثل أكثر مما يخشى المضاربة . وسأل برتوليه فجأة : هل تؤمل بشروحك أن تعرض لخفاء الطبيعة الخالد ، وأن تنفذ الى المجهول ؟

فأجاب برتوليه ، أنه لا يزعم القدرة على شرح الكون ، ولكن العالم يؤدى الى الانسانية أجل الخدمات بتبديد روعات الجهل والتخريف ، وذلك ببحث الظواهر الطبيعية بحثا معقولا ثم قال : ألا يحسن الانسان للناس بأن ينقذهم من الأشباح التى يخلقها فى روعهم الخوف من جهنم «خيالية» ، وأن ينتزعهم من براثن الأولياء والقساوسة ، وأن يفر عليهم روعة النبوءة والأحلام .

وكان الليل يبسط حلكه على البحر الشاسع . وكان بريق النجوم الساطع فى سماء لا قمر فيه ولا سحب ، كأنه مشاك معلقة مرتجفة . فاستغرق الجنرال برهة فى لجة الفكر ، ثم رفع رأسه وصدره ، وأشار بيده الى حنية السماء ، وارتفع صوته الخشن خلال الصمت كأنه صوت راع فتى ، وبطل قديم ، وأنشأ يقـول :

« ان لى روحا ثلجية لا يعكرها شىء ، وقلبا لا تعتوره ضروب الضعف العامة . ولكن أتعرف أنت يا برتوليه ما هى الحياة وما هو الموت ؟ وهل استطعت أن تلم بمداهما فتؤكد أنه لاخفاء فيهما ؟ وهل تثق أن كل الخيالات انما هى أبخرة أذهان مريضة ؟ وهل تظن أنك تستطيع أن تفسر كل ماتجيش به من ضروب النذير ؟ لقد كان للجنرال لاهارب قوام جندى جرىء وقلبه ، وكان ذهنه يظفر أثناء المعارك بالغذاء المحمود ، بل كانت تشحذه المعارك . ولكن حدث لأول مرة فى فومبيو ، فى الليلة التى سبقت وفاته ، أن لبث

جامدا ذاهلا، لا يعى ما يعمل، مصعوقا لرعب خفى مفاجئ . إنك تتنكر الأشباح . ألم تعرف ياموبج، الكبتين أوبليه فى ايطاليا ؟

فتدبر موبج ذاكرته برهة، وخفض رأسه ولم يذكر هذا الاسم !

فاستمر بونابارت قائلا : لقد رقيته فى طولون حيث نال رتبته . وكان ينعم بالشباب والجمال وخلال الجندى الفاضل، بل كانت له خلال القدماء . وقد راقنى هيأته الخطيرة، وملامحه النقية، والفطنة التى تتجلى فى محياه الفتى، حتى لقد سماه رؤساؤه «مينرفا» ، وكان الضباط ينادونه بذلك الاسم الذى لا يدركون معناه .

فصاح موبج : الكبتين منيرفا ! لم لم تسمه كذلك منذ البداية؟ لقد قتل الكبتين منيرفا تحت أسوار مانتوا قبل أن أصل الى هذه المدينة ببضعة أسابيع . وكان لموته وقع عميق فى الأذهان إذ كان يقرن بظروف خارقة رويت لى . ولكنى لا أذكرها جيدا . وكل ما أذكره هو أن الجنرال ميوليس أمر بأن يحمل سيف الكبتين منيرفا وطوق عنقه مجللين بالغار أمام سرية سارت أمام كهف فيرجيل ليلة عيد لتكريم ذكرى البطولة .

واستأنف بونابارت، لقد كان الكبتين أوبليه يتحلى بهذه الشجاعة الهادئة التى لم أشهدها إلا فى بسيير، وكان يضطرم بأسمى العواطف، وكان له زميل فى الجيش أكبر منه ببضعة أعوام يحبه من صميم قلبه وكان جسورا، مضطرم الجوانح، تدفعه الحمية الى المسرات والمخاطر معا . فكان فى المعسكرات مثال المرح . وكان أوبليه عبد الواجب الأسمى ، وكان ديمارتو عاشقا طروبا للمجد، وكان يغدق على زميله من أسباب الوفاق قدر مايغدق عليه . وقد هلك كلاهما فى ظروف غريبة . وقد نبئت بها مثلك يا موبج ، ولكنى عنيت بها أكثر منك رغم أن ذهنى يومئذ كان يشغل بغايات كبرى ، إذ كنت أريد أن أعجل الاستيلاء على مانتوا قبل أن يستطيع جيش نمسوى

جديد أن يصل الى إيطاليا . ومع ذلك فقد قرأت تقريرا كتب عن الوقائع التي تقدمت وعقبت موت الكبتين أوبليه فاذا منها ما يسمو الى الخوارق . ويجب أن نرجع السبب إما الى قوات خفية يحصل الانسان عليها فى دقائق فريدة، وإما الى تدخل فهم أسمى من أفهامنا .

فقال برتوليـه : يجب أن تطرح الفرض الثانى جانبا أيها الجنرال، فان الباحث فى خواص الطبيعة لا يلاحظ فيها قط تدخل فهم أسمى .

قال بونابارت : انى أعلم أنك تنكر العناية . وهى حرية يسمح بها لعالم سجين فى مكتبه، ولكن لا الى قائد شعب لا يبسط سلطانه على الكافة إلا بالاشتراك معهم فى الفكر . اذ يجب لكى تحكم الناس أن تفكر مثل ما يفكرون فى كبرى المسائل، وأن تنزل على رأيهم .

ثم رفع بونابارت عينيه فى الظلمات، نحو الضوء الذى يرتجف فى رأس القلع الكبير وقال : ان الريح تهب نحو الشمال .

فقال الأميرال جانتوم انه يجب ألا ينتظر أن تتغير الريح قبـل أيام الخريف الأولى .

ثم اتجهت ذروة الضـوء نحو مصر، فسرح بونابارت بصره الى تلك الناحيـة، وكانت نظراته تنفـذ الى الأفق الشاسع، وتخرج كلمـاته من فمه متقطعة وهو يقول :

فليحسنوا تدبيرهم هنالك، ان الجلاء عن مصر يغـدو نكبة حربية وتجارية، فالاسكندرية عاصمـة سادة أوربا، وفيهـا سوف أحطم التجارة البريطانية، وأسبغ منها على الهند مصائر جديدة . ان الاسكندرية بالنسبة لى كما كانت للاسكندر قاعدة للتسليح، والثغر والمكمن الذى أثب منه لأغزو العالم، وإليه أدفع ثروات إفريقية وآسيا . ان انجلترا لن تهزم إلا فى مصر، فاذا هى استولت على مصر، فسوف تحل مكاننا فى سيادة الكون . ان

الشعب التركى يحتضر، ومصر تؤكد لى ملك اليونان، وسوف يخلد اسمى الى جانب اسم إبيامينونداس . إن مصير العالم يتوقف على ذكائى وعلى ثبات كليبر .

ولزم الجنرال الصمت فى الأيام التالية . وأمر أن يقرأ له كتاب « ثورات الجمهورية الرومانية » فبدا له ذا إسهاب ممل، فأمر لاڤاليت أن يسرع فى قراءته . ولكن سرعان ما عيل صبره ، فانتزع الكتاب من يد لاڤاليت ، وطلب « تراجم بلوتارخوس » وكان لا يسأمها قط، ويرى انها وان تك خالية من المنطق العميق الواضح، تعرب عن عاطفة قدرقوية .

ففى ذات يوم ، نادى قارئه عقب الراحة وأمره أن يستأنف قراءة « حياة بروتوس » حيثما وقف بالأمس، ففتح لاڤاليت الكتاب عند المكان المعين وقرأ ما يأتى :

« ففى الوقت الذى كان فيه يعتزم وكاسيوس أن يغادر آسيا مع جميع الجيش (وكان ذلك ذات ليلة شديدة الحلك، ولم يكن مضربه مضاء إلا بنور ضئيل، وكان السكون العميق يسود كل المعسكر، وكان هو غارقا فى تأملاته) اذ خيل له أنه يرى انسانا يدخل مضربه ، فحول بصره نحو الباب، فرأى شبحا هائلا، ذا وجه غريب مرعب يدنو منه ثم يقف صامتا . فتشجع وخاطبه قائلا : «من أنت؟ أبشر أم إله؟ ولم أتيت، وماذا تريد منى؟ » فأجاب الشبح : « إنى روحك الخبيث يا بروتوس، وسوف ترانى فى فيليب» فعندئذ قال بروتوس دون اضطراب «إذن سوف أراك هنالك» فاختفى الشبح فى الحال . وقال الحشم الذين دعاهم بروتوس أنهم لم يروا ولم يسمعوا شيئا ، فاستمر فى تأملاته» .

فصاح بونابارت خلال وحشة الموج : هنا يحدث مثل هذا المنظر شعور روعة حق . ان بلوتارخوس راوية قدير ، فهو يعرف كيف يذكى

القصة، ثم هو يصوّر الأخلاق، ولكن تفوته رابطة الحوادث . وليس في وسع الانسان أن يتجنب مصيره . ولكن بروتوس، وهو روح ضعيف، كان يعتقد في قوّة الارادة . ولكن رجلا رفيعا لا يساوره هذا الوهم، فهو يرى الضرورة التي تحدّ من إرادته . والعظمة تتوقف على كل شيء، وإني لأتوقف على حوادث يوجهها لا شيء ، فما أتعسنا نحن البشر إذ لانستطيع شيئا لمغالبة طبيعة الأمور . ان الأطفال ذوو إرادة، ولكن رجلا عظيما لا إرادة له . فما هي الحياة البشرية؟ لعمرى أنها ثنية مقذوف .

وهنا جاء الأميرال ينبئ بونابارت بأن الريح قد تغيرت أخيرا ، ووجبت محاولة المرور . وكان الخطر داهما ، إذ كان البحر الذى سيقدمون على اجتيازه ، وهو الواقع بين تونس وصقلية ، تحرسه البوارج الانجليزية التي بثها الأسطول الانجليزى المرابط في سرقوسة بقيادة نلسون . فاذا عثرت بارجة بالركب الصغير، فانه لا تمضى ساعات حتى يفاجئهم الأميرال الهائل بطلعته .

فوجه جانتوم السفينة الى حذاء رأس بون ، وأطفأ الأنوار ليلا . وكان الليل صافيا ، فرأى الدليل في الشمال الشرقى أضواء سفينة ، فتسرب الجزع الذى كان ينهش لافاليت الى مونج ذاته .

وكان بونابارت يجلس على مؤخرة المدفع المعتاد في سكينة تبدو حقيقية متى ذكرنا استسلامه الغاص بالآمال والأوهام ، أو مفتعلة متى ذكرنا قدرته الهائلة على الاخفاء . فتحدّث مع مونج ، و برتوليه في مسائل شتى في الطبيعة والرياضة والفن والحرب ، ثم عطف على التحدّث عن بعض أوهام لعل ذهنه لم يكن يتحرر منها تماما .

فقال لمونج : إنك تنكر الخوارق . ولكنا نعيش ونموت بين الخوارق . لقد ذكرت لى يوما أنك استبعدت من ذهنك باحتقار كل الحوادث الغريبة

التى اقترنت بموت الكبتين أو بليـه ، وقد يكون ذلك لأن الايمان الايطالى قدّمها اليك فى ثوب مزخرف . ولكن استمع لى ، فاليك الحقيقة مجرّدة : فى منتصف ليلة ٩ سبتمبر ، كان الكبتين أو بليه يعسكر أمام مانتوا . وكان حر اليوم المرهق قد أعقبه ليل صبوح ينعشه الضباب الذى تكدس فى أفق السهل الموحش . فلمس أو بليه معطفه فألفاه مبتلا ، فشعر برجفة خفيفة ، واقترب من نار كان الجند قد طبخوا عليها الحساء ، فأدنى منها قدميه وهو يجلس فوق سرج جواد ، وضيق الليل والضباب نطاقهما من حوله . وكان يسمع عن بعد صهيل الخيل ، وصيحات الحرس المنتظمة . ومرت عليه كذلك بضع دقائق ، وهو جزع ، كئيب ، يسرح بصره فى حطام النار ، فاذا به يرى شبحا كبيرا يدنو نحوه فى سكون حتى شعر به الى جانبه ، فلم يجرؤ أن يحوّل رأسه نحوه بادئ بدء ، ولكنه حوّلها مع ذلك فرأى أمامه الكبتين ديمارتو صديقه ، وهو كعادته يضع ظهر يده اليمنى فوق عجزه ويمشى فى بطء . فشعر الكبتين أو بليه بشعر رأسه يقف ، ولم يك ثمة ريب فى أن صديقه يقف الى جانبه ، وهذا ما كان مستحيلا أن يؤمن به مع ذلك ، لأن الكبتين ديمارتو كان يومئذ مع الجنرال چوردان على ضفاف نهر « المـاين » حيث كان يلقى جيش الأرشـيدوق شارل . وكان منظر صديقه يذكى رعبه بمسحة غريبة ترتسم على محياه . كان هذا ديمارتو صديقه ، ومع ذلك فكان يسـتحيل على إنسان أن يراه دون أن يهلع . ففتح أو بليه فمه ، ولكن لسانه المشلول لم يستطع نطقا . فتكلم الآخر قائلا :

« وداعا ، فسـوف أذهب الى حيث يجب أن أذهب ، وسوف نلتقى غدا » .

ثم ابتعد بخطى لا صوت لها .

« وفى الغد أرسـل أو بليه للاسـتطلاع فى سان چورچو ، فدعا قبل

رحيله أقدم ضابط ، وألقى اليه التعليمات الضرورية ثم قال : سوف أقتل اليوم، كما قتل ديمارتو ليلة أمس بلا ريب .

« وقص على بعض الضباط ماشهد بالأمس، فاعتقدوا أنه كان فى ذروة من الحمى التى بثتها فى الجيش مستنقعات مانتوا .

« ووصلت جماعة أوبليه دون حادث الى قلعة سان چورچو فأدّت بذلك مهمتها . ثم عادت أدراجها الى مركزنا . وكانت تسير فى ظل غابات الزيتون، فاقترب أقدم الضباط من الكبتين وقال له :

« لم يبق ريب بعد، يا كبتين مينرفا، أنا سنعود بك حيا .

« فهم أوبليه بالجواب ، واذا برصاصة تدوى خلال الأغصان وتخترق جبينــــه .

« وبعدئذ بخمسة عشر يوما ورد خطاب من الجنرال چوردان، وأذاعته الحكومة المؤقتة فى جيش ايطاليا ، وفيه نبأ بأن الكبتين ديمارتو قد سقط قتيلا فى ميدان الوغى فى يوم ٩ سبتمبر» .

* * *

ولمـا انتهى الجنرال من قصـته ، نهض فاخترق دائرة مسـتمعيه وهم سكوت، وأخذ يجوب سطح السفينة صامتا بخطوات واسعة .

فقال الأميرال جانتوم : لقد جزنا مرحلة الخطر أيها الجنرال .

وفى الغد حول سـير السفينة نحو الشمال ، مقترحا أن يحاذى شـواطئ سردانيه حتى كورسيكا، ثم يتجـه بعد ذلك الى شاطئ بروڤانس ، ولكن بونابارت أراد أن يرسو على شاطئ لانجدوك خوفا من أن يكون العدو جاثما فى ثغر طولون .

فاتجهت « مويرون » نحـو بورفاندر، ولكن ضربة من الريح ردّتهـا نحو كورسيكا واضطرتها أن ترسو عند أچاكيو (مسقط رأس نابليون) فهرع

كل الناس لتحية مواطنهم، وماجت بهم ربى الخليج . وبعد بضع ساعات من الراحة ورد فى أثنائها نبأ بأن كل الشاطئ الفرنسى أمين، سارت «مو يرون» فى اتجاه طولون، وكانت الريح طيبة ولكن ضعيفة .

ففى هذه الآونة التى سادت فيها السكينة على الجميع ، بدأ الجزع يساور بونابارت وحده، وغلب عليه التلهف لرؤية الشاطئ حتى كان يقبض أحيانا بيده على سيفه بحركات سريعة . وكان شغف الحكم الذى كان يضطرم بين جوانحه منذ ثلاثة أعوام يتقد ضراما . ففى ذات مساء أخذ يحدّث الجماعة بسرعة تضطرب لها العبارات فى فمه، ويقول :

«أن الثرثارين والعجزة، سيجهزون على فرنسا . لقد ضاعت ألمانيا فى شتوكاخ، وضاعت ايطاليا فى تربيا ، وهزمت جيوشنا، وقتل وزراؤنا ، وغص الموردون بالذهب ، وخلت المخازن من المؤن والعدد ، وغدا يهددنا الفتح : هذا ما تحمله الينا حكومة لا قوة لها ولا شرف .

ثم قال : إن الرجال ذوى النزاهة هم وحدهم الذين يمدّون السلطة بالمؤازرة المكينة . أما ذوو الضمائر الفاسدة فلا يبثون إلا اشمئزازا عميقا، ولا نستطيع أن نحكم معهم .

فقال مونج، وكان وطنيا صادقا : إن الاستقامة ضرورية للحرية، ضرورة الفساد للاستبداد .

فقال نابليون : ان الاستقامة خلة طبيعية فى نفس الرجال الذين يولدون للحكم .

وكانت الشمس قد أخذت تشق الغمام والحلك ، بقرصها الأحمر . وكانت السماء تغص من جهة المشرق بقطع خفيفة من الضباب كأنها أوراق وردة نائمة . فظهر فى الأفق بغتة قلع سفينة تبين الضابط المراقب فيه فى الحال العلم البريطانى .

فصاح : لاڤاليت ، أنجو من أخطار لا نهاية لهـا لنهلك على مقربة من الشـاطئ ؟ .

فهز بونابارت كتفيه وقال : هل يشك أحد بعد فى سعدى وفى قدَرى ؟

ثم أطلق العنـان لأفكاره وأخذ يقول : يجب سحـق أولئك الأوغاد والعجزة ، واستبدالهم بحكومة حازمة ، حركاتها سريعة وثيقة كالأسد . ويجب أن يسود النظام ، فلا ادارة بلا نظام ، ولا ثقة ولا مال بلا ادارة ، ولا تسفر الفوضى إلا عن خراب الدولة وخراب الأفراد . ويجب القضاء على الجريمة والانحلال الاجتماعى . فمـا هى فرنسا دون حكومة ؟ ثلاثون مليون حصاة . إن القوّة كل شىء ، وغيرها لاشىء . لقد حدث فى وقائع ڤنديه أن حكم أربعون رجلا مقاطعة بأسرها . والشعب كله يريد قبـل كل شىء أن ينعم بالراحة والنظام والوئام ، وهو على أهبة ، لكى يتخلص من اليعاقبة والمهاجرين ، أن يلقى بنفسه فى أحضان سيد .

قال برتوليه : وهذا السيد ، أيجب أن يكون زعيما جنديا ؟

أجاب بونابارت بعزم : كلا ، كلا ، لن يكون جندى أبدا سـيدا لهذه الأمة التى استنارت بالفلسفة والعلم . ولو أنـ قائدا حاول انتزاع السلطة ، لعوقب على جرأته عاجلا . لقد فكر هوش فى هـذا ، ولست أدرى ان كان قـد وقفه لهوه أو تقدير حق للامور ، ولكن المشروع ينهار فوق رأس كل جندى يحاوله . أما أنا فأقر هـذا التحرّك من جانب الشعب الفرنسى الذى لا يريد أن يخضع لنير عسكرى ، ولا أتردّد فى القول بأن الغلبة فى الدولة يجب أن تكون للعنصر المدنى .

فأخذ مونج و برتوليه كل منهما يحدج صاحبه دهشا لهذه التصريحات . فهما يعرفان أن بونابارت سيجوز المخاطر والمجاهل ، ليقبض على السلطان ، ولم يدركا شيئا من حديث يلوح منه أنه يزهد فى ذلك السلطان الذى يضطرم

شغفا لنيله . واغتبط مونج فى سريرة نفسه لأنه من عشاق الحرية ، ولكن الجنرال أدرك ما يجول فى خاطرهما فقال فى الحال :

من المحقق أنه اذا كانت الأمة تتبين فى جندى ، تلك الخلال المدنية التى لا بد منها لإدارة البلاد وحكمها ، فإنها توليه زمامها ، على أنه يكون عندئذ رئيسا مدنيا لاعسكريا . وهذا ما تتطلبه الأذهان فى بلد متمدين ، عاقل ، عالم .

ثم صمت بوناپارت برهة وقال : إنى عضو فى المجمع العلمى .

وكانت السفينة الانجليزية قد سارت بضع دقائق عند خط الأفق الأحمر ، ثم اختفت .

وفى صباح اليوم التالى أعلن المراقب ظهور الشاطئ الفرنسى ، واقتراب «مويرون» من بور فاندر ، فصوّب بوناپارت نظره نحو تلك النقطة الشاحبة ، واضطرمت روحه بمعترك من الفكر ، وساوره حلم باهر غامض من الأسلحة والعدد ، وطنت أذناه فى صمت البحر بدوى هائل ، فرأى خلال أشباح الجند والقضاة والنوّاب وجماهير البشر التى تنحدر أمام عينيه ، جوزفين باسمة فاترة ، منديلها على شفتيها ، ونحرها نصف عار — وكانت ذكراها تلهب دمه .

وهنا قال جانتوم مشيرا الى الشاطئ الذى أخذت تنيره أشعة الشمس : أيها الجنرال لقد قدتك الى قدَرك الذى ينتظرك ، وإنك لترسو كما رست «اينيه» على الشواطئ التى وعدت بها الآلهة .

ونزل بوناپارت فى فريجوس فى ١٧ فنديمير للسنة الثامنة [(١)] .

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Contes de Tournebroche

درس عميــق الأثر

كان فى باريس فى عصر الملك لويس الحادى عشر، سيدة رفيعة تدعى «ڤيولانت» . وكانت حسناء بديعة القدّ، ناصعة المحيا حتى أن الأستاذ چاك تريبويار — وهو دكتور فى الحقوق وفلكى بارع ، كان يكثر من زيارتها — اعتاد أن يقول لها :

« كلما رأيتك يا سيدتى اعتقدت حقيقة ما يرويه «بيجر» فى حاشية له على «استرابون» أعنى أن مدينة باريس الموقرة كانت فى غابر العصور تسمى «لوتيس» أو «لوسيس» أو ما يشبههما مما هو مشتق من كلمة « لوكيه » أعنى بيضاء، ذلك لأن نساءها ناصعات النحور كالبرد ؛ ولكن لا كنصوع نحرك وبهائه يا سيدتى .

وكانت ڤيولانت تجيبه قائلة : يكفينى ألا يكون نحرى مبعث الرعب كنحور كثيرة أعرفها ، واذا كنت أبدى نحرى فذلك اتباعا للزى ، إذ من عظيم القحة أن يشذ المرء عن عرف متبع .

وكانت السيدة ڤيولانت قد تزوجت فى شرخ شبابها من محام فى البرلمان . وكان فظا سيئ الطباع يميل على الفقراء ويثقل كاهلهم ، ثم كان سقيما شاحبا ، حتى لقد تعتقد أنه أصلح للأذى خارج منزله منه لإحداث السرور داخله . وكان هذا الرجل الساذج يؤثر الانكباب على ملفات قضاياه الضخمة المختلة ، ويقضى لياليه فى مراجعتها . وكانت السيدة ڤيولانت أعقل من أن تحب زوجا مثله قليل الألفة . وكان الأستاذ چاك تريبويار يقرر أنها فى ذلك وافرة الحكمة راسخة فى فهم الايمان الزوجى رسوخ لوكريس الرومانية ، ويدلل على ذلك بأنه لم يفلح فى أن يحوّلها عن واجباتها .

وكان أهل الخير يقفون إزاء ذلك موقف ريب حذر، بفكرة أن ما هو

خفى، لا يظهر إلا يوم الحساب فى الآخرة؛ ويرون أن هذه السيدة تشغف بالحلى والديباج، وتبدو فى المجتمعات والكنائس فى أثواب من الدمقس والحرير والذهب؛ غير أنهم كانوا أعفاء يأبون القول بأنها تأثم مع أحد من الناس، وان قالوا بلعنة النصارى الذين يرونها وافرة الحسن . والواقع أن معترفها الأب چان تيرليركان يؤنبها بلا انقطاع ويقول لها :

«هل تعتقدين يا سيدتى أن السعيدة كاترين قد رفعت الى السماء باتباع ما تتبعين من أساليب الحياة وإبداء نحرها وجلب الحرائر من مدينة چنوه» .

وكان الأب واعظا كبيرا، شديد الحكم على الزلات البشرية، لا يغفر خطيئة، ويعتقد أنه فعل كل شىء اذا أخاف محدّثه؛ فكان يهدّدها بالجحيم لأنها غسلت وجهها ذات مرة بلبن حمارة؛ ولم يكن يعرف إنسان هل تحسن إلباس زوجها الشيخ قانسوته، فكان السيد فيليپ دى كوكتيس يقول مداعبا لهذه السيدة المصونة :

«حذار، فانه أصلع . وسوف يصيبه البرد» .

وكان السيد فيليپ دى كوكتيس، شريفا جميلا، حسن الطلعة . وكان قد لقى السيدة ڤيولانت ذات مساء فى مرقص، فأكثر من الرقص معها، ثم أردفها وراءه فوق جواده، وحملها الى منزلها، بينما كان المحامى يلعب بماء القنوات وطينها، تحت الأضواء المرتعدة لمشاعل غلمان سكارى . ففى خلال هذا المرقص وهذه الرجعة، آنس السيد فيليپ أن السيدة ڤيولانت، ذات قوام ملىء ولحم خصب ثابت، وأحبها من وقته وساعته . ولما كان السيد لا يعرف المواربة فقد أفضى اليها بما يبتغيه منها وهو أن يضمها عارية؛ فكانت تجيبه :

أيها السيد فيليپ، لست تعرف من تخاطب فأنا سيدة عفيفة .

أو، تعال غدا أيها السيد .

فاذا عاد فى الغد قالت له : علام تتعجل ؟

وكان يساور السيد من هذا المطل كثير من ضروب الجزع والاسى، حتى لقد أوشك أن يعتقد كما يعتقد الأستاذ تريبو يار أن السيدة ڤيولانت إنما هي قرينة « لوكريس » كما أنه من الحق أن كل الرجال يتشابهون في الغرور ! كذلك يجب أن نقول أنها لم تسمح قط له حتى بأن يقبل ثغرها ؛ وهي مسرة تافهة ونزول ضئيل .

وكانت الأمور كذلك حينما دعى چان تيرلير الى البندقية من رئيس طائفته، ليعظ هنالك أتراكا نصروا حديثا . فذهب الأخ ليودع السيدة ويؤنبها بأشد مما اعتاد على كونها تحيا حياة خليعة، ويعظها بحرارة أن تتوب، ويشدد عليها أن تضع فوق الجلد « بلسما » معينا، هو علاج لا نظير له في إخماد الشهوات السيئة، ودواء فذ للأولى تغلبهم شهوات اللحم .

فقالت له : أيها الأخ الفاضل، لا تبالغ في طلباتك .

غير أنه لم يصغ اليها ، بل هددها بالجحيم اذا لم ترعو . ثم قال إنه على أهبة لأن يقوم بما تكلفه به من المهام؛ وكان يؤمل ان ترجوه أن يحضر لها « أيقونة » مباركة، أو شيئا من تراب القبر المقدس الممزوج بالورود الناشفة، وقد كان يحمله الأتراك يومئذ ويبيعه القسس الايطاليون . ولكن السيدة ڤيولانت طلبت اليه ما يأتي :

قالت : أيها الأخ الجميل الصغير ، ما دمت ذاهبا الى البندقية حيث يوجد مهرة صناع المرايا؛ فاني أكون شديدة الشكر لك اذا حملت الى مرآة تكون أسطع ما يوجد من المرايا .

فوعدها الأخ چان تيرلير أن يحقق أمنيتها . واستمرت السيدة ڤيولانت أثناء غيبة معترفها على نفس أساليب حياتها الماضية، فلما قال لها السيد فيليب «ألا يحسن أن تحتاب؟» أجابته « إن الحر شديد جدا، فانظر الى السارية لتعرف ما اذا كانت الريح لم تتغير» . وبذا يئس أهل الخير الذين يرقبون سيرها

من انها لن تحمل زوجها الخبيث قرونا قط، وقالوا «ان هذه لخطيئة» .

فلما عاد الأخ چان تيرلير من ايطاليا، ذهب الى السيدة ڤيولانت ونبأها أنه حمل اليها ما تبغى قائلا : انظرى ياسيدتى .

ثم استخرج من تحت ردائه جمجمة ميت وقال : هـذه هى مرآتك ياسيدتى؛ وقد قدمت الى باعتبارها جمجمة أجمل امرأة فى البندقية . وقد كان شأنها شأنك الآن، ولشد ما تشبهينها .

فتغلبت السيدة ڤيولانت على دهشتها واشمئزازها؛ واجابت الأخ الفاضل بثبات، أنها قد فهمت درسه وانها لا بد مستفيدة منه .

قالت : سـوف تكون مرآتك التى حملتها من البندقية، ماثلة فى ذهنى حيث أرى نفسى ليس كما انا الآن بلا ريب، بل كما سـوف أكون عاجلا؛ وأعدك انى سأضع منهج سيرى طبقا لتلك الفكرة .

ولم يكن الأب ينتظر هـذه النتيجة الحسنة فأعرب عن رضاه وقال أنت ترين اذن يا سيدتى أنه لا بدّ من تغيير العواطف؛ وأنت تعدينى أنك ستنظمين منذ الآن فصاعدا سيرك، طبقا للفكرة التى حملها اليك ذلك الرأس البالى، فهلا تقدّمت بهذا الوعد الى الله كما تقدّمت به الى ؟

فسألته : أفلا مناص من ذلك ؟

فأجابها : لامناص .

فقالت : سوف افعل اذن .

قال : انك تحسنين صنعا ياسيدتى؛ وليس ثمة من سبيل للنكث بعد .

قالت : لن أنكث .

سمع الأخ چان تيرلير ذلك العهد فانصرف فرحا، وهو يصيح فى الطريق : أنعم بهذا، لقد دفعت بعون الله مولانا الى باب الجنة سيدة كانت تسعى الى فتنة الرجال، وسوف تعدل عن سيرها الى أفضل منه . لقد غيرتها تماما .

فحمدا لله !

وما كاد الأخ الفاضل ينزل السلم، حتى صعده السيد فيليب دى كوكتيس، وطرق باب السيدة ڤيولانت فاستقبلته باسمة، وقادته الى مخدع صغير مزين بالبسط والوسائد، لم يدخله من قبل؛ فاستبشر خيرا، وقدم اليها قطعا من الحلوى كان يحملها فى علبة قائلا : إنها لذيذة سائغة، ولكنها ليست حلوة كشفتيك .

فأجابته السيدة، أنه من الحمق والعبث أن يطرى فاكهة لم يذقها بعد .

فأجابها عندئذ بتقبيل ثغرها .

فلم تغضب . بل قالت فقط انها امرأة شريفة؛ فنصحها بألا تحبس هذا الشرف فى مخدع خاص كهذا يمكن أن ينتهك فيه؛ بل أنه سوف ينتهك بلا ريب، وفى هذه اللحظة .

فأخذت تلطمه براحتها الوردية قائلة : حاول .

غير أنه كان قد غدا سيد الموقف يسيره طبقا لأهوائه فصاحت : كلا لست أريد . ! لا تفعل أيها السيد . يا صديقى ... يا حبيبى ! انى أموت .

... ... ثم قالت بظرف :

أيها السيد فيليب : إياك أن تملق نفسك بأخذك إياى قسرا أو مفاجأة فلئن كنت قد حصلت منى على ما كنت تبغى فذلك طوعا منى؛ ولأنى لم أقاوم إلا بقدر ما اقتضته هزيمتى المختارة . حبيبى اللطيف : انى ملك لك؛ واذا كنت برغم جمالك الذى أسرنى بادئ بدء قبل أن تأسرنى رقة حبك، لم أهبك ما حصلت عليه الآن برضاى فذلك لأنى لم أفكر فى الأمر، ولم أك أشعر أن الزمن يرهقنى، ولأنى كنت غارقة فى دعة وفتور، فلم أستمتع ذرة بشبابى و جمالى . ولكن الأخ الفاضل جان تيرلير ألقى علىّ درسا نافعا، إذ علمنى قيمة الزمن، وقال لى وهو يرينى رأس ميت « هكذا تصبحين فى القريب

العاجل » فرأيت وجوب التعجيل باغتنـام اللذات ، وان أحسن استخدام الزمن القليل الذى منح لنا من أجل هذا .

هذه الكلمات وما اقترن بها من مداعبات السيدة ڤيولانت ، حملت السيد فيليب على أن يحسن استخدام الزمن ، حفظا لشرفه ، واغتناما لفائدته ، وتحقيقا لمسرات صاحبته ومجدها ، وأن يضاعف الأدلة الوثيقة التى يجب أن يبديها فى مثل هذا الظرف خادم مخلص أمين .

بعدئذ أبرأته السيدة ، وقادته حتى الباب وقبلته فى عينه بظرف وقالت : أليس خيرا أن نعمل بنصائح الأخ الفاضل چان تيرلير يا صديقى[1] ؟

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Contes de Tournebroche .

شبح المكارى

[هذه القطعة ليست قصة مستقلة ، ولكنها صفحة اخترناها من رواية التاريخ الهزلى Histoire Comique لأنها تصف مناظر مصرية . «والتاريخ الهزلى» قصة باريزية تدور حول المسرح الهزلى وأحواله وأحوال ممثليه ، وبطلتها فتاة حسناء فتية من عامة الشعب تدعى « فيليشى » . ومن شخصياتها البارزة الظريفة طبيب هو الدكتور تروبليه ، وهو طبيب مسرح (الأوديون) الذى تعمل فيه فيليشى ؛ ويصوره الكاتب شخصا بادنا ، فكها ذلقا ، يطرب الممثلات بنكاته وأحاديثه . ومن شخصياتها أيضا ممثل هزلى مرح يدعى (شفالييه) يعمل مع فيليشى فى (الأوديون) . وكانت فيليشى قد مالت ذات يوم الى (شفالييه) فهام بها ونعم بصحبتها ردحا من الزمن . ولكنها عادت فنبذته لتحب سيدا فتى من ذوى المكانة والمناصب . فلبث الحبيب الأول يطاردها ويتوعدها وهى تزداد قسوة عليه وإصرارا على نبذه ؛ حتى كان ذات يوم فانتحر برصاص مسدسه أمام عتبة الدار التى كانت تنعم فيها بلقاء صاحبها الجديد .

ورأت فيليشى بعينها ذلك المنظر المروع ، ورأت شفالييه يزهق أمامها ويتخبط فى دمه شهيد عسفها ، فتولاها مدى حين شبه كابوس مخيف ؛ واستمرت أياما ترى شبح المنتحر أمامها يلاحقها ويطاردها فى كل آونة ، فأفضت ذات يوم بهذه الآلام الى صديقها الدكتور تروبليه ، ولكن لم تفض باسم ذلك الشبح الذى يروعها ، ولم تقل إنه شبح ميت زهق شهيد الهوى والغيرة . فواساها الدكتور قائلا : ان آلام البشر هذه أو رؤية الأشباح ، ليست خطرة ولا نادرة ، بل هى تغيض عاجلا فلا تخلف وراءها أثرا ، وزاد على ذلك بأنه آنس فى ماضيه هذا الألم ورأى الأشباح . أجل رأى هذه الرؤيا فى مصر منذ عشرين سنة خلت .

فحدقت فيه فيليشي بدهشة وفضول . واليك ما قصه الطبيب بعد أن أضاء كل مصابيح الغرفة تبديدا لأشباح الظل] .



قال الدكتور تروبليه :

لما كنت أزاول مهنتي في القاهرة، كنت في شهر فبراير من كل عام أشق النيل الى الأقصر، ومن ثم أذهب برفقة الصحاب لأزور القبور والمعابد في الصحراء . وتجرى هذه النزه في وهاد رملية على ظهر الحمار؛ ففي آخر مرة زرت فيها الأقصر، استأجرت مكاريا (حمارا) فتى، كان حماره المسمى «رمسيس» أقوى من غيره . وكان هذا المكارى الذى يدعى «سليم»، أيضا أقوى وأجمل وأرشق من زملائه . وكان في الخامسة عشرة من عمره . وكانت عيناه النجلاوان الوحشيتان تسطعان تحت حجاب بديع من الأهداب الطويلة السوداء؛ وكان وجهه أسمر، حسن الاستدارة والنقاء . وكان يمشي في الصحراء عاري القدمين، بخطوات تذكرنا برقصات أولئك المحاربين الذين تذكرهم التوراة، وكانت حركاته كلها تنم عن ظرف . وكان مرحه الذى كأ مرح حيوان فتى، مطربا ساحرا؛ وكان ينخس بطرف عصاه جانب رمسيس ويخاطبني بعبارات موجزة هي مزيج من العربية والانجليزية والفرنسية، فيحدثني عن السياح الذين رافقهم والذين يعتقدهم جميعا أمراء وأميرات ، فاذا سألته عن والديه أو صحبه لزم الصمت، وبدا عليه الاستهتار والضجر . واذا سألني أن أعده بعطية (بقشيش) حسنة، رقت نبرات صوته ورخمت؛ وكان يأتي حيلا طريقة ويستنفد كنوزا من التضرع المبكي، لكي أعطيه (سيكارة) . وكان إذا لاحظ أني أمدح زملاءه الذين يرفقون بحميرهم، يقبل أمامي رمسيس فوق منخريه ، ويراقصه كلما وقفنا . وكثيرا ما كان يوفق بذكائه الى نيل ما يريد مني ، بيد أنه كان قليل الحرص جدا، فلا يبدى

أقل عرفان لما يحصل عليه ؛ وكان ظمئا إلى القروش ، ولكنه كان أشد ظمأً الى الأشياء الصغيرة البراقة المستورة كالدبابيس الذهبية والخواتم وأزرار الأكمام ، فاذا رأى سلسلة ذهبية أضاء وجهه بقبس من السحر .

«وكان الصيف الذى تلا أشق أوقات حياتى . فقد عصف وباء الكوليرا بالوجه البحرى . وكنت أطوف المدينة من الصباح إلى المساء فى جو خانق . وصيف القاهرة شديد الوطأة على الأوربيين ، ولكنى جزت يومئذ أشد ما عرفت فى حياتى من الفترات الحارة . ثم علمت ذات يوم أن سليما قدم الى المحكمة الأهلية بالقاهرة وحكم عليه بالاعدام ؛ وكان قد قتل ابنة أحد الفلاحين ، وهى صبية فى التاسعة ، لكى يسرق قرطها ، ثم ألقاها فى ترعة . ووجد القرط ملوثا بالدماء تحت حجر كبير فى وادى الملوك . وقيل لى إن سليما سيشنق حتما لأن والدة الصبية أبت أن تأخذ ثمن الدم «الدية» . والواقع أن العفو ليس من حق الخديو ، وليس للقاتل طبقا للشريعة الاسلامية أن يفتدى حياته إلا اذا قبل منه أهل القتيل مبلغا من المال عوض الدم المسفوك . وكنت يومئذ كثير الهموم فلم أفكر كثيرا فى ذلك الحادث ، وقد شرحته لنفسى بأن سليما وهو ماكر ، ولكن طائش أرعن ، كثير الدعابة ، قليل الشعور ، قد لاعب الصبية ، ثم انتزع قرطها وقتلها . ثم لم أفكر فيه بعد ذلك . وكان الوباء يتسرب من مصر القديمة إلى الأحياء الأوربية ، فكنت أعود فى اليوم ثلاثين وأربعين مصابا ، وأحقن كلا بحقن عديدة واقية ؛ وكنت أعانى آلام الكبد ، وأعانى الخور ، وأتساقط من التعب ، فكنت استريح ظهرا لأستعيد قواى ؛ وكنت بعد الغذاء أتمدّد فى الفناء الداخلى لمنزلى ؛ وهنالك استمرئ مدى ساعة ، ذلك الظل الأفريقى ، الصبوح كالماء . ففى ذات يوم كنت أضطجع فيه على الايوان على هذا النحو ، وأهم باشعال سيكارتى إذ رأيت سليما يدنو منى ، ورأيته يرفع بذراعه النحاسية الجميلة ستر الباب ، ويخو نحوى فى ثوب أزرق .

وكان يلزم الصمت، ولكنه كان يفتر عن ابتسامته البريئة الوحشية، وتكشف شفتاه الحمراوان القاتمتان عن أسنان بديعة . وكانت عيناه، تحت ظل أهدابهما السود تسطعان شغفا، وتحدقان بساعتي الموضوعة على المائدة «فظننت أنه فر من سجنه، ودهشت لذلك، لا لأن الرقابة شديدة على الأسرى فى هذه السجون الشرقية، التى يزج الرجال والنساء والخيل والكلاب معا الى ساحاتها المفككة، تحت حراسة جندى يتقلد هراوة، ولكن لأن المسلمين لا يحملون قط على الفرار من قدرهم. وجثا سليم أمامى فى هيئة تضرع ظريف، وأدنى شفتيه من يدى ليقبلها طبقا للعادة القديمة . وكنت يقظا غير نائم ، وكان عندى الدليل على ذلك ، وعندى الدليل أيضا على أن الرؤيا كانت قصيرة جدا . فلما اختفى سليم ، لاحظت أن سيكارتى المشتعلة لم تخرج حطاما بعد .

وهنا قالت فليشى : هل كان ميتا حينما رأيته .

فأجاب الدكتور : كلا فقد علمت بعد ذلك بأيام أن سليما كان يصنع فى سجنه سلالا صغيرة، أو يلعب مدى ساعات طويلة بحبات صغيرة من الزجاج، أو يبسم لزوار السجن الأوروبيين، الذين يدهشهم نجل عينيه، ويطلب اليهم قرشا . والعدالة الإسلامية بطيئة، فقد شنق بعد ذلك بستة أشهر، فلم يهتم انسان بأمره، ولم يهتم هو بأمر نفسه، وكنت يومئذ فى أوربا .

قالت : وهل رأيته بعد ذلك ؟

أجاب : أبدا .

ثم قال : إن أشباح الموتى لا وجود لها كما أنه لا وجود لأشباح الأحياء» .

صحـــف

من

أندريه تيرييه André Theuriet

أندريه تيرييـــه

تيرييه، شاعر مبدع، وقصصي كبير، ولد سنة ١٨٣٣، في إحدى قرى اللورين، ودرس الحقوق فى باريس، وبدأ حياته العملية بالانتظام فى سلك الوظائف الحكوميـة، ولبث يتنقل فيها حتى رقى الى رئيس قلم. ولكنه كان يشغف بنظم الشعر، وظهر منذ فتوته بمقاطيع شعرية قوية كان ينشرها فى «مجلة العالمين». وسلخ فتوته فى أروقة المكاتب الحكومية، ولم يغادرها إلا سنة ٨٦، حيث استقال من وظيفته، وانقطع للأدب. وأمدّته هـذه الأعوام الطويلة التى سلخها فى السلك الحكومى، بخبرة خاصة عن طائفـة الموظفين وخواصها وأخلاقها وتقاليدها، فوصفها فى بعض رواياته وقصصه، ووصف لنا تماثل حياتها الممل وصفا قويا شائقا، وصوّرها ذات عقلية ضيقة، ونفوس منحلة، وعزائم خائرة، تغيض فى ظلمات الأروقة الرطبة، والمكاتب العتيقة، والأوراق المكدسة. ومن آثاره الشعرية Le chemin de bois, Le Blue et le noir, Jardin d'Antoine, Jean-Marie — ومن رواياته Mlle. Guingon, Le Filleul d'un marquis, Flavie, L'Oncle Scipion, La Petite dernière, La Reine de bois, Le Mariage Girard وغيرها. وله عدّة مجموعات قصص صغيرة قوية منها: Bigarreau، وهى التى اخترنا منها القصـــة التى نقدّمها الى القـارئ، و Tentations، وهى مجموعة قصص ريفيـة يتخللها وصف بديع للحقل والغـابة والقرية، و Les Mauvais ménages، وهى صور أخلاقيـة واجتماعية من حياة الزوجية المنكودة.

وتيرييه شاعر الطبيعة والريف والغابة، يعشقها ويهيم بإخراجها فى صور قوية، يكاد القارئ يتنفس خلالها النسيم المنعش والشذى العاطر، كذا يصف

تيرييه الغابة وظلماتها وحيوانها وطيرها ، وما يتعلق بأحوال الصيد ، وصف خبير مدقق . وهو فى هذه المواقف الطبيعية فنان بارع ، يأخذك سحر بيانه ، ورقة تصويره . وله فى ذلك أسلوب خاص يمتاز به امتيازا ظاهرا . ويميل تيرييه فى كتابته وتحليله الى مبدأ «الحقيقة» ولا سيما فيما يتعلق بنفسية الحب والمرأة ؛ وله فى ذلك مواقف سخرية لاذعة . كذلك نراه يميل الى الجد والخطورة فى معظم الأحيان ، وأحيانا يغدو محزنا ساحرا فى نفس الوقت ، كما سنرى فى القصة التى نقدمها : « الراقصة الأندلسية » La Pamplina ؛ وهى قصة كبيرة ، يبدو فيها تيرييه فى ذروة قوته وفنه وبيانه ، وتبدو صوره الطبيعية والنفسية فى ذروة روعتها وسحرها .

ودخل تيرييه الأكاديمية الفرنسية فى سنة ١٨٩٦ ، وتوفى سنة ١٩٠٧

الراقصـــة الأندلسية

فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٣٩ ، وفد على بلدى خمسة قسس إسبان فروا إلى فرنسا أثر اشتراكهم فى الاضطرابات التى عقبت معاهدة برجارا . ولست أدرى كيف هبطت أنقاض العصابات الناقارية هذه، على بلد يبعد عن البرنيه مائتى مرحلة ؛ ولكنى أعتقد أن لجنة للهجرة أنشئت فى باريس كانت توجه الفارين تباعا ، إلى النواحى التى تأنس فيها العون والمساعدة من جانب بعض الأسر الملكية . وكان حادثا أن مدينـة ڤيلوت الهادئة تلقت نصيبها ، خمسة من أولئك الأجانب ، قدموا اليها فى وجوه ممتقعة ، وقبعات كبيرة ، وأثواب خلقة ، يتكلمون بلغة لا يفهمها أحد . وألفى بعض الملكيين والأسر المخلصة من المروءة والشرف ، أن يتكفلوا باطعام اللاجئين و إيوائهم ،وأُسكن أحدهم عند آنسات عجائز يحترفن الخياطة وينتمين إلى إحدى الجماعات الدينية ؛ وكن جارات لنا ، فكنت منذ مقدم القس الإسـبانى أجوس فناء الدار بصفاقة غلام متطفل ، و بهذا تعرفت بالدون پالمينو پلاشوس . وكان فى نحو الخمسين من عمره ، أسمر ، نشـيطا ، عريض الكتفين . وكان شعره الجعد لا يزال فاحم السواد ، ووجهه الحليق بارز عظام الخدين ، فى أحد خديه أثر جرح طويل ، وتحت حاجبيه الكثيفين ، عينان بنيتان تضيئان لونه الزيتونى . وكانت نظراته تسطع من آن لآخر بضوء يضيء حدقتيه فتصبحان كأنهما لهر وحشى ، ولكن فمه ذا الشفتين الغليظتين ، كان يعـرب عن السذاجة . والواقع أن الدون پالمينـو كان ساذجا أحيانا ، يمضى طوال يومه فى التـدخين ، ويقرع «الساجات» بمهارة . ولم تمض أيام حتى مال الىّ وغدونا صديقين ، وأخذ يعلمنى الإسبانية لكى يستطيع أن يحادثنى . وكنت فى الثالثة عشرة . قوى الذاكرة ، فتقدّمت بسرعة ، ولم تمض ستة أشهر حتى استطعت أن أقرأ بالإسبانية كتبا عديدة

مما حمل الأب معه . فلما زال من بيننا حاجز اللغة قويت روابطنا ؛ وقص القس على سيرته . فقد ولد بقرطبة ، وعين أولا واعظا لاحدى مدن الأندلس . ولما غزا الدون كارلوس الولايات الشمالية ، تطوع الدون پالمينو فى جيشه ، وكان ملكيا متحمسا ، ولم يترك المعركة إلا بعد أن وقع الفشل النهائى .

وأعتقد أن الدون پالمينو ، رغم ثوبه الدينى وصفته المقدسة ، كان مثقل الضمير بأكثر من إثم ، فاذا تحدث عن حياته العسكرية ، لمعت عينه وعبس حاجبه ، واشتدت حركاته ؛ وكان يقص بمنتهى البساطة أشنع الأمور التى تروعنى ، فقدأرغم ذات يوم مثلا ، على إعدام ضابط كان زميله فى الدراسة ، فروى لى الحادث بهدوء قائلا :

« طلب الى المنكود قبل موته ، أن يحدثنى ، وذكرنى بصداقتنا القديمة ، وتضرع الى أن أنقذه ، فأجبته — : هذا مستحيل ، ولا تعرف الحرب قرابة أو صداقة ، وأوامر القائد قاطعة . فلو كنت أبى ما أبقيت عليك — ثم قال وهو يعد سيجارة : وهكذا أرسلته فأعدم » .

فشعرت بالرجفة تسرى الى كل عروقى ، واشتد اصفرارى . فلاحظ الدون پالمينو اضطرابى ، وقال وهو يشعل سيجارته : متى أمر الرؤساء ، فلا مناص من الطاعة .

وأراد أن يروح عنى ، فأخذ يصف لى سماء الأندلس الجميلة ، ورياضها ، ولياليها العطرة الساحرة ، وأزهارها وأشجارها النضرة . ثم هاجته الذكرى ؛ فتناول قيثارته وأخذ يغنى ، وعيناه نديتان :

« يا إشبيلية يا روحى ، يا إشبيلية يا عزائى » .

وكأنما تصور الأب غرفته الصغيرة الباردة ، فقيرة الأثاث ، التى ينيرها قليل من الضوء — قد ملأتها الشمس بغتة ، فأخذ يقطعها جيئة وذهابا ، وهو يحمل قيثارته ويغنى بصوت رنان :

«قبـل أن أنساك يا إشبيلية الحسناء، ستتفتح أزهار زيتونك وليمونك الحامض ..» .

وكان القس يغني هذه الأنشودة بلهجة تسيل العبرات .

ففي صيف سنة ١٨٤٠، كان پالمينو پلاشوس قد استأنس فى ڤيلوت، وعين قسا لدائرة نوتردام، وأخذت عدة من الأسر تقبل عليه وتكثر من ضيافته. وكنا لا نزال ندرس الإسبانية معا، حتى غدوت فيها قويا أتفهم كل ما يقال حولى بها متى اجتمع الأب ببعض مواطنيه. ففى ذات يوم كنت عند صديق، وكان الحر شـديدا، وكان الدون پالمينو يضطجع للراحة فوق كرسيه فى فراغ النافذة، وكنت أقرأ كتابا بالإسبانية عن أبطال اسبانيا، فاذا البـاب يفتح، واذا يبدو فتى نحيل لعله فى الخامسة والعشرين؛ وكان ممشوق القد، ووجهه الذى هزل من آثار الحرمان أو المرض شـديد الامتقاع، ولكن عينيه السوداوين تسطعان بضوء المحموم . وكان مربع الجبين، حنى الأنف، بديع الثغر، باهت الشفتين، قد نبتت لحيته منذ أيام؛ فكان فى وجهه ما يجذب ويزعج معا . وكان يرتدى ثوب قس، خلقا ابيضت ثناياه، وسروالا أسود، وحذاء مخرقا . فنادى حين دخوله بصوت رقيق خطير : — يادون پالمينو پلاشوس .

وكان الأب وسـنان، فارتجف لنبرات هـذا الصوت، وفرك عينيه، ثم نهض بوثبة فعانق الزائر، وهو يصيح خلال عناقه : « آه، یارامون أولاڤيدى . ترى من أين أتيت؟ » .

فأجاب رامون أولاڤيدى وهو يرتمى فوق المقعد الوحيد الموجود بالغرفة : جئت مباشرة من بربنيان، وقـد وصلت اليها مع انقاض جيش كابريرا ... وعلمت فى باريس أنك هنا، فجئت لأرى مرة أخيرة، صديقى الوحيـد الذى بقى لى .

فقال الأب : لقد أحسنت أيها العزيز، ولكنك مضنى من التعب، فانتظر ! ...

ثم أخرج من دولابه زجاجة من نبيذ «القنت» ، وأحضر كأسين وشيئا من البقسماط، ووضعها على المائدة بينه وبين القس الفتى، ثم ملأ الكأسين وصاح بحرارة «ليحيي الدون كارلوس الخامس، ليحيي الدين !» .

فردّ عليه رامون أولافيدى بابتسامة يأس ، ثم روى شفتيه بجرعة من النبيذ، ووضع كأسه فى زفرة ؛ وقال الدون پالمينو، وهو يضع يده على كم صاحبه : لقد كنت من مبدئى اذا ، وقد رأيت أن الأندلسى المخلص لا بدّ أن يؤدّى واجبه مهما كلفه الواجب، وأن ثوب القس لا يحول دون الدفاع عن قضية مقدّسة .

فقال رامون محتدا ، ليس الثوب ثوبى للأسف ولم أرتده الا فرارا من السلطات، ولكى أعبر الحدود؛ لست قسا يا سيدى پلاشوس، ولست الا آثما شقيا .

فبسط الأب يديه صائحا وقال : رباه ، ترى ماذا حدث . لقد تركتك وأنت على وشك الحصول على الإجازة، فماذا ارتكبت يا تلميذى ؛ ويا زهرة الكلية حيث كنت تسمى «بالمقدّس» ، وأى إغراء بغيض دفعك الى طريق الضلال ؟

فأجاب الفتى خافض العينين : امرأة يا دون پالمينو .

فصاح الجندى القديم وهو يضرب المائدة بيده : أهى نفس السيرة دائما ؟ والمثل يقول ان الرجل من هشيم والمرأة من نار؛ والشيطان ينفخ بينهما . فأين لقيت هذه الشيطانة التى أضاعتك ؟ قص علىّ سيرتك يابنى، واعترف لأستاذك .

وبدا عليهما التأثر لاجتماعهما ، واتجهت ذكرياتهما الى وطنهما النائى،

حتى أنهما لم يذكرا وجودى . أما أنا فلبثت حيثما كنت فى زاوية النافذة، وستارها يقع على ظهرى ، وكتابى على ركبتى ، والتزمت الصمت حتى ينسيانى ، ولكنى لم أترك كلمة من حديثهما ، وان كان قد فاتنى منه لصغر سنى ، بعض معانيه الحقيقية . على أن هذا الحديث بقى راسخا فى ذهنى ، فلا زلت أستعرضه اليوم ، وأنا أكبر وأكثر رشدا ، بكل تفاصيله ولونه المشجى . ولا زلت أذكر الغرفة ، صبوحة قاتمة ، والمائدة السوداء بين الرجلين ، وعليها الكأسان يضيئهما قبس صغير من الشمس ، وقد اتكأ الدون بالمينو بمرفقه ، واعتمد ذقنه بيده ، وأخذ يحدج الدون رامون بعينيه السمراوين الكبيرين . أما الدون رامون فكان يمسك كأسه بأصابعه الهزيلة ، بينا جسمه النحيل يتردد بين جناحى المقعد ، وبينا كان احمرار المقعد الباهت يخرج اصفرار محياه الطويل . وكانت عيناه المكتئبتان تجولان فى الغرفة دون أن تريا شيئا .

رفع رامون كأسه ، وتناول منه جرعة ثانية ، وارتد فى مقعده وبدأ اعترافه فى مهل .

٢

قال الدون رامون أولافيدى : لما التقينا فى بنيافلور للمرة الأخيرة كان أبى لا يزال على قيد الحياة ، وقد أتيت لأحييك قبل أن أعود إلى المعهد الدينى . وكنت يومئذ أضطرم حماسا لمهنتى ، وكان خيالى الملتهب وهواى الطبيعى يدفعانى نحو حياة من التصوف السامى ، وكنت أشعر بعميق الاحتقار لزخارف هذه الدنيا وشهواتها ، بل كنت أعتقد أنى دعيت لأستأنف حياة القديسين الذين أقرأ سيرهم ، فعدت إلى المعهد ، ومنحت الدرجات الأولى للوعظ ، وهنا غدوت دون شعورى فريسة للإثم الذى يودى بالملائكة أنفسهم — إثم الكبر ، فتصورت الوعظ فى الظروف العادية ، أعنى فى بلد صغير من مقاطعتى ، أمرا لا يلائم كرامتى ، وطمحت إلى حياة أوفر نشاطا وخصبا ،

وملكتنى رغبة فى الذهاب كرسل أبشر بالدين فى أقصى المشرق ، وأوحت إلى روح الشر فى نفس الوقت أنه يجب للاضطلاع بهـذه المهمة أن أكثر من تحصيل المعارف التاريخية والعلمية، وهو ما لا يتوافر فى المعهد الابتدائى ، ونزلت على هذه الرغبة واستأذنت أبى وادارة الشئون الدينيـة، فى أن أقصد إلى إشبيلية لألتحق بكليتها .

وكنت عنـدئذ فى الحادية والعشرين، أضطرم بهـذه الثقة العمياء التى يهبها الشباب، فاندفعت فى دراسة المباحث المدنية الرجسة ، دون أن يخطر لى أن روحى ستنحدر إلى هاوية الإغراء والفساد، وأقمت على مقربة من الكلية فى «منزل فنـدق» فى شارع دادوس تديره أرمل تدعى يوسـيفا جوتيرز . وكانت هذه الأرمل مطرزة ولها حانوت صغير تعمل فيه طول اليوم مع ابنتها مانوليتا ، وهى فتاة فى نحو الثامنة عشرة، وعاملتين فى نحو سنها . ولعلك تقول : ان اختيار الإقامـة فى مثل هـذا المكان لا يتـلائم ميول رجل كرس حياته للدين والتصوف ، ولكن ذلك فى ذاته دليـل على مبلغ ازدرائى للعالم ومبلغ سذاجتى، هذا الى أن جوتيرز كانت تعرف بالاسـتقامة والشرف ؛ وكانت السكينة تسود المنزل، وأجوره فى منتهى الأعتدال، فقد كنت أشغل غرفة كبيرة فى الدور الأول، وأتناول الطعام ثلاث مرات مقابل ثلاثة «بيزاتات» فى اليـوم . وكان يقيم معى راهب فتى، وطبيب ، وطالب مثلى ، وضابط شيخ فى المعاش .

وكنت فى أيامى الأولى لا أرى السـيدتين ورفاقى فى المسكن إلا وقت الطعام، لأنى كنت شـديد الاشـتغال بمباحثى الجديدة، وكنت أخصص أوقات فراغى للصلاة فى الكنيسة الجامعة، وأشعر عندئذ بخشوع عميق يملأ كل نفسى ويملك كل مشاعرى ، وتصعد نفسى إلى اسمى طبقات الإيمـان والصفاء والزهد، فإذا غادرت الكنيسة، وفارقت هـذا السمو، وانحدرت

إلى الطريق لأجوز الى منزلى ، كان يدهشنى بل يثيرنى ما أراه من صخب ومرح فى المدينــة . وكان شارع « دادوس » حيث أقيم يزدان بالحوانيت المزهرة علقت عليها الحرائر والأبهاء المفتوحة يدوى منها رنين الضحك وأنغام العزف ، والشمس تغمر كل جنباته ، فيغمرنى السخط لذلك كله كأنما يناقض مناحى نفسى .

ولكن تأمل تناقض الطبيعة البشرية ، فانى صرت رغم نفورى وازدرائى أتعود التأثر بمؤثرات المجتمع الرجس الذى أعيش فيه ؛ وبينما كنت محصنا ازاء المؤثرات الخارجية ، اذا بحواسى تخضع لها وتعتاد عليها ، فكانت غبطتى بالحياة فريدا فى اشبيلية ، وذلك المرح الذى يملأ الشوارع ، وتمتع العين بكل ما ترى من حدائق زاهرة ، ونساء حسان ، وأوانس رشيقات — كان ذلك كله ينفذ الى نفسى و يغيرها دون أن أشعر ، فكنت أساق الى التنزه فى حدائق البرتقال والإصغاء الى موسيقى الرقص ، وتتبع الفتيات العاملات بالنظرات ، وهن يحكمن تنسيق المحارم فى أوساطهن ، ووضع الزهور فى شعورهن .

وهكذا بعد أن تطور ضميرى خفية ، وتسربت الشهوات سرا الى نفسى ، غدوت أكثر من الإختلاط مع رفاقى فى المسكن ، وأشاطرهم مسراتهــم . فكنا نجتمع فى المساء فى بهو الآنسة جوتيرز ، ونقضى السهرة فى الغناء ورؤية العاملات يرقصن . وكان زميلى الراهب نفســه يشاطرنا هــذه السهرات ، ويقول عنها انها بريئة ، وهو الذى حملنى على مشاهدتها قائلا لى ، ان هــذا الجفاء الذى أبديه يؤذى الرفاق و يؤلم الآنسة جوتيرز .

وأنت تعلم أن رجال الدين عندنا يتمتعون بحرية لا تسمح بها أمم الشمال ، فيختلطون بالناس و يرتادون المقاهى ، و يصطحبون الســيدات ، و يشهدون الحفــلات الموسيقية والراقصــة . وعلى هــذا فقد امتزجت برفاقى فى المنزل وشاطرتهم هذه السهرات التى تتخللها الموسيقى والرقص ؛ وكانت الآنسة مانوليتا

تمتاز بالخفة والرشاقة؛ ولم تكن وافرة الحسن، ولكنها كانت فتاة طيبة القلب، يتمثل الصفاء العذرى فى عينيها السوداوين الزرقاوين، وهو ما تخلو منه غالبا عيون نساء إشبيلية اللائى يمتزن بالنظرات الجريئة الملتهبة . وكانت بلنسية الأصل لها شقرة البلنسيات، ومحياهن الباسم . ولم يمض أسبوعان حتى لاحظت أنها تفضلنى على باقى الرفاق، وان خلالى المحتشمة قد أكسبتنى عطفها . وكان هذا العطف يبدو فى بعض العنايات الدقيقة التى كنت أميزها؛ ذلك أن ترتيب غرفتى كان من نصيب مانوليتا، فكانت تقوم بهذا الواجب بعناية واضحة، وكانت تهىء لى دائما قدحا من الورد أشربه وقت المذاكرة، وكانت تعرف ما أفضله من ألوان الطعام وتحمل والدتها على إدخاله فى القائمة اليومية، وكنت أثناء السهرة أحيانا اذا استغرقت فى فكرة ما ثم رفعت بصرى، أرى عينى مانوليتا الزرقاوين تحدقان بى، فاذا ما التقت نظراتنا، تصاعد الى محياها احمرار الخجل، وخفضت أهدابها السمراء الطويلة، واتجهت بنظراتها نحو قدميها الصغيرين .

وكنت قليل الإكتراث بشخصى، فلم أعبأ ذرة بهذه الأعراض الأولى للشهوة؛ ولو كان لى من البصيرة ما لشاب مستنير، لما ترددت فى أن أضع فى الحال حدا لهذا العطف الخطر بمغادرة منزل السيدة جوتيرز؛ ولكنى كنت لا أزال فى حمى أحلامى الرسولية، ولا يخلق الأنانية قدر الثبات على فكرة . وإذ كنت الى اليوم بعيدا عن الشهوات الجسمية، فلم أعبأ بما اعتبرته مظاهر صبيانية محضة؛ ومضيت فى معاملة مانوليتا معاملة صبية صغيرة ظريفة، أثيبها من آن لآخر عن عنايتها بهدية كنسية لطيفة . بيد أننى لو كنت بدلا من الإغراق فى أحلامى الرسولية، نزلت الى أعماق نفسى، لرأيت فى ثنايا قلبى ليمونة الرذيلة والشقاء؛ تلك التى تجثم فى قرار كل روح بشرى . ومع أننى لم أضطرم برغبة آثمة، فاننى كنت مع ذلك آنس لذة خفية

فى أن أشعر أنى محاط بهذا الحنان الصبيانى ، وأسلم نفسى لهذه المداعبة دون أسف أو ندم ، وأستنشق من حولى نسمات هذا الحب من حركات الفتاة وأقوالها ، بلذة كتلك التى آنسها فى استنشاق الورد الذى تزين به مائدتى .

وكانت هذه الدعة القاسية الأنانيّة التى تنعم الى جانب الإثم ، مؤمنة بأنها بعيدة عن خطر التلوث ، تحمل فى ذاتها نفس عقوبتها ؛ فما يعيش الانسان أمينا فى مثل هذا الجو دون أن يشعر بمؤثراته ولو رغما منه . فهذه المداعبات النسوية ، وعطر هذه الأزهار التى تجمع من أجلى ، ورخامة صوت الفتاة حين تغنى فى زاوية الحانوت أغنية أندلسية تنفذ ألفاظها المضطرمة الى غرفتى ، ومنظر جسمها الغض الرشيق حين تنزل أو تصعد : كل هذه الأمور كانت تذلل ارادتى شيئا فشيئا ، وتبدد ذهنى ، وتخفف من حدة ايمانى ، وتحملنى دون أن أشعر على قبول الإغراء .

ففى ذات يوم أحد من أيام الصوم ، عدت الى المنزل من الكنيسة . وكان الربيع قد حل قبل أوانه ، والجو بديعا ، والحر شديدا ؛ فسارعت الى المنزل ، ودفعت الباب ، وجزت الى الفناء الظليل الصامت ، تزينه شجيرات الورد والبرتقال ، وينفذ اليه النور المذهب الأشقر من غطاء نصب فوق مدخله ، ولم يكن يقطع الصمت سوى خرير نافورة أقيمت فى ناحية . فلما دخلت الى الظل لم أميز الأشياء بسرعة ، ولكن نبهتنى صيحة من مانوليتا ، وكانت فى زاوية تكاد تخفيها الأغصان تعنى بشجيرات الورد ، فارتدت نحوى بمحياها المستدير ، وشعرها الأشقر ، وأضاءت عيناها بابتسامة . فقلت لها : لقد ظننت انك خرجت يامانوليتا .

قالت : كلا ! فقد اصطحب السادة والدتى الى الكوريدا (ميدان الثيران) ، ولكنى آثرت البقاء فى المنزل .

قلت : أحسنت لأن الحر قاتل .

قالت : أليس كذلك؟ ثم إنى أسر بالحديث معك .

قلت : شكرا، فسأذهب الى غرفتى لأتم القراءة .

قالت : سوف تذاكر غدا، فأنت تعب على ما يظهر، فهل تريد أن أقدم لك قدحا من شراب التوت ؟ .

قلت : بملء الرضا .

فانطلقت فرحة الى غرفة مجاورة، وعادت منها بقدح كبير بارد من عصير التوت، ثم قدمته الى، فشربت نصفه، ولاحظت عندئذ أنها تضع فى حزام ثوبها الأسود شريطا بنفسجيا، ثبت بقلب من الفضة، غرست فيه سهام .

فأشرت اليه قائلا : ماذا يعنى هذا ؟

فاحمرت وقالت بخطورة : هذا نذر، فقد نذرت للعذراء أن أحمل هذه الألوان مدى عام اذا حققت لى ما أتمنى .

قلت : وماذا تمنيت على العذراء ياما نوليتا ؟

أجابت خافضة عينيها : هذا سرى يا دون رامون .

قلت وأنا أتناول يديها : فى وسعك يا بنية أن تعترفى بسرك لراهب .

فهزت رأسها، وابتسمت بخبث وقالت : انك لم تصبح راهبا بعد .

وتركت يديها فى يدى، وترددت برهة ثم قالت بلهجة دعابة : المسألة أنى أحب فتى، وأرغب فى أن أتخذه لى خطيبا بالرغم ... بالرغم من العهد الذى قطعه على نفسه بأن يكون للكنيسة . ثم سحبت يديها وغطت وجنتيها الملتهبتين .

فاضطربت لهذا الاعتراف، وجرعت جرعة من القدح ثم ألقيته على على المائدة، ونهضت قائلا بصوت خطير : يجب ألا تستهترى بالنذر يا بنية، فنذرك طيش، ولن ترضاه العذراء .

فتقلص محياها الوسيم، وبدر الدمع من عينيها، ثم زفرت بغأة وفرت .
لم يك من ريب، فقد كانت تحبنى، وارحمتاه ! ولكن أى مجرى آخر كانت تتخذه حياتى لو أنى بدلا من أن أترك مانوليتا تفر مبللة بدموعها، بسطت اليها يدى ووعدتها أن أكون خطيبها المنشود ؟ عندئذ كنت اقترنت بها، وغادرت إشبيلية لنعيش معا فى بنيافلور، ولعكفت على زراعة الأرض التى ورثتها عن أبى قبل ذلك بعام، ولكنت بدلا من أن أهيم على وجهى كشق لا يتذوق شيئا فى العالم، غدوت اليوم مزارعا هادئا، ورب أسرة، ولكنت أستطيع أن أطل من نافذتى على زيتون حديقتى الواقعة فى طريق قرمونة. ولكن غشاوة الكبر كانت قد نفذت الى رأسى فأعمتنى؛ فاعتصمت بما زعمته لنفسى من زهد ويقين، وزعمت أننى لا أتأثر بالنساء؛ ولم تكن ساعتى قد حلت بعد .

بيد أنها حلت بعدئذ بقليل؛ فحل عقابى، وحل شقاء من عاقوا بى .

ففى ذات صباح، كنت عائدا من الكلية مع جارى الطالب، فاستوقف نظرى، على مقربة من كنيسة سلفادور، إعلان أحمر كتب فى رأسه بأحرف كبيرة « أغان ورقصات أندلسية »؛ وفيه أن الفصل سيفتتح فى نفس المساء فى بهو الطرب، بشارع « آمور دى ديوس »، بالراقصتين والمطربتين الشهيرتين، سوليداد ڤارجاس، وپاستورا فلوريس المسماة « پامپلينا » .
وأفاض صاحبى فى وصف براعة سوليداد ڤارجاس التى رآها فى قادس، وأعلن عن عزمه على مشاهدة التمثيل فى نفس هذا المساء، ولما أجبت بهز الكتفين قال لى :

« ولماذا لا ؟ إنك لن تكون أول راهب يؤم شارع « آمور دى ديوس »، بل انى موقن بأن جارنا الراهب سيكون هنالك . هذا الى أن المرسل المستقبل يجب أن يلم بكل شىء، وسوف ترى فى الشرق الأقصى

رقصا لا يعتبر رقصنا الأندلسى الى جانب خلاعته شيئا » .

وما كنت قبل عام لأصغى ذرة الى مثل هـذا الاقتراح ؛ ولكن الفساد الدنيـوى كان يشع الى نفسى منذ أشهر ، فاكتفيت بأن أناقش صاحبى فيما هو محظور وما هو مباح ، وفيما اذا كان أيسر على المرء أن يجتنب الشر الذى يعرف من ذاك الذى لا يعرف . ومن ناقش فى الواجب بدل النزول الصامت على وحى ضمـيره فهو رجل هالك . وفى نفس المسـاء ، ذهبت الى شارع دى ديوس .

وكان المطر يسقط حين ذهابنـا ، فانتهزت الفرصـة والتحفت بمعطفى لكى أسـتر ملابسى الدينية عن الأعين . وكان رفيق يعرف الخان ، فقادنى وأرشدنى ، فدخلنا الى بهو شاسع مستطيل فى نهايته مقصف صـغير لتناول المشروبات ، وفى نهايته الأخرى مسرح يفتح عليه باب يتصل بالغرفة التى يستبدل الراقصات فيها ثيابهن . وكانت المقاعد الخشبية المصفوفة الى جانب الجدران البيضاء ، يحتلها جمهور مرح من الجند والطلبة ، والعاملات والأسر الفقيرة ؛ وكان ينير البهو ثريا شاحبة وشموع داخنة ، ونفثات المدخنين تظلله بالسحب . ولم يكن التمثيل قد بدأ ، بل كان ثمة عازفان يجلسان على المقعد الأمامى ، وهما يجربان القيثارة بنغمات متقطعة . وكان الستار يرفع عن باب الراقصات من آن لآخر فتبدو من ورائه ذراع عارية أو طرف ثوب أو رأس راقصة مكللة بالأزهار . فهاجنى فضول المحدث ولم تترك عينى ذاك الستار الذى كنت أسمع من ورائه همس الراقصات وضحكهن الخافت . وأخيرا رفع الستار بإشارة من العازفين ، وهرع الراقصات معا فجلسن على المقاعد ، وبعضهن فى أثواب راقصات الأوبرا ، والبعض فى ثياب عاملات إشبيلية ، وهن جميعا يحركن أصابعهن «بالساجات» الرنانة .

وبدأت عدّة راقصات فى أثواب قصيرة ، بالرقص على أنغـام الموسيقى

وقرع « الساجات » ، فسرعان ما ضجرت لرؤية هـذه الأرجل تدور حول نفسها ، وتلك الأذرع العارية تدور فى حركات متماثلة ، حول هذه الرؤوس الملونة ، السـافرة عن ابتسامات مصطنعة . وطال هذا المنظر حتى سئمت ، وأخذت أفكر فى الانصراف ، وإذا بضجة استحسان تحـيي ظهور إحدى «نجمات» المرقص . وكانت فتاة حسناء ، ساطعة العينين ، مليئة المحيا قليلا ، ترتدى ثوب « نوريه» قصيرا شفافا ، وقد زين شعرها الأسود الساطع بطاقة من الزهر . فبدأ العزف ، على حين جلس الراقصات وأخذن يحركن أصابعهن . فقال صاحبي : هـذه هى سـوليداد ڤارجاس . وأخذت الراقصـة وزميلها يتجاولان فى حركات متماثلة ، وهما يحدقان كل بالآخر ، و يغنيان هذه الأنشودة القـديمة :

« كان أول أسباب ضياعى امرأة .

«وليس فى العالم ضياع ، يا حبيبة القلب .

«ليس فى العالم ضياع لا يأتى من النساء» .

وكان النظارة يضجون بالهتاف والتشجيع ، فتضطرم الراقصة وتضاعف دورانها وحركاتها ، ووجهها الأسمر جامد باسم . على أن هذه الحركات المبتذلة والإشارات المليئة بالمعـانى ، بعثت الى الاشمئزاز ، وتصاعد الإحمـرار الى وجهى ، واعتزمت تلك المرة أن أغادر المكان حقـا ؛ ولكن أعلن فى تلك اللحظة ظهور پاستورا فلوريس المعروفة باسم « پامپلينا» .

ولم تكن قد ظهرت فى البهو بعد ، فرفع الستار ، وما كادت تظهر حتى ثبت فى مقعدى .

ولن أنسى ظهورها أبدا . فقد كانت ذا قد بديع متوسط ، تمتلئ حياة ، وترتدى ثوب الإشبيليات ، يتراوح ذيله فيسفر عن قدمين صغيرتين فى جورب وردى ، وخصرها يضمه شال من الحرير الأبيض تزينه زهور صـفراء ،

وشعرها الأسمر معقوص الى العلاء، ومنه خصلة تتدلى على الخد . وكانت في نحو الخامسة والعشرين، ومحياها البراق الحي المرح، تضيئه عينان باسمتان تظللهما أهداب طويلة، ولها شفتان حمراوان تطبعهما ابتسامة خلابة مغرية، تزيد في فتنتها ذقن بديعة. فبرزت أمام راقصها، وعادت الموسيقى الى العزف، وأخذت ترقص برشاقة ساحرة، وظرف فياض. وكان رقصها محتشما مثيرا معا، فقد كان ثوبها قلما يرتفع فيسفر عن قدمها الصغيرة وجوربها الوردى؛ ولكنى، وهي تنساب وتهتز ولا تكاد تمس الأرض، وتومىء بمحياها الى جميع معانى رقصتها المضطرمة، كنت أشعر أن قلبي يثب حتى نحرى . فاندفعت أهتف مع الهاتفين، وأصفق بشدّة حتى أن معطفى انخلع عن ظهرى، وبدا ثوبي الديني . ولاحظت الراقصة حماستي فحولت رأسها برهة نحوى، وخلبتنى بنظرة ساطعة واختفت؛ بينما استمرت الموسيقى تعزف خلال الاستراحة، ونهض مغن يغنى بصوته الأجش :

« كان أوّل أسباب ضياعى امرأة .

« ليس فى العالم ضياع، ياحبيبة القلب

« ليس فى العالم ضياع لا يأتى من النساء» .

ولم تمض برهة حتى عادت پامپلينا، وعلى رأسها خمار أبيض وفى يدها مروحة؛ وظهر راقصها يرتدى ثوب «ماچو» ، وقلنسوته مائلة على كتفه؛ وقرعت الموسيقى وبدأ الرقص : حركات مثيرة من الراقصة، ومطاردات من (الفتى) يدور حولها كالفراشة العاشقة، ولما دنا منها دفعته بمروحتها فأبعدته عن شفتيها . وكان فى إباء الراقصة وابتسامتها سحر لا يقاوم، أدركت معه لأول مرة كل ما تموج به الشهوة من لذة وجوى . وكانت تدنو من النظارة أحيانا؛ فاذا مس ثوبها الوردى ركبتى، سرت الى جسمى كله رعدة مضطرمة باردة معا . ثم غدت الموسيقى ناعمة خافتة، ووضع الراقص قلنسوته على الأرض

فمرت فوقها الراقصة خفيفة كالعصفور ، وافتر ثغرها عن ابتسامة رضى ، وارتمت بين ذراعى الراقص ... وكان خاتمة الدور ، فارتفع الهتاف من كل ناحية ، بينما ارتمت الراقصة على مقعد قريب من الباب . وبدأ النظارة بالانصراف ، فنهضت أيضا ، ودنوت منها أثناء مرورى ، وجلا خافق القلب ، فكفت عن تلويح مروحتها ، وحدقت فى عينى بعينها الساطعة ، وحيتنى بابتسامه فاتنة من الشفتين والأعين .

وهنا صاح الدون بالمينو وهو يضرب المائدة بقبضته : ألا تبا له من سحر خبيث .

فقال الدون رامون : أجل أنه لسحر خبيث ولكن لذيذ الخبث ... فارتجفت حتى قدمى . وكانت هى الإبتسامة التى أضاعتنى . فخرجت مترنحا كالثمل ، وهمت خافض الرأس تحت رذاذ المطر فى الشارع المظلم ، وإذا بصاحبى يصيح بى « انك تضل الطريق ، فهل سحرتك پامپلينا ؟ » .

٣

لست أدرى أى جوى بثته پاستورا فلوريس فى نفسى ، ولكنه كان ينساب كالنار فى عروقى ، وكانت صورتها ترقص أمام عينى بلا انقطاع . أجل ساورنى الاضطراب والخبل ، فكنت أرى دائما جوربها الوردى ، وقدمها الصغيرة تضرب الأرض تحت طيات ثوبها ، وأرى عينيها الساطعتين وابتسامتها الحمراء وقدها المليء . ولم أستطع أن أفر من هذه الصور ، بل كان اسم پامپلينا يمتزج فى فمى بالصلوات ، وتقطع ذكراها فى كل لحظة خيط تأملاتى . وعبثا حاولت أن أفر من هذه الفتنة الى ظلال الكنيسة ، بل لقد كنت أرى الراقصة مكان تمثال يسوع ، ثم أراها تنحدر نحوى بخصلاتها الشقراء ، واليها كنت أبسط يدى .

وكانت حفلات الرقص قد أجلت لحلول الأسبوع المقدس ، فلم أعرف

متى أستطيع رؤية پامپلينا ، ولكنى لبثت اضطرم بغاية واحدة ؛ هى أن أراها . وكنت أؤمل أنها تهرع لرؤية الموكب العام كغيرها . وكان الربيع يومئذ فى أوج ازدهاره ، وما كانت السماء أبدع زرقة . وكانت نوافذ القصور والمنازل تزدحم بالنظارة . وكانت الكراسى قد صفت أمام القصر العام مثنى وثلاث . وجلس عليها نساء إشبيلية فى أثواب سوداء تزينها الورود ؛ وأمامهن الميدان تناسب فيه الجموع الحاشدة . وكنت ترى العاملات وعلى أكتافهن المحارم ؛ وفى شعورهن الزهر ؛ والممثلين والمصارعين فى صديريات مطرزة من القطيفة ؛ والفلاحين من النواحى القريبة وفى أوساطهم الأحزمة الحمراء . وامتزجت أنا بالجموع ، أذهب وأجىء معتقداً فى كل لحظة أنى ظفرت بفقد پامپلينا ورأسها البديع . وكانت أصوات المزامير تدوى من آن لآخر فتغشى الضجيج العام . ثم تقدم الوكلاء ، وأفسحوا الطريق للموكب ؛ وجاء القسس فى أثواب بيضاء وهم يحملون تماثيل العذراء والمسيح . أما أنا فلبثت اتفقد پامپلينا فى كل نافذة وشرفة حتى كلت عيناى من النظر ، ومالت الشمس الى المغيب ، وانحدر الظلام ، واختفت الألوان ؛ ولكنى ما زلت أضطرم جوى ورغبة فى البحث ؛ وما زلت أشق غمار الجماهير والجماعات .

وفى مساء الجمعة المقدس ، طفقت أجوب حى « سير بيس » . وكانت الحوانيت مغلقة غير أن الضجة كانت عامة ؛ وكان صياح باعة السلع الصغيرة والفواكه والأطعمة الخفيفة يملأ الجو . واستوقف نظرى موكب قادم من ناحية كنيسة سان سلفادور ، تضيئة الشموع المرتجفة . وهنا شعرت بجأة بروحة تلطم ذراعى ، فالتفت فاذا بى أرى پامپلينا تقف الى جانبى ، وقد غطت رأسها بخمار أسود لا يبدو منه غير عينيها الساطعتين ، فخفق قلبى بشدة ؛ واختفى ضوء الموكب أمام ضوء عينيها الباهر .

قالت لى بصوت ساحر : عم مساء يا سيدى الطالب .

فلبثت بادئ بدء جامدا تعرونى هزة عقدت لسانى .

أما هى فاستمرت قائلة : بعـد المرقص تجئ التوبة ، وانها لليلة بديعة ، للتكفير عن الزلات باتباع المواكب المقدسة .

فلم أستطع جوابا ، ولقد كنت أود أن أصيح بها : « إن المواكب لم تجذبنى و إنما قصدت البحث عنك » ولكنى لم أجرؤ على مثل هذا القول . وقد كنت أتوق الى هذا اللقاء بكل قواى ، فلما هيأته لى المصادفة ، لم أستطع أن أفيد منه ، بل لبثت وجلا خجلا كالغبى ، فى حين ضحكت پاميلينا وهى تهز مروحتها .

أما أنا فقلت مغمغما دون أن أفقه ما أقول : أجل ، فلا تسخرى منى .

قالت : نعم ، ياسيدى «المقدّس» ، فلست مخيفة الى هـذا الحد ، لقد كنت أشد وداعة حينما رأيتنى فى الليلة الأخرى أرقص «الملاجينا» .

فصحت بها كالهائم : وهل تذكريننى ؟ .

أجابت : أنى دائمـا أذكر الفتيان الحسان الذين يعجبون بى . فلمـاذا لم تأت فتكلمنى قبل ذهابك ؟ .

قلت : ما كنت لأجرؤ على ذلك قط أيتها الآنسة .

قالت : آه ، انك تخشى أن تلوث سمعتك ، وهاأنا أراك الآن فى منتهى الوجل ، فهل تخشى أن يراك الناس متحدّثا مع راقصة (باپادورا) ؟

ولقد كانت صادقة الحدس ، فقـد كنت رغم الجوى الذى أضطرم به نحوها أخشى أن يرانى أحد زملائى . فاحمررت وتلعثمت . وكنا قد وصلنا الى زاوية «سان أكازو» فقالت لى ضاحكة : لست أريد أن ألوث سمعتك ، ولكنى حرّة غدا ، وسأتنزه فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر فى حدائق «القصر» (الكازار) ولمـا كان الجميع مشغولين بالصلاة ، فلن نتعرّض لفضول أحد ، هذا الى أن شذى البرتقال بديع هنالك ، أفلا تحب هذا الشذى ؟ عم مساء ،

ياسيدى . ما اسمك ؟

أجبت : رامون .

فقالت : عم مساء يا رامون «المقدس» .

ثم أنسلت بحركة رشيقة سريعة نحو «سان أكازو» فلبثت ذاهلا على حين غاضت هى فى الظلام .

وعدت الى المنزل مضطرم الذهن ، فصعدت الى غرفتى وأغلقتها ، ولم أستطع النوم إلا فى وقت متأخر من الليل ، فنمت نوم المحموم . واستيقظت فى الغد متأخرا على قصف المدافع تعلن بعث السيد المسيح ، وقرع النواقيس فى جميع الكنائس . وأنفقت الضحى فى غرفتى وأنا أعاهد نفسى على ألا أذهب الى «القصر» . ولما نزلت لأتناول طعام الغذاء كنت شديد الشحوب فسألتنى مانوليتا بصوت الجزع : أأنت مريض؟ فأجبتها بإيجاز ، وما انتهى الطعام حتى أسرعت بالخروج وأخذت أجوب الشوارع التى تغمرها الشمس ، ودخلت الى الكنيسة الجامعة لكى أحاول تهدئة لروعى مكررا : كلا ، كلا ! لن أذهب الى «القصر» . ومع ذلك فما حلت الساعة الثالثة حتى جزت الى حدائق القصر ، وانحدرت الى الأزقة الظليلة بين الورود المزدهرة ، وجلست فى روشن بين أدغال البرتقال . وكان البستان قفرا لايشوب سكونه غير حفيف الشجر وخرير الماء ترسله النوافير المرمرية . وقلت لنفسى إنها لن تأتى بل سخرت منى ، وشعرت بارتياح وامتعاض معا . ولكننى ما لبثت أن سمعت وقع خطوات خفيفة ، ورأيتها تخو تحت أغصان البرتقال .

وكانت ترتدى ثوبا أزرق قصيرا يسفر عن ساقيها الرشيقتين ، يسترهما جورب أزرق وحذاء من القطيفة ، ويضم قدّها الصغير دثار صغير ذو أزهار صفراء ، ويتدلى على كتفيها خمارها الأسود ، وفى خصرها طاقة كبيرة من الياسمين .

فقالت ضاحكة : ها أنت؛ وانه لظرف منك أن أتيت ، فتقدّم واجلس الى جانبي .

ثم جلست على الحاجز الصغير الذى يواجه الروشن ، فأطعت ، ولكن اضطرابى اشتدّ ولم أعلم ما أقول ، فبدا عليها التعجب لصمتى لأنها لم تعتد بالطبع مثل هذا التحفظ .

قالت : هل قدمت الى إشبيلية منذ بعيد؟ قص علىّ تاريخك .

فاغتبطت بهذا الموضوع وحدّثتها فى سذاجة عن قريتى ، وعن دخولى فى المعهد ، وعزمى على أن أكون مرسلا متى جزت الى المراتب الدينية العليا .

فأصغت الىّ وهى تهز رأسها اللعوب ، وأجابتنى كما أجابت مانوليتا : انك لم تجز الى هذه المراتب بعد ، ومن الأسف أن تصير اليها ، فهل أنت واثق من شغفك بالمهنة؟ .

ثم حدّقت فى بعينيها السوداوين الواسعتين العميقتين ، حتى خيل لى وأنا أتأملهما أننى أنحدر الى هاوية تجذبنى اليها . أجل كانتا عينين ساطعتين لن تنساهما اذا تأملتها ذات مرة؛ بل فلومت ، فإنى من أعماق قبرى أعتقد أن نظرة منهما تكفى لبعثى ؛ بل لأنهض من لحدى لأراهما مرة أخرى . لقد بثتا الى السحر ودار رأسى .

فغمغمت هائما : المهنة ؟ لقد كنت مغرما بها ، ولكنى مذ رأيتك لاأعلم بعد ، لا أعلم بعد .

فضحكت وبدت أسنانها البيضاء البديعة بين شفتيها الحمراوين ، وبسطت ذراعها فاقتطفت برتقالة من الأغصان المائلة ، وأخذت تقشرها وتأكلها قائلة : آه انه لا يعلم بعد ؛ وما دامت عيناى هما اللتان أحدثتا الضرر فعلىّ الاصلاح . فهنالك نافورة يشفى ماؤها عدوى العين وأمراض القلب ،

وسأقودك اليها .

ثم تناولت يدى وجرتنى برشاقتها الساحرة الى نافورة « حمام السلطانة » الى يسار المكان الذى كنا فيه ، واغترفت من مائها بحفنة يديهـا وقدّمتها الىّ قائلة ببسمة ساحرة : اشرب ! .

فهويت على اليدين وأخذتهما بيدى وجرعت بضع قطرات من المـاء ، ثم غمرتهما لثمـا .

فصاحت وهى تطوى أصابعها : كفى ، كفى ، والا كان العـلاج شرا من الداء .

وكانت فتانة بذراعيها العاريتين المبللتين تسـطعان فى ضوء الشمس ، وعينيها اللتين علت أهدابهما قطرات صغيرة من ندى المـاء المنبعث .

ثم قالت : وداعا ؛ فقد حان وقت عودى . ولا فائدة من اتبـاعى . وسأرقص غدا فى «بهو الطرب» ، وأؤمل أن تأتى .

ثم جمعت أذيال ثوبها الأزرق ، ووثبت الى الممشى واختفت وراء أدغال الورد .

وعدت فى الغـد الى بهو شارع (آمور دى ديوس) بمفردى ؛ وجلست الى جانب باب غرفة الثياب فى أسفل المسرح ، فرأتنى ، وأشارت برأسها تحيـة لى ؛ ولمـا جاء دورها فى الرقص عادت فألقت إلىّ نظرة جديدة ؛ ولاحظت أنها كانت تحاول ما استطاعت أن تدفع راقصها نحو الركن المظلم الذى كنت أجلس فيـه بحيث كأنها كانت ترقص لى ، فأثار هـذا التصرف همهمة من النظارة فى الناحية الأخرى ، وبدا الامتعاض على الفتى الراقص ؛ وتبادلا معا عدّة عبارات بصوت منخفض ، فلما انتهيا من الرقص ، أولتـه ظهرها ؛ واختفت وراء الحاجز ولم تعـد . فقلقت لذلك ؛ وخرجت الى الشارع ؛ واستترت فى فراغ باب وانتظرت پاميلينا بفارغ الصبر . ورأيتها

أخيرا تبـدو ملتفة بدثارها الأبيض وتنسل مسرعة فى الظلام ، فتبعتها خافق القلب ، ولكنى لم أجرؤ على مخاطبتها شاعرا بأن ذلك يغضبها بعـد التوتر الذى وقع بينها وبين مدربها .

بيد أنها ارتدت فجأة عند زاوية شارع ، تحت مصباح ، فرأتنى وابتسمت قائلة : آه ! أهـذا أنت أيها « المقدّس » . أتدرى ؟ لقـد كدت أتشاجر مع النظارة من أجلك ، ولكنك ستعوضنى عن ذلك بشىء من صحبتك ، وان يراك أحد فى هذه الساعة .

فوثبت الى جانبهـا ، ورأت من هيأتى الذاهلة أنى شغفت بهـا سحرا وفتنة ، فما عليها إلا أن تأمر فأطيع .

فلما وصلنا الى « ميدان هرقل » وقفت أمام منزل أبيض كانت نوافذه كلها صامتة قاتمة وقالت : هنا أقيم ، فى الطابق الأعلى ، بالقرب من السماء ، فهيا أقدّم اليك قدحا من الليمون ، فقد استحققته .

فتبعتها ، ولكنت أتبعها الى آخر العالم ، ففتحت الباب الثقيل ، وقادتنى من يدى لتساعدنى على اجتياز الممر الطويل المظلم ، ثم السلم الرطب الأشـد ظلاما ، فصعدت أتخبط فى الدرج ، سـعيدا إذ أشعر أن تقودنى هذه اليد الصبوح العصبية ، التى تستند راحتها الى راحتى . فلمـا وصلنا الى النهاية تلمست مكانا فى الجدار ، وأنارت مصباحا صغيرا ودفعتنى الى غرفتها ، وهى قاعة شاسعة ذات جدران بيضاء تطل نافذتها على مشرفية ، ففحصت المكان على ضوء المصباح ، فرأيت السرير المنخفض فى زاوية وعليـه غطاء بلنسى ، ومرآة أمام مائدة صغيرة ، ثم تمثالا صغيرا للعذراء ، وقيثارة معلقة على الجدار ، وزوجا من « الساجات » . وفتحت پامپلينا دولابا ، واسـتخرجت إناء من المـاء ، وقدحا ، وهيأت لى ليمونا ، ووضعته على المـائدة ، وقالت لى : أما الآن فاجلس واشرب .

ولكنى أمسكت بيـديها وأسنانى تصطك فى صمت وعنف ، وحاولت أن أقبل شفتيها الحمراوين المثيرتين ، فانتزعت يديها منى بسرعة وارتدت الى الى الوراء ، وحدجتنى من الرأس الى القدم وصاحت : عجبا ! أهكذا يتصرف جميع رجال الدين .

فتولانى الخجل لتلك النزعة الخشنة التى غلبتنى ، وخفضت عينى ولم أجرؤ على الكلام ، أما هى فأولتنى ظهرها ، وأخذت فى هدوء تعدّ لفافة من التبغ ، ثم أشعلتها من المصباح ، وذهبت فجلست فى فراغ النافذة .

فتقدّمت منها ذلولا مشبك اليدين وقلت مغمغما : عفوا يا پامپلينا ، فانى مجنون ! ... وأنى أحبك فرفقا بى .

فرأت الدمع يترقرق فى عينى ، فحولت نحوى عينيها الساطعتين وقالت : أحقا أنك تحبنى يا مقدس ؟

— أحبك حتى الجوى والشغف .

— أتحبنى أكثر مما تحب مهنتك ومعهدك ؟

— أحبك أكثر من كل ما فى العالم !

فأسقطت لفافتها من يدها ، ثم نهضت ، فرفعت خمارها وألقته فى الغرفة ، ووثبت إلى ذراعى ، وألصقت شفتيها بشفتى وقالت :

— إذا فخذنى فأنى لك !

آه ! يالذلك الليـل فى تلك الغرفة الصغيرة ، و يالهاته الدعابات النسوية تخلبنى لأول مرة ، و يا لسهرة الحب هذه فى الصمت العظيم يخيم على المدينة النائمة ! ... أطفىء المصباح فصرت أرى ، من الركن المظلم الذى أوينا اليه ، خلال النافذة ، المشرفية البيضاء والسماء تغص بالكواكب .

ومنذ ليـلة الفصح هذه لم أعد أملك نفسى ، بل غدوت كإحدى هذه اللعب الخشبية التى تعطى للأطفال ، وأضحت جميع أعمالى كأنما يحرّكها خيط .

وهذا الخيط السحرى كانت تمسكه أصابع پامپلينا ذات الأهواء، ولم أعد أعيش في اليوم غير ساعة ، هى التى أنتظر فيها پامپلينا عند باب بهو الرقص وأصحبها إلى منزلها ، وكثيرا ما كنت ألقى الخيبـة فى اللقاء . ذلك أن پاستورا فلوريس لم تكن دائما حرة التصرف فى سهراتها ، فقد كان مدربها يقودها مع باقى الراقصات الى سهرات يقيمها الحاكم العام أو غيره من الكبراء . فكانت عندئذ تخطر لى مسرعة على يد غلام ، فأعود الى منزلى مضطرب الذهن ضائع الرشاد .

ففى ذات مساء عدت فيه حزينا بعـد أن حبط اللقاء ، ألفيت مانوليتا وحيدة فى بهو الاستقبال ، تشغل بالوشى على ضوء مصباح وضعته قريبـا من أحواض الزهر ، وشعرها الأشقر كالتاج الذهبى متهدل حول رأسهـا البديع المنحنى على القماش ، وكانت هذه أول مرة لقيتها فيها منذ الأحد الذى رددت فيه اعترافاتهـا الرقيقة بجفاء ، فاشتد كدرى لرؤيتهـا ، ولاح لى كأنهـا تقرأ فى وجهى خيبة أملى لحبـوط اللقاء ، وشـعرت أن ثورة نفسى تضطرم ، إذ خيل لى أن نظراتها تسطع بقبس من التهكم .

رفعت نحوى عينيها الزرقاوين النجلاوين تغشاهما أمارات الحزن وقالت : عم مساء يادون رامون .

فأجبتها بلهجة جافة وأنا أقرب شمعتى من المصباح : عمى مساء .

فوضعت وشيها على المـائدة وقالت بلهجة رقيقة : لمـاذا تجيبنى بمثـل هذا الجفاء ؟ لقد تغيرت فى الأسابيع الأخيرة أيما تغير ، فماذا الذى اعتراك ؟

— لم يعترنى شىء .

— كلا ، بل لم تعد كما كنت ، فأنت تهمل الأصدقاء ، ولم تعـد تفتح الكتب التى كنت تحبها من قبل .

— انك واهمة يامانوليتا .

فهزت رأسها وزفرت قائلة : كلا فلست واهمـة . ومع أنى لست

إلا طفـلة، فهنالك أمور كثيرة أحزرها فتؤلمني . وليست غيرتي اليـوم من الكنيسة، ولكن من امرأة استولت على قلبك مع أنها ليست خليقة بك .

قلت بفارغ الصبر: هذه أمور لاتعيها طفلة، و يدهشني أن أسمعها منك .

فنهضت وقالت بشدة : آه، إني أبغض هذه المرأة لأنها تجعلك شقيا .

فقلت بجفاء : كفى يامانوايتا، فأنت حمقاء .

ثم سارعت الى غرفتي وكانت مجاورة لغرفتها، ولكني لبثت خلال شطر من الليل، أسمع الطفلة تبكي بدموع حرى بدلا من أن تنام، فزاد هذا الألم الساذج الذى كنت سببه الوحيد، فى حنقي على نفسي .

وهكذا كان سكان المنزل جميعا قـد وقفوا على زلتي ؛ ولقد أثار ذلك فى نفسي خجلا كدر مقامي، فصرت أهجر المنزل أياما بأسرها . وعندئذ كان النوم يعزقني فأحاول الثورة على هذه الفتنة التي تطوقني بها پامپلينا . وما كنت أومن أن نظرة امرأة ودعابتها تكفيان لنزعي من مثل مهنتي ؛ أجل كانت العناصر السامية فى نفسي تثور على هذا النير الوضيع، فأفكر فى انهيار آمالي المستقبلة، وخسران الروح، واللعنة الخالدة . ولقد هرعت فارتميت فى «مُعترف» أمام قدمي قس، واعترفت له بزلتي فى صرخات اليأس، فنصحني بشدّة وعطف، أن أعوذ بالزهد والتوبة، وأن ألوذ من غواية الفتنة برحمة الله القوية الواسعة، وأن أحتقر كل ملاذ الحس الوضيعة أشـد الاحتقار؛ فصحت بنفسي وأنا أغادر الكنيسة : أجل، سوف أنزع من نفسي الى الأبد صورة هذه المرأة الآثمة، وأطردها من ذهني بفضل الصلاة والورع كما طرد يسوع بائعي المعبد!

وحاولت جد المحـاولة مدى يوم أن أنفذ هـذه الخطة الورعة، ولكن ظهور الغـلام، رسول پامپلينا، كان كافيا لانهيار كل شيء، فهرولت الى شارع «آمور دى ديوس» أنتظر الراقصة عند باب الخان، وسمعت حفيف ثوبها على درجات السلم، وحدجتني بنظرة ساحرة ناعسة، وعلى ثغرها ابتسامة

تسفر عن اسنانها البيضاء ، فغاض فى نفسى كل ندم وكل مشروع للتوبة . وتالله لقد كنت عندئذ أبذل لاتباعها نصيبي من الحياة الأخرى . فلما انفردنا فى الغرفة العليا التى ينيرها ضوء النجوم الغامض ، تعانقنا طويلا ، وقدها يميس على ذراعى ، ورأسها يستند الى كتفى بشعره المتهدل ، والعطر يفوح من جلدها الصبوح ومن شعرها ومن كل جسمها ، حتى لقد نسيت العالم بأسره .

وهنا رفع الدون بلاشوس يديه نحو السماء وصاح : كفى . كفى ؛ فلنمر بهذا .

فقال الدون رامون بحزن ؛ أجل ! لنمر بهذا لأن هـذه الذكرى وحدها تفقدنى الرشاد ، وأشعر أنى لو رأيتها لمت فى غمر الزلل النهائى ... ففى ذات مساء ، ولم أكن رأيتها منـذ يومين ، لاحظت مذ أوينا الى غرفتها ، أنها مهمومة شاردة الذهن ، وبدلا من أن تجذبنى اليها كالعادة ، ذهبت فجلست عند باب الشرفة وأخذت تدخن .

ثم قالت لى بفأة : يا حبيبى المقدس ، عندى نبأ سيىء . فقـد شارف السوق هنا على نهايته ، وستغادر الفرقة إشبيلية غدا مساء الى غرناطة لافتتاح الموسم هنالك ؛ ولا بد من الفراق .

فعرانى الذهول ، ولم أستطع نطقا . وكنت أثناء بعدى عنها مدى اليومين السالفين ، قد ثرت كعادتى بغضا لزلتى ، وأكثرت من العزم الحسن ، ولكنى لم أتوقع قط أن يقع مثل هذا الفراق السريع .

قالت لى : أجل أيها العزيز ، بعد غد تفصل بيننا الجبال ، والله وحده يعلم متى نلتقى ! ...

وبينما كانت هى تتـكلم بلهجة هادئة واضحة ؛ كنت أنا أقطع الغرفـة مضطربا ، ولم يسعنى مع أن قلبى كان يتمزق لفكرة فراقها ، إلا أن أفكر فيما اعتزمت من توبة وورع ؛ فربما كان هذا الفراق السريع قضاء إلهيا ، وكان

خطة خفية للقدر لإنقاذى بالرغم منى ... أجل! كانت يد الله ترتفع بلا ريب في الظلمات التي غمرتني لتهديني الى طريق الخلاص؛ فما كان على إلا أن أحنى ظهرى لهذه اليد الأبوية التي تلطمني ...

ثم صاحت پامپلينا وهى تحدجني مليا : ماذا ؟ الا تجيب ؟

فغمغمت بصوت المختنق : إن قلبي كسير أيتها البنية العزيزة ؛ فقد كنا في زلتنا نمرح في السعادة، ولكن الله أراد أن يعاقبنا بالفراق .

فوثبت صائحة : آمين . ولقد تظاهرت بالهدوء لأعرف ما في قرارة نفسك، فاذا بك لا تحبني، و إذا بك تتعزى بسهولة عن فراقى! .

فقلت : انى أهيم بحبك ياپاستورا ، والله الذى يعاقبنى، يعلم وحده كم أقاسى لبعادك . لقد استأثرت بكل حبي، فمتى بعدت عنى فلن تكون أية مخلوقة اخرى في نظرى شيئا ، ولن أفكر إلا في أن أدعو الله من أجلنا، وأن أكرس نفسى خالصة له ...

فشبكت ذراعيها وقاطعتني قائلة : أجل! ... تدعو الله وتهب نفسك اليه دون أن تذكرنى . حسن جدا . فلماذا قلت لى إذا إنك تحبنى أكثر مما تحب كل ما في العالم؟ لقد سحرتني بنظراتك وألفاظك، فلما وقعت في أسرك، أخذت تهجرنى وتقتلنى، وأنه لخلق حسن لراهب، وبداية بديعة لمرسل! .

ولمعت عيناها، وغدا محياها محزنا . ثم اقتربت منى وقالت وهى تهز رأسها هزة الوعيد : ولكن حذار، فانك إذا سخرت منى، وإذا طعنت فؤادى، فسوف تذكر ذلك وسوف تندم! فكل ما تقوله عن دينك، وهيامك بالله، ومهنتك، إنما هو كذب صراح، ولست في أعماق نفسك الا أنانيا شقيا!

وكأنما غلبها الإنفعال والغضب، فارتمت من كرسيها على الأرض، وانهمر دمعها بغتة وأخذت تصعد الزفرات .

فاضطربت لبكائها، وكنت أثناء حديثها قد ندمت على قسوتى، فجثوت

الى جانبها وأخذتها بين ذراعى ، وشربت الدموع التى انحدرت على خديها .

وصحت بها : يا عزيزتى بل أنا الذى عبدك بل أنا ملكك ! ولكن ما الحيلة والقدر يفرقنا ؟ فاذا أنت لم تستطيعى أن تلغى تعهدك وتبقى فى إشبيلية ، فلست أستطيع أنا أن أغادر اشبيلية لأتبعك .

فرفعت نحوى عينيها الناعستين النديتين برقة وقالت : ما الذى يمنعك؟

فأجبت متردّدا : ولكن يمنعنى الكثير ، دراستى ، وعهودى لرؤسائى ، وما قررت من نذور .

قالت : ألم تقطع لى العهود أيضا ؟ ثم أليست هذه العهود مقدّسة كتلك التى قطعتها لرجال الكلية ! ألم تقسم لى بأنك تحبنى أكثر من الكنيسة ومن مهنتك ؟ فاذا كنت رجلا وفيا ولم تكن غادرا ففِ بوعدك وتعال معى !

وكنت من الحداثة ، وكان الحب يعميني حتى لا أفرق بين عهد قطعته مستنيرا ، ووعد ألقيته فى حمى الشهوة . فاضطربت لأقوال پاستورا فلوريس ، وخارت قواى . ولاحظت هى ذلك منى ، فزادت الحافا ، وبعد اعتراضات وجلة دحضتها بقوة ، قبلت أن أتبعها الى غرناطة . ولما قررت ذلك العزم نهائيا صفقت طربا ، وأخذت ترقص فى الغرفة ، ثم ارتمت على صدرى ، وغمرتنى بملاطفاتها القاهرة ، وصاحت خلال ألف حماقة : سوف ترى يا حبيبى كيف نغدو سعيدين ، وسأجعل لك من غرناطة جنة عدن !

وتقرّر أن ألحق بفرقة الراقصين فى نحو الساعة العاشرة مساء من باب سان فرناندو ، وأن أركب بغلا تهيئه لى پامپلينا ، وأن أرافق المركبة التى يتكدس فيها أفراد الفرقة أثناء السفر . وفى صباح اليوم التالى قمت بأهبتى ، فاشتريت ثيابا استبدلها بثوبى الدينى ، وفى المساء حبست نفسى فى غرفتى لأغير ملابسى ، فارتديت ثياب فلاح أندلسى ، وخرجت من غرفتى خلسة حين اعتقدت أن الكل نيام ، ولم أخبر أحدا بعزمى اتقاء الأسئلة المحرجة ،

وحتى لا أحمــل بالأخص على الإفضــاء الى مانوليتا بسرى المؤلم ؛ ولكنى ما كدت أبدو فى الرواق حتى رأيت الفتاة أمامى، وقد خرجت من غرفتها، وأتت بصرخة خفيفة حينما رأتنى فى أهبة السفر .

فقالت بصوت مرتجف : أهــذا ممكن يا دون رامون ؟ فأين تذهب فى تلك الساعة ؟

فأجبت : صــه يامانوليتا ، فانى سأرحل لأيام، وسأذهب الى بنيافلور لقضاء بعض المصالح الهامة .

فخفضت رأسها بهيئة ريب وقالت : أتذهب الى بنيافلور فى هذا الثوب يادون رامون ؟ انك تخدعنا وتسخر منا ، ألا انك ذاهب الى مكان آخر، وان تعود !

قلت : بل سأعود يامانوليتا ؛ فقولى لوالدتك إنى سأكتب اليها عمـا قليل، ولكن بالله لا تؤخرينى فان وقتى ضيق .

فاغرورقت عيناها الزرقاوان بالدمع ، ولم تأت بحركة لمنعى ، ولكنها انتزعت بعنف من صدرها، القلب الفضى المطعون بالسهام الذى تحمله دائما، وأوثقته بكمى قائلة بصوت أجش :

احتفظ به ذكرى منى، فقــد يحفظك من الشر ... فاذا أصابك الشقاء رغما من ذلك ، فعد الينا فتجد غرفتك دائمـا وأصدقاءك المخلصين . وداعا يادون رامون، ولتحمك العذراء !

ثم أوت الى غرفتها، وفررت أنا من المنزل خافض الرأس .

ووجدت عند باب سان فرناندو مركبة البريد مشحونة بالمسافرين متأهبة للسفر، ولمحت على مقربة منها پاميلينا وهى بذاتها ممسكة بزمام البغل الذى أعدّ لركوبى .

فلما رأتنى لمعت عيناها وصاحت : حمدا لله، فأنت رجل الوفاء .

ثم ساعدتني على ركوب البغل، ووثبت الى العربة بجانب السائق قائلة له : والآن سر على بركة الله .

وسرنا نقطع الطريق المغبر في ضوء النجوم .

كانت هذه الرحلة المتقطعة خلال أبدع مروج الأندلس، والى جانب باميلينا، من أبهج وأنق المسرات التى ذقتها؛ وكنا نسير الليل والضحى، ونقف ظهرا بإحدى القرى حتى الغروب . وكلما جزنا مفازة صعبة نزلت باستورا فلوريس لتسير بجانبى، ويدها على ركبتى، فكان السير الى جانبها فى سكون الليل خلال الأدغال، سعادة . وكان الصبح البديع يتنفس عن حقول خضراء مزهرة تشرق عليها أشعة الشمس الأولى، فأشعر بقلبى يتفتح، وأشد على يد باميلينا، وأتمنى لو طال السير على هذا المنوال الى أجل غير مسمى .

وإنى لأذكر ما آنسته من سحر وسعادة ذات ضحى وقفنا فيه بمرج شنيل (١) فى ظاهر لوشة، وحلت العربة وأطلقت البغال للمرعى، وذهب السائق والمسافرون الى القرية المجاورة لشراء الطعام . أما نحن فجلسنا فوق العشب الجاف على ضفة شنيل نستمرئ سعادة الخلوة فى هذه الطبيعة الممتعة، وتمددت باميلينا كالنشوى؛ تستنشق الربيع المبدع ملء رئتيها، وتغنى وتقطف الزهر من حولها، ثم وثبت الى وعانقتنى بعنف وقالت : أليس ذلك بديعا يا مقدس؟ ألسنا نتبادل الحب مهما حدث ؟

أجبت : بلى وأبدا .

ثم انهمرت القبلات .

ولكن وأسفاه، لقد كانت آخر لقيا السعادة الخالصة .

فكلما اقتربنا من غرناطة، غاض مرح باميلينا وزاد صمتها واكتئابها؛ ولما صرنا فى ظاهر المدينة نرى أنوارها ذات ليلة، غادرت باميلينا العربة،

---

(١) النهر الذى تقع عليه غرناطة وله فى تاريخ الأندلس ذكريات خالدة .

وجاءت لتسير الى جانبي ثم قالت بلهجة تردّد :

— قد وصلنا يارامون ، فعليــك أن تقيم فى « بورتاريال » ، فى منزل مفروش ، وسأخبرك أينما وكيف نلتقى متى قررت .

فصحت ذاهلا : كيف؟ ألست أقيم اذًا معك ؟

قالت : هذا مستحيل أيها الحبيب ، ففى غرناطة يجب أن أكون أشدّ احتياطا ، ولست أتمتع بمثل الحرية التى تمتعت بها فى إشبيلية لأن ...

فصحت بلهفة : أكمل ؛ لمـاذا ؟

أجابت : لأن زوجى يقيم فى غرناطة .

فصحت : زوجك ! وهل أنت متزوجة ؟

وخيل لى أن أرض المـرج « لاثيجا »(١) تميد تحت قدمى ، وان غشاء أسود سـقط من السماء حولى — أجل ! متزوجة ! — فلم أكن قـد خرقت عهدى ونذرى ، فقط لأعيش مع راقصة ، ولكنى أضفت الى ذلك إثم الزنا ، وقد فررت من إشبيلية لكى أقف على ذلك .

قالت : أجل ، يامقدسى ، فانا متزوّجة ، وقد كنت ستعلم بذلك عاجلا أو آجلا ، وانى آثرت أن تعلم الحقيقة منذ اليوم . ولكن يالله لا تبد مثـل هـذا الكدر ولا تهتم ، فان سبستيان باكو رغم كونه زوجى ، ليس إلا نذلا ، يكبدنى أجرا غاليا عن الحرية التى يتركها لى .

فلم أفهم جيـدا ما قالت ، وانهلت عليها بالأسئلة وقد اضطرمت مخيلتى لمـا سمعت ، فكشفت لى خلال دمع الحنق والخزى وتأكيدات الحب كل ما يعتور حياتها الزوجية من العار والإثم . وخلاصة قصتها أن أباها كان صاحب بهو للرقص ، فزوجها فى الخامسة عشرة من سـبستيان باكو ، وهو سائق عربة للبريد تسير بين غرناطة ومالقة ؛ ولم يحجم باكو عن أن يستغل

(١) الوادى الجميل الذى يقع بظاهر غرناطة ؛ وقد أطنب شعراء الأندلس فى التغنى بجماله .

جمــال زوجته ، فباعها منذ العام الأول لثرى انجليزى كان يزور الحمراء ، واستمر فى تلك الحرفة الشائنة ، يغمض عينيه عن أهــواء پامپلينا وخيانتها ، بشرط أن تنقــده ما تربح ، على أنه كان شــديد الغضب اذا عرض شرفه الزوجى للانتهاك دون ثمن .

ثم قالت پاســتورا فلوريس : وهو لا يعيش معى ، ولكنى حين أحل فى غرناطة ، يطلق الجواسيس فى أثرى ، فاذا عرف أنى أحبك يامقدس ، فانه لا يحجم عن الكيد لك واستدراجك الى كمينه ، فعلينا بالحذر اذا ، ولا تبد علنا أنك تعرفنى ، وهذا لا يمنعنى من حبك أيها الحبيب ، فانى مجنونة بهواك . ولقد كنت أموت لو بقيت فى إشبيلية ، بل انى أعبدك وأقسم لك أننى لن أكــون لغيرك منذ اليوم . أما ذلك الرجل فانى أبغضــه ، وسأنتقم منــه ذات يوم ! .

ثم تناولت يدى وغمرتهما لثمــا ، ثم عادت الى المركبة ، وبعد ربع ساعة دخلنا غرناطة ، وتأخرت عن مركبة البريد ، وجزت وحدى حزينا الى حى «بورتاريال» حيث المنزل الذى عين لإقامتى .

ولم أعلم شيئا عن پامپلينا فى الأيام الأولى لإقامتى ، فاستسلمت إلى نفسى والى تأملاتى المحزنة ، ولبثت عاطلا وحيدا فى تلك المدينــة التى لا أعرف فيها أحدا ، وغدوت كالشريد الضائع الذى قضى عليه أن يحيا حياة منبوذ ، وشعرت أننى أصبحت تحت رحمة الجزع والمصادفة الغاشمة . ولم يكن ذلك لأسباب مادية لأننى حصلت قبل مغادرتى لإشبيلية على مبلغ كبير من المــال ، أستطيع أن أعيش به طويلا ، ولكن ريب المستقبل ، واعترافات پامپلينــا المثيرة ، ملأتنى اكتئابا أسود كان ينغص على حتى جمال الطبيعة فى تلك البلاد الرائعة ، فى الوقت الذى كان يشملها الربيع المزهر بأبدع صورة .

وبادرت منــذ الصباح بصعود مرقى غماره ، وجوب الأدغال البديعة

التى تحجب تل الحمراء ، وقد أسبغ الربيع عليها خضرة ساحرة ، واكتظت بمئات البلابل المغردة ، ولمعت الأزهار بألوانها الزاهية على ضفاف الماء ، وعكفت أنفق ساعات طويلة فى كورة الأسود ، وتحت حنيات بهو بنى سراج ، فأجد أينما سرت نوافير الماء والإصباح الندى . ولكنى ، رغم بدائع الحمراء ، كنت للأسف ، أشعر أنى فريد ، تفصلنى عن پامپلينا مئات المراحل ، وكنت أذهب أحيانا للجلوس فى مشرفية الحدائق التى تمتد حول برج ألمرية ، وحيث يمكن الإشراف على مرج غرناطة ، وأرسل نظراتى المكتئبة من خلال الورود ، إلى المدينة ، وإلى السهل الأخضر المزهر ، وإلى آكام الجبال الزرقاء . وكلما ذكرت اعترافات پاستورا فلوريس المؤلمة ، أشعر بالدمع يملأ عينى لرؤية هذه البدائع التى كأنما غادرتها السعادة حين رؤيتى ، فأبكى حتى الجريح إلى الموت ، كما بكى أبو عبدالله[1] ، حينما ألقى من آكام البيرة نظرة الوداع إلى مملكة غرناطة يوم نفى منها الى الأبد .

وفى ذات مساء ، حينما عدت إلى منزلى ، ألفيت صبية صغيرة تحمل الى من پامپلينا طاقة من الزهر ورقعة ، وقالت لى : إن الآنسة سوف تنتظرك بالقرب من انجيلوس فى روضة الصيف على ضفة شنيل .

فذهبت فى الموعد المحدّد ، وألفيت پامپلينا ، فأمسكت بيدى وشدّتها إلى صدرها بحنان ، وجذبتنى إلى ممشى مظلم قائلة : آه أيها العزيز ، يخيل الى انى لم أرك منذ أعوام . فان الوغد باكو فى غرناطة ، وقد جاء يقترح على ما تسميه نذالته صفقة حسنة ، فاستقبلته كما أستقبل كلبا ، فغادرنى حانقا ، وأطلق عيونه فى أثرى . واذا فالواجب يا مقدس أن تتذرع بالصبر والحكمة . هذا ما أردت أن أقوله لك الليلة إلى جانب عناقك فوداعا ! ولا تستوحش ، فعما قريب أجد منزلا أمينا نلتقى فيه طويلا .

---

(١) السلطان أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس الذى سقطت على يده غرناطة .

والواقع أنه لم تمض بضعة أيام على ذلك حتى جاءت الصبية تخطرني ان پامپلينا ستذهب عقب التمثيل الى منزل معين فى حى " بنيا " تقودنى اليه الصبية .

وكانت الساعة العاشرة مساء حينما غادرت منزلى مع الصبية . وكان حى بنيا يقع فى مواجهة ادغال الحمراء ، وكان الليل مظلما ممطرا ؛ فنبعت دليلى متعثرا فى المماشى الندية ، ووصلنا بعد أن جزنا صفوف الشجر الى ممشى فيه منزل فريد حقير الظاهر ؛ لا يبدو فى نافذته الوحيدة ضوء ما . وهنا قالت الصبية : لقد وصلنا .

ثم قرعت الباب بعنف وأخذت تنظر من خلال فتحة الباب المشبكة بالحديد . وبعد برهة جاء شيخ من وراء الباب يحادثها من خلال الفتحة الصغيرة ، فلما اطمأن أدار المفتاح فى القفل ببطء ، وفتحت لنا امرأة تحمل مصباحا نحاسيا ، وأشارت لى بالدخول كما أشارت للصبية بالانصراف . وصعدت أتعثر فى أثر المرأة سلما رطبا ، ودخلت بهوا مقبيا مظلما ؛ وكانت ثمة فتاتان ترقصان ، فى حين كانت عجوزان تجلسان القرفصاء أمام المدفأ تستدفئان .

فدهشت اذ لم أر پاستورا فلوريس ، وخشيت أن أكون قد وقعت فى كمين . ولكن إحدى الراقصتين وقفت وأمسكت بيدى ضاحكة ، وفتحت بابا صغيرا فى نهاية القاعة وأدخلتنى فى غرفة مجاورة أكثر نورا ، وهنالك رأيت پامپلينا تجلس على أريكة عتيقة وهى تقشر برتقالة .

وكانت ترتدى نفس الثوب الوردى الذى كانت ترتديه يوم رأيتها لأول مرة فى آمور دى ديوس ؛ ويضم قدها نفس المطرفة البيضاء ذات الزهر الأحمر والأصفر ، ويزين شعرها الأسود زهر أصفر .

ولما دخلنا ابتسمت الفتاة من جديد وقالت : عما مساء ؛ ثم ارتدت وأغلقت علينا الباب . أما پامپلينا فنهضت ؛ وألقت ذراعيها حول عنق

وصاحت خلال العناق :

ياعزيزى المقدّس ومالك قلبي ، لقد ظفرت بك أخيرا ، وفى وسعى أن أتمتع بك كما أهوى !

ثم جذبتني الى الأريكة ، وألقت بجسمها المرن على جسمى ، وألقت برأسها على كتفي وقالت : لقد قضيت ياعزيزى أياما محزنة فى غرناطة ، ولكنى سوف أعوضك وسننعم بأوقات حسنة . فان الفرقة لا تمكث هنا كثيرا ، وسنذهب بعد شهر الى مرسية ، وهناك نكون طليقين كالهواء .

ثم أخذت تهوى على بالقبلات وهى دهشة من ردى لمداعباتها بشيء من الفتور . ومع أنى كنت سعيدا بلقائها ، فقد شعرت باضطراب ، وجزع غامض كان يشل عزائمى . وكنت رغما منى أفكر فى زوجها السائق ، وكانت صورته المكدرة ترتسم كل لحظة أمام عينى .

فقالت : هيا واستبشر ، ولننس الأوقات المحزنة ، ولننعم بهذا الليل الذى نملكه ، وليحيي الحب .

ثم ضاعفت عناقها ، فنفذت الىّ حرارة جسمها ، وصعد شذا عطرها الى رأسى ، فأغمضت عيني برفق . وقالت وهى متنهدة : شد عناقى ولاتكدح ذهنك ، فإنا هنا بمأمن من ذلك الوغد باكو ...

وهنا صاح بفجأة صوت رجل مختنق : وهل أنت واثقة من هذا ؟

فنهضنا مروعين ، فألفينا الباب الصغير قد فتح ، ونفذ منه رجل لم يكن غير السائق .

فأدركنا أنه قد غدر بنا ، وأنه استطاع أن يرشى أصحاب المنزل .

فوقف يرمقنا وهو مستند الى البـاب المغلق ، وما زلت الى اليوم أراه بجواربه البيضاء ورأسه العارى ، وصدره القوى ، وكتفيه العريضين . وكان يرتدى صديرية زرقاء ، و يضع فى نطاقه خنجرا يبدو مقبضه النحاسى ، وعلى

ذراعه الأيسر معطف بلنسي .

ثم قال ساخرا : انك تزاولين يا حبيبتي حرفة شريفة .

فحدقت به پاستورا فلوريس بجرأة وقالت : ماذا تريد منى ؟

قال : أريد أن أقول لك كلمتين .

قالت : قل اذا وانصرف .

قال : مهلا ، ولا تعجلى فى طلب الخلاص منى ، وإن غيرى ليغضب ، وليبطش بهذا الفتى الذى خاطر بحياته لرؤيتك . أما أنا فانى رجل طيب ، وأقنع بأن أكرر ما اقترحته عليك الليلة السابقة . فهل تريدين الذهاب معى غدا الى مالقة ؟

فامتقعت پاستورا غضبا ، وعضت شفتيها ، وأمسكت بذراعى بجفاة وقالت : أتسمع يا رامون ؟ ليس يكفيه أن باعنى ثلاث مرات ، بل يريد العود الى تجارته الشائنة . اذهب أيها الوغد ، فابحث عن غيرى لعملائك ...

فدنا باكو منها مهددا بقبضته ، وهو يقول : حذار ، فلو فهت بكلمة أخرى لقضيت عليك أنت وخليلك .

وكنت بلا سلاح ، ولكننى تأهبت للدفاع ، وأخذت أبحث ببصرى عن شىء ألقيه على رأس السائق ، فاذا بعينى تقع بجفأة على مقبض الخنجر الذى يضعه فى نطاقه ، وإذ دنا مهددا ، وثبت نحوه بجفأة ، وانتزعت الخنجر من نطاقه فى لمحة البصر ، ثم رفعته فى وجهه منذرا ، فصاح صاخبا وارتد مذهولا .

وصاحت پاميلينا : آه ، لقد ألفيت استاذك أيها النذل الخبيث .

فصاح باكو : سوف أعود لاقتناصك أيتها الملعونة ، وأحمل البوليس ليقبض عليك ويلقيك مع نظيراتك أيتها الملوثة فى حمأة الطين والقذر . وهنيئا لك أيها الفارس بخليلتك ، فقد تعاقب عليها العشاق من كل فج ...

فاضطرمت پاميلينا غيظا إذ ينهمر عليها أمامى هذا السيل من الإهانة ،

وألقت نحوى نظرة سوداء ملتهبة، وضربت بقدمها الأرض، ودفعتنى بيدها وهى تصيح بغضب :

— اقتله، ألا فاقتله !

فدوى الطنين فى أذنى، وصعد الى رأسى لهب الغضب فأعمانى، فوثبت الى باكو وأغمدت الخنجر فى صدره .

فبدرت منه صرخة خفيفة، وارتمى بوجهه على الأرض، والدم ينفجر منه .

فوثبت النسوة من الغرفة المجاورة على صوت الهرج، وفتحت إحداهن الباب، ورأت الجثة، وارتدت مروعة صائحة . أما أنا فامتقع وجهى، وسقط الخنجر من يدى، وتخاذلت ساقى . فهزتنى پاميلينا بعنف وقالت بصوت موجز :

— سوف تأتى الشرطة هنا، فيجب ألا تبقى، فهيا وأسرع .

ثم تخطت الجثة بلا اكتراث، وجرتنى وأنا أضطرم روعا، وصعدت عدّة درجات وفتحت نافذة تطل على الحقول، وقالت : — أنج بنفسك !

فأمسكت بيديها قائلا : وأنت؟ .

قالت : ان النافذة ضيقة جدا لا تتسع لثيابى . ولكن لا تجزع من أجلى، ففى وسعى أن أنقذ نفسى . اذهب فانتظرنى فى إشبيلية، فى حى تريانا .

قلت معتزما ألا أتركها : لست أستطيع الذهاب دونك .

قالت : لا تكن طفلا، فلست أخشى أنا شيئا، أما أنت فان وجدت هنا، فان مآلك السجن بل ما هو أشنع . اذهب وسوف نلتقى فى تريانا .

ثم أعطتنى قبلة أخيرة ودفعتنى نحو الكوّة. وكانت الأصوات والخطوات الثقيلة قد أخذت تدوى لدى الباب . وساعدتنى على اقتحام الكوّة، فلما

صرت خارجا قالت لى :

— اركض بكل قواك والوداع !

فوقعت على أرض رطبة ، وركضت نحو الحقول ، فلم تشرق الشمس حتى كنت بعيدا عن غرناطة . وكنت لحسن الطالع أحمل كل نقودى معى، فاشتريت فى الطريق بغلا ، واخترقت طريق الأندلس ؛ أسافر ليلا ، وأختفى نهارا فى زوايا القرى . وبعد أسبوع من الإعياء لحت أخيرا فى الأفق أبراج إشبيلية . وجزت الى حى تريانا ، ونزلت بالمنزل الذى وعدت پامپلينا أن توافينى اليه .

وفى مساء ذلك اليوم خرجت تحت جنح الظلام ، وهرولت الى حى «دادوس» وأخذت أحوم حول منزل السيدة جوتيرز حتى رأيتها تخرج مع أحد زملائى القدماء ذاهبة للنزهة كالمعتاد . وكانت مانوليتا تبقى عندئذ لحراسة المنزل . فلما غابا عن نظرى ، قرعت الباب ، فظهرت مانوليتا ، وامتقعت حين عرفتنى وصاحت : لقد عدت يا دون رامون فالحمد لله ؛ وسوف تجد غرفتك كيوم رحيلك ، وسوف أعدها لمقامك .

فقلت بحزن : كلا يا مانوليتا ، فلست خليقا بعد بأن أعيش مع الشرفاء ولن أبقى هنا غير بضع دقائق . فهل أنت وحدك فى المنزل ؟ .

قالت : رباه فماذا حدث ؟ .

قلت : لقد قتلت رجلا ، وأرغمت على الاختفاء .

فشبكت يديها ، وارتدت ذاهلة مذعورة .

وقلت : لقد رأيت أنى أروعك ، فاسمحى لى بالصعود لكى أتناول ثيابى الدينية فأتنكر بارتدائها .

فأشارت الى المصباح ، فتناولته ، ورأيت الغرفة التى عشت فيها سعيدا . وهناك غيرت ثيابى بسرعة . وحزمت ثيابى الأخرى التى كانت لاتزال ملوثة

بدم باكو، ونزلت الى الفناء حيث كانت مانوليتا، وقلت لها: الوداع الى الأبد وصلى من أجلى يا بنية .

فقدمت الى جبينها، فطبعته وجلا بشفتى الآثمتين، ولذت بالفرار .

وعدت الى تريانا ، واختفيت هنالك، وأنا أنتظر فى لهف المحموم قدوم پاستورا فلوريس . ولكن الأيام مضت ولم تأت . فساورنى جزع قاتل . وفى ذات ليلة رأيت فى فناء المنزل عازفا من الذين رأيتهم فى بهو آمور دى ديوس وسافروا مع فرقة الراقصين الى غرناطة . فسألته طويلا حتى أعرف مصيرى . فعلمت منه أن پامپلينا قد بقيت فى غرناطة، وأنها نسيتنى، وأنها اتهمت بالاشتراك فى مقتل باكو فالتجأت الى حماية مساعد الحاكم، فعاونها على الخروج من المشكل وغدت له خليلة .

ثم قال العازف باسما : ماذا تريد يا سيدى ؟ فقد كان الضابط فتى جميلا، وقد أسدى اليها يدا كبيرة، وليست پامپلينا ممن يخان بالوفاء .

ولقد كان نذير الخلاص! فقد غدرت بى المرأة التى ضحيت من أجلها بكل شىء، وأثقل ضميرى بمقتل رجل، وحطم مستقبلى، وصرت عارا على نفسى . لهذا عولت على أن أتخلص بأسرع فرصة من حياتى النكدة . فغادرت إشبيليه ، وتطوعت فى إحدى العصابات الكارليسة التى تحارب فى سيرامورينا . وكان الزعيم كابريرا فى ذلك الوقت يحارب فى منطقة بالنسية فلحقنا به ، ورحلت بأمره الى ميدان "الإيبرو" وقاتلت قتال اليائس المستميت، راغبا فى الموت . ففى موقعة شنيا أصابتنى رصاصة فى صدرى وأملت الموت ، ولكن الله أباه على، فعولجت وشفيت ، وسرت الى برغة فى الوقت الذى فر فيه كابريرا مع فلول جنده الى الحدود الفرنسية، بعد أن خاب كل أمل . وهمت أياما على وجهى فى مفاوز "البرنيه" حتى وصلت الى بربنيان وقد كدت أهلك جوعا وضنى، وهأنذا» .

ولقد أثارت قصة الدون رامون أشجانى ، حتى انى أخرجت رأسى من وراء الستار لكى أحسن السمع ، ولكن كتابى سقط من على ركبتى حينما أتلعت بعنق ، فلمح الإسبانيان فى الحال وجودى . وقطب الدون رامون حاجبه وقال : من هذا الصبى ؟

فأجاب الأب بلاشوس : هو جار لا أهمية له ، اذهب أيها الصبى واتركنا فسوف أتكلم مع السيد فى شؤون خطيرة .

فخرجت آسفا . ولم تتح لى فرصة لرؤية الدون رامون مرة أخرى مع انه أقام فى ڤيلوت . وعند انتهاء الإجازة سافرت أسرتى ، ولم أعد الى البلدة إلا بعد خمس عشرة عاما من عام ...

وهنالك وجدت الدون بالمينو بلاشوس يقيم دائما عند جيراننا القدماء . أما الدون رامون ، فانه لم تمض ستة أشهر على إقامته فى ڤيلوت ، حتى توفى مصدورا فى المستشفى . ولقد رأيت قبره وأنا أجوب المقبرة ، وقد غطته دغلة من العشب . وكان اسمه فقط منقوشا على الحجر ، ولكن الدون بالمينو أمر أن ينقش تحته الأنشودة الأندلسية القديمة :

« كان أوّل أسباب ضياعى امرأة .

« ولا ضياع فى الدنيا ياحبيبة القلب .

« أجل لا ضياع فى هذه الدنيا .

« لا يأتى من النساء »[1] .

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Bigarreau .

صحـــف

من

فرانسوا كوبيه François Coppée

فرانسوا كوپيه

كوپيه، شاعر وكاتب مسرحي وقصصي كبير. ولد بباريس سنة ١٨٤٢، وتوفى سنة ١٩٠٨. وكان لجهوده ونفثاته القوية، أثر كبير فى تطور الأدب الفرنسي فى أواخر القرن الماضى. بل ربما كان الأثر الذى خلفه كوپيه، بنماذج شعره وقصصه وطريف خلاله، أعمق الآثار التى خلفها أقرانه ومعاصروه. ذلك لانه استقى وحيه من آلام التواضع والبؤس، ونقل صوره عن أنفس المنكوبين والمعذبين، ووهب آثاره للسواد الأعظم فى مجتمع ما زالت الآلام أقوى ظواهره، والبؤس نصيب معظم بنيه. لهذا كان أثره بعيد الغور فى أذهان المعاصرين، والخلف جيل اليوم.

ويرجع ذلك الى طبيعة البيئة التى نشأ فيها كوپيه، والظروف التى أنفق فيها أعوام حداثته وفتوته. فقد نشأ فى مهاد البأساء، وربى فى معترك من الفاقة والآلام والقناعة. وكان أبوه موظفا صغيرا فى وزارة الحربية، وكان له من الولد غير فرانسوا ثلاث بنات كانت إحداهن آنيت التى غدت فيما بعد أحب العالمين الى أخيها الشاعر. وكانت الأسرة تعيش فى فقر مرهق. وتلقى فرانسوا دروسه الأولى فى مدرسة سان لوى، ولكن أباه أحيل على المعاش غير بعيد، ثم مرض ولزم الدار، فاشتدت الفاقة والحاجة بالأسرة، واضطر فرانسوا أن يترك المدرسة دون أن ينال أية درجة أو شهادة، وأن يبدأ العمل لغوث الأسرة وعولها؛ فالتحق موظفا صغيرا بوزارة الحربية واحتمل على كاهله أعباء الأسرة مكان أبيه المريض؛ ولبثت الأسرة تعانى شظف العيش ردحا آخر، حتى أن كوپيه كتب فيما بعد أيام مجده، الى سائلة له عن أيام فتوته يقول: «ما ربحت أربعين فلسا حتى السابعة والعشرين».

على أن قبسا من السرور والأمل كان يضىء هذه الأعوام الأولى التى

قضاها الشاعر فى معترك من الآلام والحرمان . فقد كان يقرض الشعر ، وكان يجوب أنحاء باريس . اكتشف الشعر وعالجه ، ولكن فى نفس البيئة والظروف التى نشأ فيها . فكان البؤساء والمتواضعون نماذجه ، وكانت حياتهم وآلامهم وحيه ومستقاه . ذلك لأنه لم يعرف سواهم ، ولم ينعم بغير صحبتهم ، واليهم يدين ببوادر عبقرية لبثت مخلصة لهم طول حياته . ثم كانت جولاته فى أحياء باريس ، مسرته الثانية . وكان كوپيه يعشق المدينة الكبرى التى ولد وترعرع فيها ؛ وكان يأنس لذة كبيرة فى جوب أنحائها ؛ أزقتها وأعماقها وحدائقها ؛ وكان يعنى بأقل مناظرها وتفاصيلها ؛ وتمثل فى مخيلته المضطرمة كل بدائعها وصغائرها ، وكل بوادر نعمائها و بؤسها . وكم له بعد ذلك من ذكريات لذيذة يستعرضها من هذه الجولات العزيزة ، حتى أنه ليذكر طروبا يوم كان يذهب الى « المسرح الفرنسى » فيخوض الجموع الحاشدة ، وفى جيب ثوبه المدرسى قطعة من « السوسيس » ليشهد الحفلة المجانية ، فوق المسرح الذى ازدهر فوقه مجده بعد ذلك .

وكانت هذه الجولات من أسباب الوحى لشاعر الغد ، بل كانت وحى مجده الأول . فإن الشاعر يعترف لنا أنه كان فى إحدى نواحى باريس ثمة نافذة يراها وهو يتنزه فى إحدى الحدائق العامة ، فلا يستطيع أن يراها دون أن يخفق قلبه . ذلك لأن النافذة الصغيرة كانت اذا فتحت تسفر عن رأس أشقر يبدو بين الخضرة والزهر ، وقد يبتسم له أحيانا . على أنه يقول لنا « إنها لم تكن مع ذلك حسناء ، ولا ناعمة ، تلك صاحبتى الأولى . وقد كانت الرواية قصيرة المدى ، ولم أشعر خلالها بسعادة ، بل اختتمت فى نكد . أما الذى أحببته فيها ، فإنى أراه اليوم ، وقد كان خيالى ، ومُثلى » . هذه النافذة الصغيرة ، ذات اللحظ الأشقر ، هى التى أوحت بلا ريب الى كوپيه أول بدائعه المسرحية « الذاهب » Le Passant ، التى ظهرت سنة ١٨٦٩ ،

فكانت أول حجر فى صرح مجده ، وبطلها فتى يرتدى السواد هو كوپيه نفسه يضطرم بأهوائه ونزعاته . فطارت شهرة الشاعر الفتى يومئذ ، واحتفلت بظفره أندية الأدب والشعر . وأعقب ذلك بعدة مجموعات شعرية قوية مثل : Poèmes modernes, Intimités, Olivier وغيرها .

وتألق نجم كوپيه سراعا ، ولبث حينا نقادة مسرحيا لصحيفة «لاپاترى» وفى سنة ١٨٧٨ عين أمينا للمحفوظات فى مسرح « الكوميدى فرانسيز » ، فلبث فيه حتى سنة ١٨٨٤ ، أعنى الى العام الذى ظفر فيه بوسام الأكاديمية الفرنسية وانتظم فى سلك الخالدين . وعندئذ خاض غمار السياسة ، وانضم الى الحركة القومية العنيفة التى كانت تخاصم السامية يومئذ ، ونهض لمحاربة دريفوس وأنصاره أيام محنته ، وكان من أركان « مجمع الوطن الفرنسى » الذى أدى فى هذه الاضطرابات دورا لا يجحد . وأخرج فى ذلك الحين أروع قصصه المسرحية : « مدام دى مينتنون » Mme de Maintenon «اليعقوبيون» Les Jacobites ، «فى سبيل التاج» Pour la Couronne ؛ ثم عالج القصة الصغيرة فكتب منها عدة مجموعات ساحرة مثل : Contes en Prose, Vingt Contes nouveaux, Contes rapides, Longues et brèves ؛ وعالج القصة الطويلة أيضا (الرواية) فكتب Toute une jeunesse « فتوة باسرها » ، وفيها يصف حداثته وفتوته فى شخص بطلها «أميديه» . وفى سنة ١٨٩٦ أخرج كوپيه أعظم آثاره القصصية : «الجانى» Le Coupable ، وهى قصة قوية مؤسية لا تملك دمعك عند تلاوتها فى مواضع كثيرة ، وفيها يصف كوپيه ما يسميه جرائم الآباء على الأبناء ، ويصورها فى حياة دعى مسكين تركه أبوه «الجانى» لأهواء القدر تعصف به ، حتى ترعرع وشب فى مهاد الإثم والجريمة ، وحتى ألقت به المقادير ذات يوم الى محكمة الجنايات ، فاذا بالمدعى العمومى ، الذى عهد اليه بإقامة الأدلة

على جرم « لكرتيان فورچا » (بطل القصة) انما هو أبوه، واذا بذلك الأب يذهل القضاة والنظارة بإعلانه أنه هو « الجانى » الحقيق، ويقص قصة الظروف التى عرف فيها أم هذا الولد الشريد، وتركها مع ولدها ثمرة هواه، ألعوبة فى يد القدر . وفى قصة «الجانى» يصل كوپيه الى الذروة فى تصوير مصائب البؤس وآلامه المستفيضة ، بأسلوب يذيب الفؤاد . وهذا هو خير مافى تراث الشاعر الكبير، الذى لبث بعدظفره، وفخاره، ونعمائه، فى أخريات حياته ، يسرح بصره دائما حيثما بسط البؤس حجابه، فى تلك المهاد المظلمة التى تغص بها أزقة باريس وأغوارها، وحيثما قضى أعوام حداثته وفتوته، يشعر بنفس الآلام التى يشعر بها أولئك الذين يقنعون من الحياة باسمها .

وهذا الحنين الى البؤس، هو الذى أشاد بذكره أصدقاء فرنسوا كوپيه يوم احتفلوا بمرور العشرين على وفاته منذ نحو أربعة أعوام . ويومئذ وجه صديقه القديم موريس روستان الى ذكراه خطابا مؤثرا يقول فيه :

«عشرون عاما مضت على رقدتك، ولكن اسمك مازال يدوى فى ذاكرة الناس بأشد مما تدوى أسماء أوفر رنينا من اسمك . ذلك أن جمهرة كبيرة من الشعراء لاتنتسب الا الى الآداب، أما اسمك فانه ينتسب الى عالم القلب الذى لا يقف امرؤ على أغواره . ولله ما أسعد ذلك الذى يستطيع، لعشرين سنة من موته ، أن يوحى من الحنان أكثر مما يوحى من الاحترام ! فقر عينا أيها الصديق القديم فليس يسيرا أن ينفذ المرء الى ذكرى البؤساء . وليحى القصص الذى بكتك فيه جنى (احدى بطلاته) ! أن أولئك الذين لا يصفون الشعر الا ببساطة مشاعرهم، لأكثر قوة على لفظ الجمال الزائف ...» .

وتوفى الشاعر الكبير فى مايو سنة ١٩٠٨ ، بعد أن بعث الى أذهان عصره، أسمى وأعمق آيات الإنسانية والحنان والحب .

زلة شـــباب

كان هنرى لوك يخترق حديقة اللوكسمبرج ، متجها من سان چاك حيث يسكن فى غرفة فى السطح ، الى شارع رجار حيث يسكن الكونت دى ڤَنْدِىْ . وكان شهر أبريل قد كسا الحديقة بأوراق ناعمة وأزهار نضرة . وكانت الريح قارصة ، والسحب قاتمة مثقلة بالمطر تشق السماء بسرعة ، ولكن السماء كانت تسفر مع ذلك عن بقع زرقاء صافية . وكانت الشمس تبتسم فى فترات متقطعة ، فاترة تبشر بمقدم الربيع .

وما كانت هذه الأصبحة التى يستمرئها الشيوخ الكسالى لتروق فتى ذا عزة ، فقيرا رث الثياب كهنرى لوك . ففى الشمس الوضاءة كانت ثيابه تبدو أشد رثاثة ، وقفازه أشد قذارة ، وخرق حذائه أشد ظهورا . وكان يقول لنفسه ان ليس فى هيأته من الحشمة ما يليق بالقصد الذى يسعى اليه ؛ وكان يشعر بشجاعته تخور ؛ فسوف يرى فيه المسيو دى ڤندى الذى قدم اليه بحرارة ، بلا ريب ، أفاقا شريدا ، وسوف يصرفه بعذر من الأعذار . ولكن لا ، فما أبدع منصب يدر عليه ألفا وثمانمائة فرنك مقابل عمل بضع ساعات فى اليوم ، ويغمره بالرخاء والبسطة ، ويمكنه من العودة الى الدرس لتحصيل الليسانس والعالمية . ولكن لا ! فان النحس يلازمه وسوف تفلت منه هذه الفرصة البديعة بسبب حذائه المخروق ، وسوف يرغم على الركض والتجوال ثانية ، ليبيع دروسه اليونانية واللاتينية بأبخس الأثمان .

وقف هنرى لوك برهة ليستمد من نفسه شيئا من الثقة والأمل ، وأخرج من جيبه خطابا غير مغلق هو الذى يقدمه به أستاذه القديم فى البيان ، المسيو برتييه ، الى الكونت دى ڤندى ، وأعاد قراءته بعناية ، وهذا نصه :

باريس فى ١٥ مايو سنة ١٨٧٤

سيدى الكونت وتلميذى العزيز القديم .

« أقدم اليك الفتى الذى حدثتك عنه ، وهو من أحسن من عرفتهم كراسى كليتنا القديمة «هنرى الرابع» . وقد درس فيها ؛ ولكن حدث منذ عامين عقب نيله شهادة البكالوريا فى الآداب أن توفيت أمه ، وهى أرملة مسكينة ، تعيش من نفقة حكومية قطعت بوفاتها . فعندئذ ألفى هنرى لوك نفسه مجردا من كل معين ، وعكف بشجاعة على كسب قوته باعطاء الدروس ، وهو مما لا يثيب أحدا وخصوصا فتى فى مقتبل العمر . وقد سقط فى الشتاء الماضى فى امتحان الليسانس ، ولكنى على يقين من أنه سيصلح هذا العثار لأنه مجد واسع العلم . وأنى أحثه أيضا على أن يحضر للعالمية لكى يستطيع أن يندمج فى حياة الجامعة . بيد أنه يعوزه لتحقيق هذه الغاية مدى عامين أو ثلاثة ، عمل لا يستغرق كل عنايته بل يترك له سعة من الوقت . فلما قلت لى انك تبحث عن سكرتير فكرت فى الحال فى هنرى لوك . وانى شهيد بذكائه وغيرته ورفيع عواطفه ، ولن ترى منه إلا ما يستحق الثناء ؛ وانك لتسدى اليه يدا كبرى .

«والنقطة الدقيقة الوحيدة التى ألفت اليها نظرك ، هو أن هنرى لوك كمعظم شباب اليوم قد أشرب حب المبادىء المغرقة فى الحرية ، ولكنى أزيد بسرعة أنه رغم حداثته يفيض أدبا وتحفظا ، ولن يقول يوما كلمة تؤذى عقيدتك أو آراءك . وانى أعلم أن لديك من التسامح قدر ما لديك من ثبات فى العقيدة . والدليل على ذلك هو انى رجل حر التفكير وجمهورى ، ولكن ذلك لم ينتقص شيئا مما تجيش به من الصداقة نحو أستاذك القديم . فباسم هذه الصداقة أرجوك أن تنزل عما تشعر به من رغبة مشروعة فى أن تتخذ لك سكرتيرا يشاطرك آراءك السياسة والدينية ، وأن تفضل تلميذى الذى أعتقد أنه ، كما قلت لك ، ذهن مختار وفتى ينتظره مستقبل بديع . ومالى أنوه بآراء صبى

فى التاسعة عشرة أو بالحرى بميوله ، ولعلى أخشى أنه متى امتزج بحياتك فانه يغير آراءه . وانى لأصرح مخلصا أن منظر فضائلك الدينية واخلاصك الراسخ النزيه لقضية الملوكية ، لن تثير فى صديق الفتى غير الاحترام والإعجاب .

« وتقبل ياسيدى الكونت و ياتلميذى العزيز القديم أرفع تحياتى — ل . برتييه استاذ البيان بكلية هنرى الرابع » .

وإذ اطمأن هنرى لوك نوعا لقراءة هذا الخطاب الحار المنمق ، عاد الى السير فوصل بسرعة الى المنزل المقصود بشارع رجار .

وكان منزلا فخما من طراز القرن السادس عشر ، فشعر الفتى بجزعه يتضاعف وهو يجوز بابه الأثرى . ولكن الكونت دى ڤندى كان يستأجر فى هذا المقام الفخم مسكنا متواضعا يصعد اليه من سلم ضيق حجرى ، و يحتوى على أربع غرف ضيقة منخفضة السقف ، ولكن نوافذها جميعا تطل على حديقة زرعت بالبلوط القديم الغاص بأوكار البلابل .

قرع لوك الجرس ، فبرز اليه خادم كبير الشارب هو جندى قديم ، وإذ عرف اسم الفتى ، قاده خلال غرفة للزيارة وأخرى للطعام ، كلتاهما تخلق بشخص متوسط الحال ، الى الغرفة الثالثة التى كان فيها رب الدار .

وكانت هذه الغرفة مكسوة بورق أخضر ، غاصة بالرفوف والسجلات والأوراق . وكانت غرفة الكونت دى ڤندى تشعرك لأول وهلة بأنها مكتب مراب . ولكن هذا الشعور كان يمحوه على الأثر ، منظر صورتين بديعتين معلقتين على الجدار ، إحداهما للبابا بيوس التاسع ، والأخرى للكونت دى شامبور ، وكلتاهما مزينة بتوقيع صاحبها ، وكذلك منظر رأس مسيح من الخشب المحفور ، قد وضعت على حافة المدفأ الرخامى . وكانت المقاعد الكبيرة والصغيرة ، ومكتب الكونت وهو من طراز لويس السادس عشر ، تدلى رغم ما يكسوها من غبار وما يتكدس عليها من الأوراق بأنها أثاث محترم

لأسرة عريقة . وكان منظر الغرفة على العموم مختلا متباينا ، فهناك مرآة صغيرة رخيصة ، وإناء للطهى قد وضع على المدفأ ، وقرطاس من النقود الذهبية قد فرطت لفافته ، وعلبة من السيجار الفاخر ، وهنالك سحابة معطرة كانت بلا ريب من أثر احداها .

وكان الكونت دى ڤندى يكتب وهو يدخن حينما دخل لوك ، فنهض وأخلى أحد المقاعد من أوراقه وقال له :

«لا ريب أنك ياسيدى ، الفتى الذى أرسله المسيو برتييه ؟ »

فأجات الطالب مقدما خطاب التوصية : أجل ! هو آنا .

فأشار اليه الى المقعد الخالى إشارة لطيفة وجلس بدوره ، وأخذ يقرأ الخطاب ، وأخذ لوك يفحص ما حوله بأناة وتمهل .

وكان أول ما يدهش فى منظر الكونت ، وهو يومئذ فى الخامسة والأربعين ، نحفه الشديد وقوامه الذى لا تناسب فيه . فقد كان ذا رأس صغير ، وصدر هزيل ، وكان ظهره قد تقوس قليلا ، وكانت يداه ورجلاه طويلة جدا ، تسبغ على هيئته منظرا غريبا . ولكنك متى جلست برهة زال أثر هذه الدهشة . ورغم أن الكونت كان يرتدى سترة طال استعمالها ، وقدم قذرها وسام الشرف الذى يحمله ، فلا يسعك إلا أن ترى فى الكونت أرستقراطيا سليل الجنس الرفيع . وكان حذاؤه ينم عن قدميه الصغيرتين ، وكانت يده رغم بروزها من كم مهمل النظافة ، ذات أصابع شفافة ناعمة . وكان محياه بالأخص يعرب عن العزم والطيبة إعرابا ساحرا ، أشقر عليه دائما مسحة من الفتوة ، أخضر العينين ، أقنى الأنف ، خفيف اللحية ، لطيف الفم ، تبعث ملامحه كلها الى عطف لا تستطيع مقاومته . ولكن ذبول الأجفان وحده فى ذلك المحيا اللطيف ، كان ينم عن تقدّم العمر ، وعن الدموع أيضا ، لأن الكونت دى ڤندى كان منكودا ولشد ما عانى .

وكان هنرى لوك يشعر وهو يتأمله ، أن ذلك التحدى ، الذى تبعثه اليه حداثته وديموقراطيته ، يغيض . أجل ، كان هذا هو الرجل الذى قص عليه المسيو برتييه سيرته البديعة .

وكان الكونت دى ڤنـدى ينتمى بمولده ومصاهرات أسرته الى أرفع الأسر الفرنسية النبيلة . وقد انتظم فى سلك الفرقة الافريقية وظهر بشجاعته وعزمه . ثم تزوج واستقال من منصبه ، ورزق ابنتين . وفى سنة ١٨٧٠ عاد الى الجيش قائدا لفصيلة ، وجرح جراحا خطرة وأحرز أوسمة رفيعة . وبعد الحرب ارتد الى أملاك أسرته فى ڤنديه من أعمال برى ، وهنالك نزل به مصاب فادح ، فإن ابنتيه ، وكانت كلتاهما مصابة بالسل ، توفيتا بالتعاقب لا يفصلهما سوى أشهر ، وتبعتهما أمهما وهى تحمل جرثومة الداء الخطر ، الى القبر . وكان الكونت رجلا وافر التقوى . وكانت تقواه تُذهب عنـه شبح اليأس ، وتدفع به الى عزم يملأ فراغ حياته ؛ فهجر مسقط رأسه الى الأبد بعد أن عمرته الأشباح ، وجاء الى باريس وهو موقن بأنه سيرى فيها من البؤس أكثر مما يرى فى أى مكان آخر . وعاش هنالك عيشة متواضعة جدا ، وكرس كل نشاطه وكل إيراده الضخم ، الى غوث البؤساء والمرضى والمصدورين بوجه خاص . واشترك فى جميع الجمعيات الخيرية ، وأضحى من أنشط أعضائها وأشدهم غيرة ، رغم اشتغاله من جهة أخرى بأعماله الخيرية الشخصية . وكان يمضى فى الصباح من الساعة الثامنة الى الساعة العاشرة ، وفى المساء من الرابعة الى السادسة ، فى مقامه الصغير فى شارع رجار ، وهنـا لك يزوره سيل من القسس والراهبات والسائلين من كل ضرب . وينفق باقى الوقت فى التجول فى المدينـة لزيارة المعوزين والمنكودين من أصدقائه ، فيصـعد الى المساكن العليا ، وينحدر الى الغرف الحقيرة ، ويجلس الى جانب المرضى الراقدين على حصير أو قش . وكان ضنينا على نفسه بخيره الذى يعتبره ملكا خالصا

للبؤساء ، فكان يحرم نفسه من ركوب عربة ، وكنت تراه بقوامه المديد ومحياه المهموم ، يجوب الشوارع ومظلته تحت ابطه ، وينحدر من رصيف الى رصيف ، ومن ترام الى آخر ، ولم يكن ينفق فى طعامه أكثر من ربع ساعة للإكلة . وأى طعام كان يتناول ! ألوان باردة دائما ، يتناولها متأخرا . ولقد انتهت به حمى الخير ، وهو الفارس الجميل القديم ورجل النوادى ، إلى أن يهمل زينته وزيه . بيد أنه كان رفيع المنظر ، رغم قبعته القديمة وسترته الباهتة . وكان الترف الوحيد الذى لم يصبر على هجره سيجاراته الفخمة ، فقد كان دائما مدخنا شغوفا . وكان يمضى كل ساعات راحته غير أوقات النوم ، كل أحد ، فى كنيسة سان سلبيس ، يشهد القداس والمواعظ . فقط فى كل عامين أو ثلاثة يترك باريس مهلة قصيرة إذ يذهب كعادته الى فروسدورف ليقدم تحياته الى الكونت شامبور (مدعى الملوكية يومئذ) . وهكذا كانت الحياة النبيلة لهذا السيد الكامل ، وهذا الجندى الباسل ، تنتهى الى حياة قديس .

قرأ الكونت خطاب المسيو برتييه ثم وضعه على مكتبه ، وأدار مقعده نحو زائره وشبك قدميه الطويلتين ، وابتسم لهنرى لوك فى رقة ، وقال بصوت رخيم يفيض صراحة : « حسنا يا بنى العزيز ، فقد انتهت المسألة وقد صرت سكرتيرى . إن وصية أستاذى العزيز القديم لذات أثر عظيم فى نفسى ، ذلك انى أعتبره رغم ما بيننا من خلاف فى الآراء رجل خير بكل معنى الكلمة . والتقدير الذى استطعت أن توحى به اليه يضمن لك تقديرى مقدما . وستبدأ عملك منذ صباح الغد » .

واذ أضاء وجه الفتى بابتسامة سعيدة ، فرك الكونت يديه مغتبطا وقال : لقد نشأت يا بنى فى معترك الأفكار الحديثة . فلتسمح أننا لا نثير معا أية مسألة سياسية أو دينية ، فلدينا من العمل الكثير ما لا متسع معه لهذا الجدل . وأنت تعرف شروط عملك . فهل توافق عليها ؟ أتقول أجل — فهذا بديع ...

والآن فلنتكلم عن عملك .

ثم ألقى حوله نظرة خجل وقال : ستترتب أولا هـذا المكتب المختـل ، وسـوف تلاقى فى ذلك عناء ، بل إن هـذا الخلل ذاته هو الذى حملنى على البحث عن مساعد ، بعد طويل تردد . وان القليل الذى أعطيك أياه كمرتب ليعتبر نفقة جديدة ، ولدى جمهرة من الناس يجب أن أرضيها . ولقد لبثت طويلا أنظم كل شيء بنفسى . ولكن الحـق انى غدوت عاجزا عن ذلك ، فلدى زيارات كثيرة ، ثم النظام وهـذا ليس فى طاقتى . ففى كل يوم ، بينما أستقبل أنا زائرى ، تقوم أنت بتلقى الرسائل واعدادها ، وترصد لنفقاتنا حسابا . وانى لأعلم انك ستشتغل لنفسك ، ولذا فلست أريد أن أرهقك...» . وكان الكونت يتكلم بمنتهى البساطة ، وقد بدت على وجهه امارة حياء ساحرة حينما اضطر أن يتكلم عن أعماله الخيرية ، حتى أن هنرى لوك رغم جموده تأثر لأقواله ولهجته وأجاب : «انى أنا المدين بفضلك ياسيدى ، وإن المنصب الذى تقدمه لى متواضع ، ولكنه كاف . وسوف أستعين به على المضى فى دراستى واعداد مستقبلى ، ولن أنسى هذا الصنيع . أما العمل الذى تسند الى منه هذا الجزء اليسير ، فأعلم مقدما أنه لذيذ شائق ، فهو ليس الا توزيع الصدقات...ولم يخف عنى المسيو برتيبه غير وافر احسانك» .

ولكن الكونت دى فنـدى نهض عندئذ بجأة وقاطع هنرى لوك قائلا بلهجة المحسن المتواضع : «لا كلام فى هذا . لا كلام فى هذا ! ومن الجوهرى أن نتفاهم على ذلك . والآن أيها الصديق أرانى مرغما على صرفك ، فلم أتناول الفطور بعد ، ويجب أن أذهب فى الضحى الى فييت . . فالى الغد . وانى أعتمد عليك » .

٢

أنفق هنرى لوك طفولته وأعوام حداثته الأولى فى غمار من الشـدّة .

وكان تلميذا مجانيا فى كلية هنرى الرابع ينال كل الجوائز، ولا يحصل إلا على عشرة فلوس فى الاسبوع لمسراته الضئيلة . ولم تكن أمه ، وهى امرأة حازمة ، تسعى قط الى لقائه فى بهو الزيارة ، حتى لا تمزج ثياب حدادها الذابلة التى تنم عن فقر وضعة ، بزينات الزائرات الأخريات . وكان أثناء العطلات يبقى فى باريس الى جانبها ، فى مسكنهما الصغير النظيف المحزن ، فى نهاية شارع فوجيرار وهناك ينفق كل وقته فى مراجعة كتبه كما يفعل فى المدرسة . وقد استطاع بجده وذكائه أن يتقدم على أقرانه فصلا ، وأن يغدو أول فرقته الجديدة ، وكان أساتذته يعجبون بتفوقه ، ولكن زملاءه كانوا يولونه قليلا من العطف من جراء تحفظه وصمته . وهذا الصراع المدرسى والمنافسات بين التلاميذ مما يبالغ فيه عادة . ولكن هذه الطريقة تثير فى بعض الطبائع عواطف الطمع والكبرياء . وفى السابعة عشرة ألفى هنرى لوك نفسه يتيما وحيدا فى العالم ، وفى جيبه شهادته . ولكنه استقبل هذا البدء الشظف المتواضع فى الحياة ، بشجاعة وجلد . وعكف على تحصيل قوته الضئيل من إعطاء بعض دروس قليلة يخفت بها آلام الجوع ، وانكب على القراءة فى المكاتب العامة ، يشحن ذهنه بنظريات تذكى فيه غريزة الازدراء بالناس ، وأمل الإنتقام من مجتمع زائف . وكان قلما يقوم بصلواته طفلا ، فغدا فى الثانية عشرة ملحدا متطرفا . وكان فى ميدان السياسة ، يحلم بإنشاء دولة شرعية ، تختلف كل الاختلاف عن ديمقراطيتنا الزائفة ، التى لا يستطيع أحد أن يغنم فيها إلا بكفايته وقيمته الشخصية . بيد أنه كان يستحل لنفسه فى أعماق نفسه ، كما يفعل جميع الطامعين ، حق الانتفاع بقوته . ولكن سقوطه العاثر فى امتحان الليسانس أثار فى نفسه شجنا ومرارة ، وفل من شجاعته وجده ، فأخذت أهواء الشباب تضطرم فى نفسه فى أوقات فراغه ، لأنه رغم برود ذهنه وجفاء قلبه ، كان مضطرم الأهواء .

فى ذلك الحين، قدمه استاذه فى البيان، وكان يبالغ فى تقديره والعطف عليه، الى المسيو دى ڤندى فغدا سكرتيره . وكان يحمل هنالك عواطف عدو كان يجمدها بادئ بدء ظرف الكونت و رقته .

جاء هنرى لوك منذ الساعة الثامنة الى شارع رجار، وجلس فى غرفة الطعام يشتغل أمام مائدة صغيرة . ولكنه كان يدخل من وقت لآخر الى غرفة الكونت، ليأخذ أو يعيد سجلا أو ملفا . وكان الكونت قد ترك بابها مفتوحا وأذن لسكرتيره اذنا مطلقا بأن يجول خلال المسكن دون حرج، حتى أمام الزائرين . وكان زائروه كثرة . وكان الحاجب جسپار يجلسهم فى غرفة الزيارة على أريكتين عتيقتين و يقدمهم بالتعاقب كل بدوره . وكان راهب يعقب راهبة، أو يختلط النسوة العجائز بشيوخ ذوى أطمار، أو أمهات يحملن وليدا أو يقدن طفلة نحيلة . وكان الكونت يعطى كلا منهم مهلة قصيرة، يسمع هنرى لوك فى نهايتها دائما رنينا خفيفا لقطع الذهب . هذا الى أن الاوراق التى كان ينظمها، كانت تكشف له دائما عن وفرة الإحسان الذى يبذله الكونت، ومنها مكاتبته مع المستشفيات والملاجىء والمكاتب الخيرية، و جمعيات الرعاية، والمعاهد الخيرية من كل ضرب، ثم الرسائل الخاصة التى يلفت بها نظره الى المصائب الخاصة، وكلها مذيلة بخطه بما يفيد أنه ذهب بنفسه لأول دعوة لرؤية المنكوبين الذين وردت بشأنهم، وقدم اليهم الإسعاف السريع، ثم ميزانيته، وهى تدل على أن الكونت لا يخصص لنفقاته الشخصية، عشر دخله الذى يبلغ خمسين ألف فرنك .

وكان هذا الإحسان الذى لا ينضب معينه، هذا الخير الذى لا تفتر همته، والذى كان منظره وأدلته تمثل دائما أمام عينى هنرى لوك، تثير منه بالرغم عنه تقديره بل إعجابه . بيد أن عواطفه الشعبية والمادية، كانت تقاوم هذه العاطفة، وتملى عليه أن يحط من قدوة هذا الشريف و بره، فكان

كثيرا ما يقول لنفسه :

«يجب ألا نخدع . ولئن كان المسيو دى ڤندى يكتفى من دخله بمرتب وكيل قلم ، ويعيش كأحقر النـاس ، فذلك لأنه يشترى فى كل عام مقدما ، نصيبا فى الجنة بمبلغ أربعين ألف فرنك . وفكره هو أن صدقاته لا تعنى غير ضمان لمستقبل روحه ، وذلك بدفعه مايدفع فى خزينة شركة للتأمين على الحياة الأخرى . وهذا ممـا ينتقص كثيرا من قدره . واذا نظرنا اليه من هـذه الوجهة ، كانت صدقته حرصا ليس غير ، واقتصادا حكيما . ومع ذلك فلنفرض أنه لا يؤمن بالله ولا يؤمل ثواب الجنـة ، ومع ذلك لا يحجم عن بذل كل ما ملكت يده فى سبيل الخـير . لمـاذا ؟ لأنه يرى فى ذلك لذة لا تنتهى ، ولأنه يستمرئ الإحسان كما يستمرئ الوصـل غيره . فمثلا ليس ذلك الذى يعشق الحسان اللائى يشغفن بالترف بمجرم ، وكما أنه يدعم رخاء محال الجواهر والثياب ، فكذلك المسيو دى ڤنـدى ، يدعم رخاء الصيادلة بمـا يبتاع من أدوية لمعالجة المسلولين والمرضى . والفرق بين الحالتين أن لذته أميـل الى ناحية العقل من لذة العاشق ، ولكنها مع ذلك لذة . واذا فلا مجال للإعجاب . ولنذهب الى أبعد من ذلك فنقول إن قانون الاختيار الطبيعى هو الأفضل . ألا يكون المسيو دى ڤندى عندئذ آثمـا بكونه يؤخر الراحة الأبدية لأولئك المصابين ، وكونه يشجع تناسل أولئك السقام المشوهين ؟ أعرف جيدا أن النظريات القاسية المتعلقة بتنازع البقاء لا تتفق إطلاقا مع أحلامنا فى المساواة والمستوى الإجتماعى» .

بمثل هـذه السفسطة والسخرية ، كان هنرى لوك يقاوم العطف الذى كان يشعر به رغمـا عنه ، نحو فضائل المسيو دى ڤندى . ولعمر الحق لقد كان يتمنى أن يكتشف وصمة فى هذا النقاء ، وعيبا فى ذلك الكمال .

ففى ذات صباح ألفى غرفة الزيارة حافلة بالساعين ، ولمـا دخل غرفة

الطعام قال له جسپار : إن سـيدى الكونت قد انحرف حقا عن جادة الصواب ، فإنه لم يبت هنا الليلة أيضا » .

آه . أجل قضى المسيو دى ڤندى ليلته فى الخارج . وكان معتادا على ذلك . ضحك هنرى لوك لذلك سرا وفى سخرية ، وشعر بغبطة خبيثة . أجل كان رجل البر يقضى بعض لياليــه فى الخارج ، وكانت له كغيره جوانب ضعف رقيقة . ومن يدرى ! فقد تكون له أسرة صغيرة فى المدينة لا يبوح بسرها حتى لا يلوك الناس ذكره ، فهو يخفى أمر زلته الرقيقة . فانزع ثوب الورع ، تكشف المنافق .

ودخل المسيو دى ڤندى بجأة وهو محمر العينين مختل الثياب ، فقطع تأملات هنرى لوك الذى قال لنفسه بخبث : « إن السيد ذابل نوعا . آه »

ولكن الكونت جذبه الى غرفتــه وهو يقــول : « عم صباحا ياولدى العزيز . هيا واسرع » .

ثم فتح درج مكتبه ، وكان من أثر اسرافه القديم أنه لا يقفله بالمفتاح ، ثم قال له بصوت مضطرب : « خذ هــذه الجنيهات الثلاثة أيهــا الصديق وأسرع الى مدام جيو ، فى شارع مولان دى بيرى پليزانس ، فقد توفى ولدها وهو غلام بديع فى الخامسة عشرة ، بين ذراعى ، منذ ساعة فقط . آه ، يالروعة السل ! لقد أنفقت ليلى أمام فراش المحتضر ، وأمه تكاد تجن حزنا . وهنالك البؤس أيضا . فاسرع يابنى العزيز » .

وهكذا كان المسيو دى ڤندى ينفق ليالى سروره .

وحدث مرة أخرى أن هنرى لوك رأى عند مقدمه ، الغرف كلها قاتمة يسودها كالعادة دخان أزرق ، فألق اليه الكونت صندوقا من السيجار لم يكد يفتح وصاح به فى لهجة محزنة مضحكة معا : «خذها ولا ترنى اياها بعد حتى لا أقع فى شرك الإغراء ؛ ولقــد أقسمت ألا أدخن بعد ... أجل خذها .

انى أعرف أنك لا تدخن . ولكن خذهـا لأصدقائك ؛ أما أنا فلن أحرق في حياتى سيجارا بعد . ولقد عاهدت نفسى على ذلك منذ الذى رأيته بالأمس عند هـذه المرأة المنكودة ... تصور أرملة لهـا ولدان تربيهما ، وليس لديها ما تعيش منه غير الخياطة من الصباح الى المساء ، وكل ما تكسبه خمسة وسبعون فلسا ، أعنى بالضبط ثمن واحد من هـذه السيجارات . وأما أنا فأدخن منها خمسة أو ستة فى اليوم . خذها . خذها ، فلن تراها بعـد هنا ، وأعاهد الله على ذلك» .

وكان لوك يقول لنفسه : أيفعل ذلك مدخن مثله ؟ إنها بطولة ، بيد أنه لن يستطيع صبرا .

على أن المسيو دى ڤندى ، بعد أسبوعين من المعاناة كان فيهما يحرك يديه العصبيتين دائما ، استطاع أن يتغلب على نفســه ، وأن يضحى بلذته الأخيرة فى سبيل الفقراء .

وهكذا كان هنرى لوك يقلل من غمطه واتهامه لمخدومه ، ونأسره خلاله الودية الأبوية ، حتى حدثت أزمة فى حياة الفتى .

ذلك أنه استطاع بمرتبه وما يكسبه من بعض الدروس ، أن يفى بحاجات نفسه . وقد غدا أقل جفاء مذ غدا أقل بؤسا ، فلم يعـد كما كان فى المـاضى يباعد رفاقه فى المدرسـة ، بل عاد فعقد معهم أواصر الصـداقة المقطوعة ، وأخذ معهم يغشى المقاهى ونوادى اللهو . وكان معظمهم من أسر ميسورة ، ينفقون المـال فى بسطة ، فكان هنرى لوك ، وهو بطبيعته متكبر معتز بنفسه ، يجاريهم ويسابقهم فى الإنفاق ، وينفق فى ليلة واحدة ما يكسبه فى أسبوع كامل ، وكان يعالج هـذا الأسراف أولا بالانقطاع أياما يكتفى فيهـا بالضرورى . ولكن الأمور ساءت فيما بعد .

إن الكبر والزهو لا يتلازمان دائما . وقد يكون الكبر مشروعا أحيانا ،

بل نبيلا ، أما الزهو فهو دائما وضيع حقير، ولكنهما كانا يمتزجان فى شخصية كهنرى لوك لا تقوم على قاعدة أخلاقية . فإن الفتى المغرور يتوهم أنه خصم للعالم ، وان لأصغر أعماله أهمية كبرى . وقد كانت العزة تدفع هنرى لوك الى مجاراة رفاقه ، والى انفاق ما لم يستطعه ، فاستدان ، ثم تفاقم الضيق من حوله .

ثم كان شبابه يطالب بحقوقه ، ويضطرم بعنف بعد عهد البؤس والحرمان الذى جازه ، فكان يعيش عندئذ فى جماعة من المرحين الهائمين الذين يتمتعون بشبابهم ، بأسلوب مبتذل بلا ريب ولكن ناجع ، فكان فى ذلك قدوة دائمة واغراء مثيرا لهنرى لوك ، وكان بوسعه أن يظهر فى المقهى الذى اعتاد أن ينفق فيه سهراته مع رفاقه الأحداث لأنه كان أوفرهم ذكاء وعلما ، وكان تفوقه أمرا مسلما به من الجميع ، وكان يستطيع دائما أن يدفع شرابه لأنه كان يستدين فى نواح أخرى ، لدى الخياط وصاحب المطعم وغيرهما . غير أنه كان يرغم ، حين تأتى ساعة اصطحاب الفتيات والخليلات ، على الانسحاب والفرار ، وكان يأنس لذلك سخطا وذلة ، وتجيش أهواؤه اذا ما خلا الى نفسه ، وتحفزه أشنع ضروب البغض والحقد على الأغنياء والسعداء .

وكان فى غدوات هذه السهرات ، حينما ينظم أوراق المسيو دى ڤندى ، يراه يستخرج النقود للصدقات من درج يغص بالذهب والأوراق النقدية ، فتملكه لذلك ثورة من الغيظ ويقول لنفسه :

« وهل ترانى مع ذلك أعجب به؟ ولماذا؟ لأنه يستطيع أن يعيش كما يهوى . إن الفضيلة ليست إلا كلمة جوفاء . والحقيقة هى أن الرجل يبحث عن سعادته ما استطاع ، ويغترفها أينما وجدت ، ومن فاز منها بالقليل أينما وأنى كان ذلك ، فهو رجل ممتاز ، وان السيد لرجل أنانى ، فهو لا يلاحظ

قط أن الضجر ينهشنى ، وانى أذوب حياء وحشمة ، ولا ينفحنى بحفنة من الذهب و يقول لى : اذهب فاله وامرح ! ثم أعجب به مع ذلك ، ألا تبا !

وكان الفتى المنكود هنالك ، فإذا بلقاء امرأة ، يلقى بحياته وأفكاره الى هاوية سحيقة من الاضطراب .

كانت الحسناء كلو — وهو مصغر غرامى لكلوتيلد — شهيرة فى الحى اللاتينى و بحق ، لأنها كانت رغم نشأتها فى الريف وبدئها الحياة عاملة فى مصنع للثياب ، ذات قد رومانى ؛ وكانت تنعم بذلك الجمال المزدهر الثقيل ، ذات عينين واسعتين تفيضان بأحلام الشهوة ، ، وشعر فاحم السواد ، وجبين غبى متكبر على قول موسيه . ولو كانت هذه المخلوقة التى صوّرت كما شاءت ووهبت خلال الغانيات الكبيرات ، قد وهبت قليلا من الذكاء وحسن الطالع ، لأفنت ثروات كبيرات ، ولكنها أرغمت على الاقتناع بالتهام نقود بعض الطلبة ؛ وكان آخرهم طالب حقوق يابانى أنفق عليها آخر دراهمه ، حينما انتابتها نزعة بخائية ، حملتها على مغادرة غرفة الأسيوى الوثيرة ، الى غرفة هنرى لوك الحقيرة .

وكان ذلك التوفيق الذى ناله الفتى بوسامة وجهه النحيل ولحيته السوداء الصغيرة قد أضاع صوابه ، وسرعان ما علم أن حب غانية ولو مجردا إنما يبهظ الفقير مع ذلك ، و إنه لمبهظ أيضا أن تحب لنفسك . ولكن كلو كانت أ كثر عقلا ورو ية ، فما أن أخمدت نزعتها حتى أرادت أن تفارقه بعد أسبوعين . ولكن ذلك المنكود الذى أضرمته حبا وزهوا ، انفجر فى عاصفة من الغضب والغيرة ؛ وحملتها أيضا بادرة من الرقة ، فلم تجرؤ على مغادرته .

وانحدر هنرى لوك الى هاوية الدين وغدا مدينا لجميع رفاقه بمبالغ كبيرة ، ولم يدخر وسيلة للحصول على المال ، حتى أضرب جميع المرابين عن إقراضه ، ولم تبق له كلمة عند الوسطاء والسماسرة الذين باعوا له كل تحفة أو سلعة

ذات قيمة . فكيف إذا يحتفظ بهذه المرأة التي كان تملأ بهواها ؟ ولم تكن كلو تميل بلا ريب الى عيشة الهوى والفاقة ، وكانت قد بدأت تتذمر وتسخط ، وكاد هنرى لوك يفقد الرشاد .

وفي ذات صباح قالت له كلو بصوت جاف يفيض بالوعيد : «تعلم أن ليس لى حذاء بعد» وبعد أن أدى هنرى لوك عمله لدى الكونت دى ڤندى كالعادة ، وبعد أن شيع الكونت آخر زواره ، قال لسكرتيره : «ان أتغذى اليوم هنا خلافا للعادة ياعزيزى لوك ، فأرجوك قبل ذهابك أن ترد على الخطابين اللذين تركتهما على مكتبى» .

ولما انصرف الكونت دخل هنرى لوك الى قاعة المكتب ليأخذ الخطابين . وكان المسيو دى ڤندى ، فى إهماله العادى ، قد ترك درجه نصف مفتوح ، ورأى الفتى قطع الذهب تلمع فى قاعه . وكان يعرف من تجاربه أن « السيد » قليل العناية والنظام ، وأنه يخطئ ضبط الأرقام بسهولة ... وسرى اليه الإغراء !

ووثبت الرغبة المروعة الى رأسه ، مفاجئة صاعقة ، وخفق قلبه بشدة . واأسفاه ، علام يقوم الشرف ؟ أنه لسقيم ضئيل . ولقد كان هنرى لوك ولد أبوين فى منتهى الشرف والأمانة ، وربته أم عفيفة عزيزة النفس . وكان هو الى اليوم الذى غزا فيه هذا الحب السافل حياته ، دائما كثير الحرص والدقة فى مسألة النقود . ولكن ضميره تحطم فى لحظة كقضيب الحديد اذا تخللته قشه . ولم تكن له سوى فكرة واحدة ، هو أنه بقليل من ذلك الذهب يستطيع أن يستبقى خليلته . وفى أيام قلائل يسعى بأية وسيلة الى رد المال المسروق ، أستغفر الله بل الذى اقترضه ، من ذلك الغنى الذى يبغضه من صميم قلبه ، والذى لا يلاحظ شيئا ! .

فتناول ثلاث قطع من ذات العشرين فرنكا ، وركض الى الحسناء كلو ،

واشترى لها حذاءها .

وبعد ذلك بثمانية ايام ، أخذ جنيهين آخرين بعد أن فتح درج المكتب بمفتاحه الذى يتركه الكونت فيه دائما ؛ بل كان السقوط سريعا مروعا ، لأنه لبث مدى بضعة أسابيع ، يتناول فى خفه وجنة من مال ذلك المخدوم الواثق ، وذلك الأب البار .

بيد أنه حينما دخل ذات صباح الى غرفة الكونت ليتلقى أوامره ، اذا بالكونت يقف أمام المدفأ ، ويقول له بصوت هادئ مكتئب : أرجوك ياعزيزى لوك أن تغلق هذا الباب ، فسأحدثك فى أمور خطيرة .

فعرت السارق رجفة مفاجئة ، تلاها عرق بارد ، وشعر بنحره يختنق اختناقا مروعا ، كأنما عصرته يد قوية .

وقال الكونت ببطء : لقد علمت أنى أُسرق . وإنى لمعتاد كما تعلم ألا أغلق هذا الدرج ، وهى عادة سيئة أندم عليها اليوم ، إذ يجب ألا يغرى المرء أحدا ! غير أنى مهما كنت من الإهمال ، فقد لاحظت منذ أكثر من شهر أن النقود التى أضعها هنا تذهب بسرعة ...

ثم قال إذ رفع لوك يده : أرجو ألا ترتاع ، واتركنى أتم القول ؛ لقد أودعت منذ ثلاثة أيام هذا الدرج مبلغا معينا من الذهب ولم أمسه ، ولكنه نقص بالأمس جنيهين . وإنى لأسرق بلا ريب ، وإنى لأصرح بأنى أشك فى جسبار ، فقد اضطربت أحواله منذ حين وأخذ يشرب بل هو هذا الصباح ثمل من الأبسنت . وتالله لقد عجبت أن يسرق هو مالى ، وقد أنقذت حياته فى ميدان الحرب وحملته جريحا على ظهرى خلال رصاص الألمان ! أليس من حق يا بنى العزيز أن أكون بلا رأفة ؟

ولا ريب أن الفتى المنكود لم يكن يتوقع هذا الإستنتاج . ولكنه كان أبعد من أن يرتاح اليه ، بل ضاعف روعته بالعكس ، لأنه لم ينزل الى ذلك

الدرك من النذالة، ليرتضى أن يعاقب أحد عن جريمة ارتكبها هو . ففقد صوابه وارتجفت ساقاه ، وغلى دمه ، فاستند الى المكتب، وصاح بصوت متهدج رنان :

« إن جسبار برئ يا سيدى الكونت . وكفى نذالة ! فأنا، أنا الذى أخذت من هـذا الدرج تباعا ثلاثين جنيها ! ... أخذتها من أجل امرأة . وقد فقدت الصواب فافعل بى ما شئت ... »

فلم يتحرك المسيو دى ڤندى ، ولكن محياه الوديع الساحر، امتقع امتقاعا مروعا ، وقال بصوت أجش :

« لقد كنت واثقا ، فإن جسبار أخى من الرضاع وأعرفه منذ الحداثة فهو الأمانة ذاتها ... ولكنى كنت الآن أضع لك شركا ، وقد سرى عنى إذ رأيت أنك لم تنزلق بعد الى قاع الهاوية . وإذا ، فقد سرقت أيها الفتى المنكود هذا المال، مال الفقراء ! أنت وأنت ذهن رفيع، ورجل علم وفكر تشعر بكل فظاعة عملك . آه ترانى أستطيع بلا ريب فى هذه اللحظة أن أسحق كل نظرياتك الفارغة الكاذبة ... ولكنى اعتزمت ألا ألقى عليك درسا عقيما فى الأخلاق ، بل رأيت ما هو أفضل ... فاجلس هنالك واكتب ما أمليه عليك ... وأطع طاعة مطلقة وإلا أرسلت جسبار فى طلب البوليس» .

فارتمى هنرى لوك فوق كرسى أمام المكتب وقد سحقه الخزى والعار ، وتناول قلما بيده المرتجفة .

وأملى الكونت بلهجة الآمر :

«أنا الموقع فيه أدناه أعترف أنى قد سرقت مبلغ ستمائة فرنك من الكونت دى ڤندى الذى كنت سكرتيرا له، وأقر أنى مدين الى كرمه بأنى لم أسلم الى العدالة ... » .

ثم قال الكونت أرخ الورقة ووقع ، وأعطنى إياها .

كتب الفتى المسكين اعترافه بخط مضطرب ولكن واضح . وتناول المسيو دى ڤندى الورقة وقرأها بعناية ثم طواها ووضعها فى محفظته . ثم حدج هنرى لوك مليا ، وقد نهض وخفض رأسه ، وصوب عينيه نحو الأرض ، وأخذت أسنانه تصطك كرجل عراه الزمهرير .

ثم قال الكونت أيضا بلهجة جافة آمرة : أجبنى ، هل عليك ديون ؟ وما مقدارها ؟

فلم يجد هنرى لوك جوابا على هذا السؤال الفجائى ، ولكن الكونت ألحف قائلا : كم ديونك ؟ قل أتبلغ الف فرنك ؟ »

فانتهى الطالب الى التعاثم وقال : أجل يلوح لى أنها تبلغ حوالى ذلك ...

فتناول الكونت من محفظته ثلاث ورقات مالية كبيرة ، وقال : اليك ألفا وخمسمائة .

فذهل الفتى وبدرت منه صيحة مخنوقة

فقال الكونت : « اياك والشكر . وإنى لأحظر عليك قطعا أن ترد الى ما سرقته وما أعطيك اياه اليوم ، ومن حقى أن أحظر عليك ذلك . وإنى لأجرب فيك تجربة بسيطة ... فلو أنك تندم على ما فعلت ، وتعود الى العمل ، وتسير فى المستقبل سيرا حميدا ، فعندئذ أكون قد أنقذتك وأكون راضيا ... ذلك لأنى كنت أشعر نحوك بعاطفة صداقة ... ولست بعد اليوم سكرتيرى ، ويؤلمنى أن أراك ثانية ... ولكن ها أنت قد حررت من ديونك بقليل من المال لديك ، وفى وسعك اذا شئت أن تعود فتغدو رجلا شريفا ... ولكن حذار فقط من هذا : إنى سأتتبع حياتك ، فاذا نمى الى عنك عمل أعتبره سيئا ، وأرى الحكم عليك من أجله ، طبقا لوجهة نظرى ومبادئى الأخلاقية ، فاذكر أنى أملك وسيلة إهلاكك ، وسأقدم على هلاكك ... واذا فقد اتفقنا . انى أصفح عنك اليوم ، ولكن اذا ظهر أنى قد أخطأت فى هذا الصفح ،

«وإذا ارتكبت ما أعتبره أنا سيئة، فانى سأجرى القصاص يومئذ »

ثم قال الكونت بعد صمت قصير وهو يصرف هنرى لوك بإشارة :

«والآن فاذهب واجتهد فى أن نقوم اعوجاجك».

٣

ومضت عشرة أعوام

رفعت جلسة النواب، وأخذ النواب يغادرون قصر بوربون . وكان شفق نوفمبر القصير ما يزال ينتثر فى لمحات باردة فيما وراء التروكاديرو، وكانت مصابيح قنطرة الكونكورد قد أخذت تسطع بنورها الذى كأنه أخضر إزاء زرقة السماء .

وكان هنرى لوك، الخطيب الفتى المفوه بجناح اليسار المتطرف، يودع بعض زملائه وأصدقائه السياسيين ، فى زاوية « كى دورسى» ، وكان رافعا عنق معطفه لأن البرد كان ينهمر، وهو يصافح أصدقاءه من حوله .

فقال له رئيس جماعته لوى ماتياس، ذلك الزعيم الأشهر الذى أسقط غير وزارة والذى تعرفه باريس كلها : نستطيع إذا ياعزيزى لوك أن نعتمد عليك . فغدا متى جاء دور المناقشة فى ميزانية التعليم الدينى، فإن بارال يفتتح الحملة و يطلب إلغاءها، ثم تطلب أنت الكلام .

فقال هنرى لوك : لقد اتفقنا .

وهنا قال ديقيم وهو صحفى صغير القد، يضع نظارة مفردة على عينه : هل أستطيع أيها الاستاذ العزيز أن أذيع هذا الخبر فى عدد الغد من «حقوق الانسان» ؟

أجاب هنرى لوك : بلا ريب .

وقال لوى ماتياس بصوته الخبيث الجاف : آه لو استطعنا هذه المرة أن نقطع المؤن عنهم وأن نعجل «الكونكردا» ... ذلك لأن هذه الجمهورية الغبية

لتى تعيد كل أطلال «القنصلية» ، وتسير فى أثر بونابارت . ولقد أُكد
ن نواب الوسط الذين لا يفكرون إلا فى اعادة انتخابهم ، قد زعزعوا .
هم أن ريحا شديدة من المعارضة لرجال الدين تهب اليوم على الأقاليم...
تمد عليك جل الاعتماد ياعزيزى لوك ، وآه لو ظفرت بالأغلبية ! »
فقال هنرى لوك ، وهو يغادر أصدقاءه : « لا تخشوا بأسا فسأبذل كل
، وسعى وأعدكم أن أكون شديدا ، كيسا فى نفس الوقت . ولقد
ت منذ الآن أسس خطتى ، وسأحبس نفسى فى غرفتى عقب العشاء ،
م نقط جدلى ، فاطمئنوا ، والى الغد » .
ثم ابتعد الخطيب الفتى بخطوات مسرعة . وكان أمين المسيودى ڤندى
ديم كما نرى ، قد شق له خلال الأعوام العشرة طريقا بديعا فى الحياة .
ارع القول أنه شقه بعمله وكفايته بمنتهى الشرف والنزاهة .
كان الدرس الهائل العادل معا ، الذى عاناه هنرى لوك ، يوم اضطر نزولا
أمر الكونت ، أن يكتب وأن يوقع اعترافا بزلته الأثيمة ، كافيا لأن يرده الى
ق الرشاد . ولم يك ريب فى أن ذلك الفتى الذى كانت وفرة ذكائه وعزة
ه ، تحتم أن يكون شريفا الى الأعماق قد ارتكب جرما لا يغتفر . ولكنه
، يومئذ قد دفع الى ذروة البؤس والجوى ، ثم غلبت عليه شهوة جسمية ،
كب ما ارتكب فى غمرة من الحمى ، وفى نوع من فيض المرض المعنوى
ى تغلغل فى نفسه ، ومع ذلك فلم تكن حالته تدعو الى اليأس ، بل كان
ه الذى تجرع كأسه الى الثمالة ، له علاجا شنيع الغضاضة ، عنيفا ناجعا معا .
غادر هنرى لوك منزل الكونت دى ڤندى كرجل يفر من لهب الحريق
خر لحظة ، وقد احمر شعره واشتعلت ملابسه ، ولكنه ما زال يخشى النار .
جر خليلته ودفع ديونه . وقطع علائقه مع كل رفاقه ، وارتد الى العمل ،
مس فيه كما ينغمس فى بحر من النسيان ، فلم يمض عام حتى جاز امتحان

الليسانس ، وكان الأول فى مسابقة العالمية . ثم عين استاذا فى مدرسة ثانوية فى مدينة من أعمال الشمال الشرقى ، فغادر باريس التى غدا يبغضها والتى عانى فيها وزلت قدمه ، بصيحة الفرح ، وتنفس الصعداء كأنه سجين يفر من سجنه .

وعاش فى الريف فتى وافر الإستقامة ، يذهب فى الجد والتحفظ الى أبعد مما يجب ، لا يطرب ولا يرقص ، لا ترغب فيه الفتيات ، ولكن ترغبه الأمهات جميعا زوجا لبناتهن ، ويذكره الآباء قدوة لأبنائهم . وكل ما هنالك أن البعض كانوا يأخذون عليه آراءه المتطرفة فى السياسة والفلسفة ، ولكنهم جميعا كانوا يشهدون بأنه لا يرسلها الا اذا دفع الى ذلك ، وانه يرسلها فى أسلوب جم الهدوء والأدب .

ولم تكن هذه المظاهر الشريفة خادعة ، ولم تك ثمة لمحة من الرياء فى سلوك هنرى لوك ، فقد كان عوده الى الخير صادقا ، ولم يكن يطالب شيئا من الحياة بعد ، بغير الواجب والعمل ، وما كان يذكر زلة شبابه الأول ، وسقوطه القديم — وكثيرا ما كان يذكرهما — الا فى غمرة من ألم النفس ووخز الضمير ، ولكن يرد اليهما دائما نهوضه من عثرته . ولم ينس شيئا أو يغفر شيئا ، بل كان يرى بالعكس أن واجبه أشدّ فى أن يعيش حياة نقية طاهرة لأن فى ماضيه وصمة خفية ولأنه كان شديد الإثم .

غير أن عاطفة سيئة كانت تجثم فى قرارة هذا القلب المستقيم القفر ، أو بالحرى كانت تنقصه العاطفة الطيبة . ذلك أن هنرى لوك لم يكن يشعر بعرفان نحو الكونت دى ڤندى مع أن الكونت عامله بكرم وافر ، فعفا عنه رغم استطاعته أن يعاقبه ، وأمده أيضا بوسيلة يسترد بها شرفه وسلامه . بيد أن الأستاذ الفتى كانت تعروه كآبة كلما ذكر مخدومه القديم ، أفلم يستكتبه ذلك الإعتراف ، ويهبه ذلك المال كما توهب الصدقة ، ويحظر عليه رده ؟ فياله من خزى ! أجل ، كان هنرى لوك يشعر أن فى ذلك ما يعكر صفاء حياته

الى الأبد، ويذبل الأزهار فى نظره، ويحجب الشمس عن عينيه .

وكان يقول لنفسه أحيانا «انى سخيف ظالم، فقد أحسن المسيو دى ڤندى صنعا، وكان له بل كان واجبا عليه أن يذلنى وأن يلقى على هذا الدرس وأن يتخذ ضمانا للمستقبل، وقد أسدى بذلك الى أجل يد . أما هـذه الورقة، فأعرف أن الكونت لا يفكر فى استعمالها أبدا، حتى ولو انحرفت عن طريق الاستقامة، ولو لم أسلك سبيل القـدوة . أجل، انى مخطئ مائة مرة، وجاحد، فقد عاملنى المسيو دى ڤندى فى هذا الظرف معاملة رجل وافر الشهامة والمروءة» .

ولكن ذكرى الرجل الهمام المحسن، بقيت رغم كل ذلك، ترتبط دائما فى ذهن هنرى لوك بعمله السيئ، وتثير فى نفسه مر الألم .

وكان الأستاذ الفتى أثناء ذلك يتقدم فى منصبه، وينـال كل ضروب النجاح فى القاء دروسه فى البيان . وقد ألفى أنه يملك موهبة الخطابة، فهذبها ونماها، وبدا له مستقبل التعليم بساما . ولكن مصيره تحول بغتة الى قبلة أخرى .

ذلك أنه كان يتردد على منزل صـديق له، صاحب مصنع، من كبار المدينة، ورب أسرة كبيرة . وكانت ابنته الكبرى ذكية، محتشمة، حسناء، وكانت تروق جدا فى نظر هنرى لوك، فأسر اليه أن الفتاة — واسمها الآنسة إيميه — تنظر اليه بعين الرضى أيضا . وكان مهرها صغيرا، لأنها كانت ذات أخوة وأخوات . ولكن هنرى لوك، ألفى دون قصد، فى هذا الزواج المرغوب النزيه، نجمه يتألق . فقد كان حموه دائما يشتغل بالسياسة، وله فى المقاطعة نفوذ كبير فى جماعة الناخبين . فلما خلا فى مجلس النواب كرسى من دوائر هذه المقاطعة، رشح صهره، فانتخب نائبا عن هذه الدائرة، وجلس فى صف اليسار الراديكالى، وألقى ذات يوم خطابا أبدع فيه عن القوانين المدرسية ونظم التعلم،

فعدّ بين كبار الخطباء .

وغدا هنرى لوك فى سن الثلاثين ، أعنى حينما نعود اليه ، علماً — وليغفر لنا التشبيه — فى الجوقة البرلمانية التى تتألف ، كما يعلم الناس جميعاً ، من جماعة من رعاع المهرجين . واستحق ببراعته واخلاصه وثباته ، لقب الفنان الحق . فلما جاء دور المعركة السنوية التى يثيرها أنصار الفصل بين الكنيسة والدولة ، وذلك بمناسبة النظر فى ميزانيـة المعاهد الدينية ، عهد حزب اليسار الراديكالى الى الخطيب الفتى بالدور الأول . وكان مقرّرا أنه اذا سقطت الوزارة على أثر الاقتراع بعدم الثقة بها ، أن يتولى هنرى لوك وزارة المعارف فى الوزارة الجديدة . فكان هـذا الأمل يذكى طعمه و يملق خياله ، فيتصوّر أنه يعد فرنسا للمستقبل ، و يقود الشباب فى طريق علمى محض . وكان من أثر الجامعة أنه يؤمن بالفضيلة رغم ضآلة عصمتها ، و يؤمن بالمناهج والخطط ؛ ومن أثر مبادئه اليعقوبية أنه يعتقد امكان اخضاع الأفكار الى النير المطلق ؛ ومن أثر مبادئه المادية أنه يتمنى أن يجيب العلم عن كل خفايا الحياة وألغاز الطبيعة .

سار هـنرى لوك ، وهو يتـلو عبارات الخطاب الذى يؤمل أن يكون ضربة قوية لرجال الدين والأفكار الدينيـة ، حتى وصل الى رصيف ڤولتير حيث يقطن ، فألفى زوجه الفتية أمام المهد الذى ينام فيه الطفل الذى رزقاه من عامين ، وهنالك أمام هـذا المنظر الظريف المؤثر ، نسى الخطيب الفتى مدى برهة أنه يجب عليه أن يسحق الدين غدا . فلما أغلق الطفل عينيه ، وجلس الزوجان الى مائدة الطعام ، لم يتناول هنرى لوك سوى اليسير من الطعام لأن خطابه كان يملك عليه كل فكر وكل رغبة . وكانت زوجه ترمقه بابتسامة صامتة ساحرة لأنها كانت تعبده وتعجب به . وكانت ترى أن الغاء معاش الأساقفة والكهنة ضرورة لابد منها ، مادام زوجها يراها بمثل هذه الحرارة .

فلما انتهى العشاء تصفح هنرى لوك صحف المساء، فألفاها كلها تنبىء عن خطابه، وترى فى تدخله فى جلسة الغد حادثا جوهريا . وكان يجلس عندئذ بجانب النار، ويستنشق دخان المجد، ويرى من خلال باب الغرفة المفتوح زوجه الفتية فى غرفة النوم تروح وتغدو حول مهد ولدها، وتعنى بزينتها الليلية، وعلى مقربة منه كتبه المفتوحة وأوراقه المنتثرة، يتصفحها على ضوء مصباح كبير، ويفكر الى أى حد كان ذلك المثوى الهادئ، وتلك الدعة العائلية، نفيسين فى حمى السياسة والخطابة التى يجوز غمرتها، ويهمس لنفسه بأنه سعيد .

وجعل هنرى لوك يقطع الغرفة جيئة وذهابا، وهو يردد فقرات خطابه بصوت منخفض، ثم يجلس أمام مكتبه أحيانا ليراجع نصا قانونيا . واستغرق فى تلك الحال مدة طويلة، واذا بالخادمة تفتح الباب بعد أن قرعته مرارا دون جواب، وتقدم اليه بطاقة زيارة لسيد، قالت إنه يلح جدا فى رؤيته رغم تأخر الوقت .

فتناول البطاقة بفروغ صبر وألقى عليها نظرة، وسرت اليه رجفة أثلجته حتى فؤاده حينما قرأ عليها اسم المسيو دى ڤندى .

ذلك لأنه رأى فى قدوم ذلك الرجل، وهو الشاهد الوحيد على خزى شبابه، وظهوره أمامه بغتة، وهو فى ذروة السعادة والنجاح، نذير شؤم أسود .

فقال لخادمته بصوت متهدج : «أدخليه» .

فدخل المسيو دى ڤندى . ولم يكن قد تغير كثيرا شأن كل أولئك الذين يملأ حياتهم عمل موحد، وتنظمها عادات ثابتة . ولم تفعل الأعوام العشرة سوى أن حنت قليلا، قوامه الطويل الممشوق . ولم يكن يبدو فى ظل الغرفة التى لا ينيرها سوى المصباح المحجب، أن الشيب قد وخط لحيته الشقراء، ولم يكن أكثر عناية بثيابه مما مضى . فلما حياه هنرى لوك ودعاه الى الجلوس

بإشارة، شبك ساقيه الهزيلتين، ووضع قبعته القديمة الباهته على منضدة قريبة، ورأى هنرى لوك أخيرا مخدومه القديم فى نفس هيئته يوم فراقهما المشئوم.

وحدج الكونت النائب بنظرة ساطعة نافذة ، وقال : أعتذر أولا عن قدومى فى هذه الساعة المتأخرة ... ولكنى علمت منذ قليل فقط وأنا أتصفح جريدة مسائية، بالحادث الذى يحملنى على زيارتك ، وسوف ترى حالا أن مسعاى لم يكن يحتمل التأجيل .

فأخفى هنرى لوك انفعاله بجهد وقال : مهما كان الباعث على قدومك يا سيدى الكونت، فأؤمل أن تثق، أن قدومك لا يمكن أن يثير فى نفسى غير عواطف الأحترام العميق والعرفان الخالد .

فقال الكونت : أجل ، ولكنى سعيد اذ أسمعك تصرح بهذا ، لأنى جئت أتقدم الى هذه العواطف ... غدا فى مجلس النواب تجرى المناقشة فى استجواب لأحد زملائك، وسيطلب أن تلغى ميزانية الشؤون الدينية ، وقد علمت من الصحيفة التى قرأتها أنك ستلق بهذه المناسبة خطابا قد يؤثر تأثيرا عظيما فى اعطاء الأصوات، ويجعل هذا الإلغاء أمرا محققا . فهل أجرؤ أن أسألك عما اذا كان هذا النبأ صحيحا ؟

فأجاب هنرى لوك جزعا لهذا السؤال : أجل هو صحيح . ومع ذلك فانى أبعد من أن أعتقد أن تدخلى فى المناقشة، يؤدى الى مثل هذه النتائج الحاسمة أو أن خطابى ...

ولكن المسيو دى فندى قاطعه بصوته الثابت قائلا : «لا فائدة من ابداء التواضع يا سيدى، فانى أعرف مقدرتك الخطابية ونفوذك فى البرلمان... وانى لأصل الى الغاية من زيارتى . إن كسرة الخبز هذه التى تعطيها الحكومة فى شح الى الكهنة، والتى ليست فى الواقع كمرتب الموظف بل هى تعويض عما نزع بغير حق من أملاك رجال الدين ، لا يمكن الغاؤها دون أن يصاب

التعليم الديني في فرنسا بكثير من الضرر . هذا هو رأيي الثابت . واعتقادي ، سواء أخطأت أم أصبت ، أن الغاء الميزانية الدينية انما هو نكبة للكنيسة وللدين ، وقد تحققت أن خطابك قد يعجل بوقوع هــذه النكبة ... ولعلك تحزر الآن ما جئت لأجله من رجاء ... فتغيب غدا ، أو امتنع عن الإشتراك في مناقشة غد ، وعندئذ تبرهن لي بأشد ممـا تعتقد على قيام هذا العرفان الذي تقول إنك تشعر به نحوى ... ثم أجبنى بلا مواربة يا سيدى ، هل أستطيع أن أنال منك هذا الرجاء أم لا ؟ » .

ولنقل إن الكونت دى ڤندى ، وهو يتقدم الى هنرى لوك بهــذا الرجاء ويطالبه بهــذه اليد ، يحمله اضطرام رغبته وصراحة خلقه ، قد أودع عبارته مع ذلك ، أو على الأقل أودع لهجة طلبه ، كل ما يحتويه الأمر من قوة .

وشعر الفتى بذلك ، وأثلجه الخزى . وأدرك أيضا لأول وهلة أن الكونت كان دائمـا يزدريه غاية الزراية ، اذ يقترح عليه صراحة أن ينزل عن ضميره . وتوقع أن تنقض عليه العاصفة ، ولكنه حاول مع ذلك أن يلجأ إلى المداراة والرجاء .

فقال : «انى أشكرك يا سـيدى الكونت على أنك لم تشر إلى سلوكك الجواد نحوى إلا بهذا التلميح البسيط . على أنه لم يكن عبثا . فإن المذنب الذى أنقذته من العقاب ، قد بذل كل ما فى وسعه ليصلح نفسه ، وأجرؤ ان أقول إن الذى يحدثك اليوم انما هو رجل شريف يتقدم الى ولائك ويترك اليك الحكم على موقفه . انى ، وقد كنت دائما كما تعلم ، نصير للفكر الحر . وهذا الإلغاء لمعاشات الكهنــة الذى ترى فيــه أنت هزيمة للدين ، فى نظرى فوز للتقدم . فلنسلم بأنى مستطيع أن أحدث هــذا الفوز . فهل انت ، وانت الجندى ، الذى يقترح على الفرار من الحرب ليلة الموقعة ؟ . كلا ، انك لن تطلب الى ذلك ، وانك لن تأمر رجلا ردته شهامتك الى طريق الشرف ،

أن يغادر هذه الطريق الى الأبد ! . أقسم لك أنى لا أفكر فى هــذه اللحظة فى اطماعى و فى مستقبلى . وان أردت برهانا على حسن نيتى فقل كلمة ، أقدم استقالتى وأعتزل الحياة السياسية ، ولكن فقط بعد أن أقوم بواجبى . أما فرارى غدا فهو الخيانة . واذا لم يكن من سبيل لإرضائك غير أن أبدو خائنا فى عين حزبى ، فانى لقابل أيضا . ولكنى آبى إرضاء لضميرى ، ولكى لا أحمله مهانة ومذلة . هكذا غدا المنكود الذى أدركته عند هاوية الجريمة . إن إبائى إنما هو من صنعك ، ولست بمستطيع أن تلومنى عليه . لقد غبت عن بصرك بخفايات تطوّرى الخلق . وفى الإقـتراح الذى عرضته على عميـق ازدراء لى ، وإنى برفضه لأرغمك على تقديرى » .

وكان هنرى لوك وهو يتحـدّث كذلك ، قد بلغ حدّ الإضطرام . وكان عندئذ قد وقف أمام المسيو دى ڤندى . ولكن الكونت لبث هادئا ، مشبكا قدميه دائما ، وهو يصغى اليه باحتقار .

قال : « أتتحدّث عن الشرف ... والواجب ... والضمير ... والذمة ! إنها عبارات حســناء رنانة تحـدث أثرها دائما فى الجماعة البرلمــانية . وأرى فى الواقع حقا ما قيل لى عن فصاحتك . ولكن من ســوء طالعك أننى لا أستطيع أن أرتضى هــذه الكلمات الضخمة ثمنا ، إذ لدى دليـل كتابى موقع بيدك على أنه لم يكن من حقك دائما أن تذكرها . أجل إنى أعرف أنك منــذ افتراقنا قد سلكت الطريق السوى . وقد كان صديقنا المشترك المسيو برتيبه الذى كنت أسأله عن سلوكك من وقت لآخر ، يحيطنى علمــا بحياتك . ولكن ألا بالله قل لى من الذى أنقذك من الســقوط ؟ هو أنا . واذًا فاذكر أنك لا تستطيع أن تبــدو فى ثوب الرجل الشريف إلا باذنى . إنك تتحدّث عن الواجبات . فأقدسها وأوّلها بالنسبة اليك هو شكر الصنيعة للرجل الذى أنقذك . وأنت الآن لا تصغى الى صوت الشرف ، وإنما تصغى

الى صوت كبريائك ... بيد أنه يجب ألا نضيع الوقت فى الجدل العقيم . إنى أريد ألا تتكلم غدا فى مجلس النواب، ولن تتكلم . وهذا أمر ألقيه اليك، فاذا جرؤت على مخالفته، فاعلم أنى سأنشر عندئذ تلك الوثيقه التى أملكها،والتى تعترف فيها بأنك سرقت بعض المال من درج مكتبى كما يسرق الخادم» .

فصاح هنرى لوك بصوت مختنق : أتفعل ذلك ؟

وعندئذ نهض المسيو دى فندى وأخذ يقطع الغرفة بخطوات كبيرة، ثم قال : ولماذا لا أفعل ؟ إنه عمل غير محمود بلا ريب . ولكنى أخدم به غاية أسمى . إنى نصرانى وكاثوليكى كما أنك ملحد ، وليس عندى غير هذه الوسيلة لإرضاء عقيدتى ... ثم حدق الكونت فى هنرى لوك — وكان قد ارتمى على كرسى — وقال : بل هدئ روعك ، فلست أريد إهلاكك . وفى الإستطاعة تصريف الأمور . ألا يمكن مثلا أن تصاب هذه الليلة بانحراف طارئ فلا تستطيع الخروج غدا ؟ لاحظ أنى لا أطلب اليك أن تنزل عن مبادئ حزبك . كلا ! ولكنى أطلب فقط نكولا مؤقتا وهدنة يوم واحد . وانى ليدهشنى أن ألقى منك كل هذه المقاومة فترغمنى على الوعيد وعلى أن ألجأ الى سلاح وضيع . واذا لم تكن قد فهمت بعد أنه يجب فى بعض الأحوال أن تبدى شيئا من المرونة، وأن تنزل عن بعض الأمور،فانى لا أومن بمستقبلك السياسى . هيا، وقل لى انى أستطيع الإعتماد عليك .

وكان هنرى لوك قد أثقل كاهله ، وخارت قواه، ووضع ذراعيه على ركبتيه، واستسلم الى أعماق يأسه . إنه لحق اذا؟ أن هذه الجريمة التى ارتكبها فى شبابه، والتى تبعته دائما كشاهد خفى مدى عشرة أعوام من الجهاد والإستقامة، هذه الجريمة تقفه اليوم فى الطريق السوى، وتسقط ثقيلة على كاهله كقبضة الشرطى . كان المنكود عندئذ فريسة لروع أبرص، اعتقد

أنه شفى من مرضه منذ بعيد، فإذا به يرى بقعه الفظيعة تبدو بغأة . بم يجيب ؟ فإذا قاوم الكونت سقط فى أعين الناس جميعا، واذا سلّم سقط فى عينى نفسه . ومن الحق أن نقول، إن هنرى لوك كان قد أعاد غزو ضميره، لأن السقوط العام لم يكن يروعه بأقل من السقوط الخفى . هذا الى أن عذابه المعنوى كان يقترن بدهشة أليمة . أمن الممكن أن يكون رجل الولاء المسيو دى ڤندى هو الذى يعرض عليه هذه المساومة الشائنة ؟ وهل حقا أن هذا الرجل الخير العطوف، هو الذى يخاطبه رغم جزعه بهذه اللهجة التى تفيض بالإحتقار المؤلم ؟ ماذا يصنع ؟ لم يك ثمة مفر . فقد كان بين هاويتين .. ولقد بلغ من عذاب هذا المنكود أنه كاد يتنفس الصعداء حينما همس الصوت الخفى ناصح البائسين، فى أذنه بهذه الكلمة المؤسية «الموت !» .

فلم يتردد، بل نهض بغأة، ودنا من المسيو دى ڤندى وحدق فى عينيه قائلا بصوت أجش : هل تصر اذا على ألا يلقى هذا الخطاب ؟

فأجابه الكونت ببرود : بلا ريب، وهل أنا فى حاجة للتكرار ؟

قال، اطمئن إذا ... فلن يلقى .

فضحك الكونت ضحكة صغيرة، وهز كتفيه هزة خفيفة وقال : ها قد اتفقنا .

ولكنه لمح بغأة عينى هنرى لوك تبهتان كأنما كان يحتضر .

وقال المنكود : لن أخطب غدا فى مجلس النواب ، لأنى الليلة سأحطم رأسى برصاص مسدسى .

فصاح الكونت دى ڤندى دهشا وفى لمحة من الريب : أتقدم على ازهاق نفسك ؟

فأكد الفتى عزمه بهزة رأس قوية وقال : «وهل ترى هنالك حلا آخر مقبولا ؟ لقد جئت ياسيدى الكونت هنا — وانى ليدهشنى انك أنت ،

أو على الأقل أنت كما عرفتك ، الذى يقدم على عمل كعمل الجلاد — أقول إنك جئت هنا لترغمنى على ارتكاب نذالة حكم المخالفة فيها السقوط الشائن . ولكن موتى يجيبك بأنه لن يحدث هذا ولا ذاك .

وهنا خفض المسيو دى ڤندى جبينه وقال مفكرا : أتقدم على الانتحار ؟

فقال هنرى لوك بمرارة : إعترف رغم تقاليدك الدينية أن هـذا الانتحار ينم عن شجاعة .

ثم قال مشيرا الى غرفته الغاصة بالكتب : أترى هذا المقام الهادئ ؟ لقد كان منذ برهة مقام رجل سعيد بقدر ما تسمح له ذكرى عمـل سيء . ولكنى كنت قد وفقت الى تهدئة هذه الذكرى بل إخمادها بقوة العمل ... ولو فتحت هـذا الباب الذى أمامك لرأيت زوجتى العزيزة وطفلى المسكين ينامان بريئـين هادئين . ولقـد أخطأت فى حبهما ، فمثل هـذه المسرات لا يسمح بها لمن كان مثلى ذا وصمة فى ماضيه . ولست أحدثك عن أحلامى ، وعن المسـتقبل الذى يتفتح أمامى . واليـك رزمة من الصحف أذكر فيهـا بالخطيب المفوه الأشهر . ياله من بؤس ! فلست آسف الحياة إلا على هذين المخلوقين الفتيين ، اللذين سيغدوان أرمل ويتيما . ومع ذلك فصرح ياسيدى الكونت أن الإقدام على مغادرة ذلك كله ينم عن شجاعة وعزم . ولا ريب انى كنت غير حقيق بتلك السـعادة . ولعلك أنت الذى ترغمنى بقسوة على نبذها ، قـد تفعل ذلك دون أن تعلم ، باسم العدالة ... لا بأس ، فالآن عند ما أصوب فوهة المسدس الى صدغى أستطيع فى عزة وكبرياء ان أقول انى قـد كفرت عن زلة شـبابى ؛ ذلك لأنى أموت لكى أبقى رجلا شريفا ... والآن فتفضل ياسـيدى بتركى فريدا ، فلدى واجب الوداع وكتابة وصية ... ولكن فى وسـعك أن تذهب مطمئنا واثقا من أن هنرى لوك لن يظهر غدا على منصة الخطابة .

ثم دنا من الكونت ليقوده الى الخارج، وكان الكونت يصغى اليه بعناية فائقة والتأثر باد فى عينيــه، فعندئذ أخرج من جيبه غلافا وقدمــه الى الرجل الذى اعتزم الإنتحار، وهو يقول بصوت رنان :

«اليك دليل زلتك القديمة»

فقال هنرى لوك : ثم ماذا ؟ انك ان تذهب فى البغضاء والتحامل الى حد تدنيس ذكرى، فماذا أنت فاعل الآن بهذه الوثيقة .

فتقدّم الكونت من المدفأ حيثما كانت تضطرم نار ذاكية، وألقى فيها الورقة فالتهبت والتهمتها النار فى الحال .

فبدرت من هنرى لوك صيحة كبيرة، وشعر دون أن يدرك السبب بأن كل شيء قد تغير بالنسبة اليه .

وقال الكونت دى ڤندى بخطورة : لقد غدوت حرا، فاذهب غدا إلى البرلمــان وأوهن عقائدنا، وادفع بكهنتنا إلى البأساء . فسوف يؤلمنى كل هذا، ولكن العدالة قبل كل شيء. استمع الى هذا : انك بعد أن وقعت هذه الورقة، وغادرتنى وظهرك مثقل برأفتى وكرمى، كنت أعتقد فى أعماق نفسى أن عملى عبث، ولم أكن أعتقد أن فتى بلا إيمــان يستطيع نهوضا أدبيا بعد أن بدأ حياته بانتهاك الشرف . ولكنى لمــا علمت من المسيو برتييــه وغيره ببشائر نجاحك، وبسلوكك الحميد المحترم، شعرت كأنما لقيت خيبة أمل، وكنت إذا سمعت اسمك يذكر بين أعداء الدين وأحد أولئــك الذين لا يمكن نقد خلالهم أو الشك فى نزاهتهم، أعانى وأتألم . وفى ذلك المساء قرأت، كما ذكرت لك، فى إحدى الصحف أنك ستهاجم الكنيسة، فذكرت الســلاح الهائل الذى أملكه ضدك، فخالجتنى رغبة سيئة فى أن أحقق بوسيلة أحمر لها الآن خجلا، سكوتك، وثقتى بأنك لست إلا منافقا ... ولكنك قد أقنعتنى بالعكس انى قد أسأت الحكم عليك، وذكرتنى بأنى لم أتقدّم اليك تقدّم الرجل النبيل ؛

ولكن كل شيء قد أصلح ، وما عليّ الآن إلا أن أطلب اليك قبول اعتذاري .

وكان الدمع ينهمر عندئذ من عيني هنري لوك ، ويداه ترتجفان فرحا ، فصاح : «أتقول اعتذارك ! في الوقت الذي يجب أن أرتمي فيه على قدميك ، والذي أعدمت فيه آخر أثر لماضي الملوث ، والذي أعود فيه فأراك الرجل الفياض بالصفح الذي رحمني وأنقذني ! كلا ، كلا ، كلا ، انني لن أخطب غدا ضد أصدقائك ، أعاهدك الآن وفي وسعي أن أفعل ذلك حرا من تلقاء نفسي . ماذا أقول ؟ لقد سرى إلى اشمئزاز مفاجيء من السياسة ، ومن هذه الحياة الفياضة بالأحقاد ، وقد أدركت أن هنالك فوق الأحزاب جميعا ، حزب الرجال الشرفاء الذي رفعتني إلى صفة . إنك ياسيدي الكونت مثال الشهامة والجود» .

فأجاب الكونت وقد اشتد تأثره مخاطبا سكرتيره القديم بصيغة الحب التي خاطبه بها فيما مضى : لقد افترقنا يابني العزيز منذ عشرة أعوام ، دون أن نتلامس يدانا . فاليك يدي ، هل تريدها ؟ إني أمدها اليك فياضة بالحب والتقدير .

وشعر هنري لوك ، وقلبه يتفتح غبطة ، وربما لأول مرة في الحياة ، وهو يشد بيديه على اليد الحارة الطاهرة ، أن زلة شبابه قد محيت حقا إلى الأبد[1] .

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Longues et brèves .

انتحـــــار !

عرفت الشاعر لوى ميراز فيما مضى فى الحى اللاتينى حيث كنا نتنـاول طعامنا معا فى مطعم صغير فى شـارع سين تديره عجوز بولونيـة كنا نسميها «الأميرة شكولافسكا» . وكان يؤم المكان عادة إلى جانب جماعة من الفتية قدر لهم النبوغ ، جماعة من فقراء البولونيين قاد معظمهم جيوشا أو مايشبه ذلك . أما لوى ميراز فكان فتى شاحب اللون ، طويل الشعر ، حول عينيه هالتان . وكان أحد أولئك الفتيـة الذين يفدون على باريس فى عربة الدرجة الثـالثة أغنياء ببعض المخطوطات . وكان شعره الغزير يومئذ يلوث بالعرق فوق سترته ، فتفاهمنا لأول الأمر وما لبث لوى ميراز أن قادنى إلى غرفته العالية فى شارع كاترفان ، وأخذ يتلو على شيئا من نظمه ، ذلك أن لوى ميراز كان يقرض الشعر ، وكانت له قصائد فتية ساحرة لها عبير الأزهار الأولى . وقد تبوأت فيما بعد مجموعته المسماة «العصافير الحرة» مقاما فى عالم الأدب الراقى .

ثم نزح ميراز إلى مونمارتر وغاب عن نظرى حينا ، ثم رأيت توقيعه فى بعض الصحف ، حيث كان يكتب قصصا صغيرة أذاعت اسمه . ومضت خمسة أعوام ، ثم لقيته ذات يوم فى مكتب الجريدة التى اشترك فى تحريرها .

فسر كل منا برؤية صاحبه ، وبعـد التحيات الأولى جلسنا وجها لوجه نشدّ على الأيدى ونسفر بابتسامة البهجة عن أسناننا . ولم يكن تغير بل لم يعن بقص شعره الطويل الذى كان يلقيه إلى ورائه بحركة جميلة ، ولكن لونه صفا وحلت السكينة فى عينيه ، شأن الرجل السعيد ، وكان يرتدى ثيابا أنيقة .

فقال لى وهو يمسك بذراعى : لن نفترق بعد ، أليس كذلك ؟ ثم جذبنى إلى الشارع حيث كانت شمس ابريل تنثر ذهبها فوق الأوراق الفتية .

أنعم به من يوم سعيد ! لقـد استنفدنا عبارات الذكرى وصور مطعم

شكولافسكا وأضيافها . وكانت أيام البؤس قد زالت . وكان يغتبط لنجاحى عن بعـد ، وكنت أعرف نجاحه ، ولكن الذى لم أك أعرف هو أن لوى ميراز قد تزوّج من امرأة يعبدها ، وأنه رزق بابنة صغيرة هى ملاذ حبه .

قال : تعال لتراهما وسوف تتعشى عندى .

فلبيت دعوته ، وقادنى إلى « بسـتان ترن » حيث كان يقطن روشـنا بين الأشجار . وكل ما هنالك يبسم ، وما قرعنا الجرس حتى جاءت مدام ميراز وعلى ذراعيها طفلتها ، وكانت شقراء ممشوقة القد مليئة الجسم ، فقال لهـا : هيئى مكانا ثالثا على المـائدة فهذا زميل قديم .

ثم تناول الأب السعيد ابنته ، وأخذ يرينى منزله ، وكان نظيفا حسن الترتيب وغرفة المكتبة تطل على بسيط من الزهر . ثم قال لى : ليس هذا إلا بدءا ... فلم يمض طويل على العهد الذى كنا نتناول فيه على السطو ثلاثة أفلاس .

و بينا كنت أتأمل دوحة زاهرة فى الحديقة ، أخذ ميراز يخفف ملابسه ثم اتكأ فى مقعده الضخم وأخذ يدلل طفلته .

ولعمرى ما آنست شعور سعادة كالذى آنسته عندئذ . ثم تناولنا العشاء فى حبـور ، وكانت مدام ميراز الحسـناء ترأس المـائدة بابتسامتها المضيئة والى جانبها طفلتها على كرسى عال . وكانت قليلة الكلام ولكنها كانت تتبع بنظراتها النـابهة العذبة حديثنا الهائم المشعب . ثم تناولنـا القهوة فى غرفة العمل ، وكان ميراز يعتزم أن يؤثث بهوه قريبا بثمن الرواية التى سينشرها محل ليثى ، وكان المساء ساحرا فأخذنا ندخن ونتذكر الأيام الخاليات .

وأكثرنا من المقابلة بادئ بدء ، ثم أقللنا . وكانت حياة الأديب الشاقة المعقدة تبعد كلينا عن صاحبه . ومضت أعوام أخرى ، وكنا نتقابل فنتصافح ونتبادل : « كيف حالك ؟ » و « فى خير حال » ليس غير ، ثم لاحظت بعد ذلك أن اسم لوى ميراز يظهر نادرا فى الصحف والمجلات ، فقلت فى نفسى

«إنه يستريح» ذاكرا أنه قد أحرز ثروة صغيرة . وأخيرا علمت فى الخريف الماضى أنه مريض جدا .

فبادرت برؤيته . وكان لا يزال يقطن فى بستان ترن . وكان يوما قاتما من أواخر نوفمبرخيل لى أن المنزل الصغير ينفث البرد وكأنه عار بين الأشجار المجردة ، وبدا لى كئيبا ، فدفعت الحاجز وجزت الحديقة وقرعت الجرس ، ففتحت لى ايلين التى كبرت وغدت فتاة فى الرابعة عشرة ، وكانت أمها غائبة ، ثم قادتنى وهى ترسل الى من تحت أهدابها السوداء الطويلة ، نظرات وجلة مضطربة .

وألفيت ميراز يرتمى على مقعد أمام النار وهو فى ثوب شبخ ، وقد ابيضت خصلات من شعره . ومالبثت أن حزرت من برودة يده اليابسة التى بسطها لى ونظرته البيضاء التى حدجنى بها ، أنه هالك . أفظع بهذا ! الفيت فى وجه صديقى المنكود صورة من ذلك التهدم الصاعق الذى كنا نأنسه أحيانا فى فقراء البولونيين ضيوف الأميرة شكولافسكا .

قلت له : أأنت مريض أيها الصديق القديم ؟ .

أجابنى بابتسامه مروعة : أيها العزيز ، انى أذبل من السل كالحيوان ، أو أتوارى كالفصل الخامس من رواية ... والفرق عندى هو أن عذابى يطول ، بل إنه لا ينتهى أبدا ...

ثم قال ، وقد رآنى الق سيكارى : لا بل دخن فليس يضايقنى هذا .

ولكنه قرن عبارته بسعال كالحشرجة . فجعلت أتلمس عبارات التشجيع . وكنت أحدثه وأنا أمسك بيده ، وأضرب على كتفه بلطف . ولكنى رأيت انى أحاول عبثا شأن الكذب دائما ، ولاح لى أن ميراز وهو يحدجنى ، يشفق من محاولتى . فأمسكت عن الكلام . ثم أشار لى الى مكتبة ، وقال : أنظر فقد مضت ستة أشهر لا أستطيع فيها الكتابة .

وكان صادقا . وليس أشنع من تكدس الأوراق يعلوها الغبار ، والأقلام

علاها الصدأ وجف فى أسنانها الحبر، فحاولت أن أعزيه من جديد . أيموت من فى سنه ؟ أنه لهراء! ولا ريب أنه لا يعنى بنفسه، وواجب عليه أن يمضى الشتاء فى الجنوب فيرد هنالك من مناهل الشمس . وهو قادر على ذلك . أليس لديه مال؟

ولكنه وقفنى وهو يضع يده على ذراعى ثم قال بخطورة : أصغ الىّ . إنا لا نلتق كثيرا بعد، ولكنك أقدم بل أعز أصدقائى، وهذا ما أثبته والقلم فى يدك . فاسمع إنى سأفضى اليك بسر تحفظه لنفسك، الا أن تستعمله اذا أردت أن تثبط همم الكتاب الفتيان الذين يعرضون عليك كتاباتهم . ولعمرى أنك تحسن صنعا : أجل لقد عرفت النجاح، وقد غنمت فرنكا عن السطر الواحد . أجل، وقد ربحت مالا . وهنالك فى هذا الدرج عدد من الاوراق الصفراء والخضراء والحمراء يمثل كل اذن منها أربعة آلاف فرنك من الإيراد . وهو نادر جدا فى المهنة . وقد أرغمت لإحراز هـذا، أنا الشاعر، على أن أقتبس أقسى فضائل الأغنياء، فعرفت كيف أرفض حليـة لزوجى أو ثوبا لإبنتى . والخلاصة أن عندى هذا المـال . وكثيرا ما قلت لنفسى : إذا مت فسوف أترك لهما الخبز محققا، وأترك مهرا صغيرا لإيلين . وكنت أطرب لهذا وأعتز به . ذلك أنى أعرف أخبار أراملنا وأيتامنا : إعانة من الحكومة قدرها أربعة فلسات . واذا كانت الإبنة ذكية حسناء كابنتى، فإن الكاتب المسرحى صديق أبيها، ينصح اليها بالدخول فى «الكنسرفتوار» فيجعل منها ... رباه، وهـذا لن يكون أبدا . ولكن يجب لتحقيق هذا أيها العـزيز أن لا يطول مرضى . ذلك أن المرض يكلف غاليا . وقد بعت الى الآن إذنين أو ثلاثة من أوراق الإيراد . فاذا ذهبت الى الجنوب كما تريد فيجب أن أبيـع إذنا آخر، وقد ينتهى الأمر بإنفاق الجميع اذا تأخرت سبعة أعوام أو ثمانية فى حين أنى لا أستطيع أن أكتب شـيئا . ولكن الأمر لا يحمل على الخوف لحسن

الطالع... على أن ما أقاسيه من عجزى عن الكتابة، ومن رؤيتى هذه الحفنة من الذهب تذوب تباعا، لرائع... وقد فهمت الآن، فلا تحاول نصحى... بل أدع الله إذا كنت لا تزال تذكر الصلاة، أن يبعث بى سريعا الى عالم العدم .

بعد ذلك بخمسة عشر يوما، كنا زهاء ثلاثين، وراء التابوت الذى يحمل جثة لوى ميراز الى مقبرة مونمارتر. وكان البرد قد سقط فى الليلة السابقة، فقال لى الدكتور أرنول، وهو طبيب ميراز وصديقه وهو يسير الى جانبى : إنه لبون مبتذل ولكن رائع ... فإن الدفن وقت البرد كالأسود والأبيض .

ثم وصلنا الى المقبرة . وكان الزمان والمكان موحشين، وكانت الأشجار الصغيرة، تحنى أغصانها تحت السماء القاتمة لتلقى ما علق بها من البرد . فالتف المشـيعون حول القبر، بينما أخذ الحفارون ينزلون التابوت . وكان الكاهن ينتظر وفى يده كتابه، وعلى مقربة منه مندوب «جمعية الأدباء» يمسك فى يده المكسوة بقفاز أسود، أوراق الرثاء الذى كتبه منذ ساعة فى زاوية من المقهى .

وما كاد الكاهن يبدأ صـلاته حتى أخذ الدكتور أرنول بيدى وقال لى بصوت منخفض : ألا تعرف أنه انتحر ؟

فنظرت اليه دهشا . ولكنه أشار بإصبعه الى مدام ميراز وابنتها، وهما تزفران تحت قناعيهما، وقد تعانقتا فى نطاق محزن، وقال لى :

لقد انتحر من أجلهما ... أجل، منذ ستة أشهر وهو يلقى الى النار بكل دواء، ويرتكب عمدا كل الأخطاء. وقد اعترف لى بذلك قبل موته . ولم أك أفهم شيئا، أنا الذى كنت أؤمل أن أطيل أجله، مدى ثلاث سنوات على الأقل . وأخيرا، فى تلك الليـلة التى انهمل فيها البَرَد، ترك نافذته مفتوحة عمدا، فأصابه التهاب فى الرئة ... أجل وذلك لكى يترك الى المرأتين قوتهما...

وما يرتاب القسيس فى أنه يبارك منتحرا . على أن ميراز لقى جنة الشجعان[1] .

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة .Vingt Contes nouveaux

صحـــف

من

جى دى موپاسان Guy de Maupassant

جى دى موپاسان

موپاسان ، شخصية فريدة فى الأدب الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر ، واذا لم يكن موپاسان قد وصل فى عصره من حيث الكفاية الأدبية الى صف الأعلام من أقرانه ومعاصريه ، مثل بورچيه ، وكوپيه ، وتيرييه ، وبانڤيل ، وزولا ، وفلوبير ، فإن تراثه يعتبر من أبدع ما وُهب القصص الصغير ان لم يكن أبدعه كله ؛ ذلك لأن موپاسان استاذ القصة الصغيرة المبدع ؛ وكان فى فنه وفلسفته متقدما على عصره ؛ وكان فى إخراج صوره يتخطى تقاليد عصره ، ويصوّر ما ينذر به المستقبل من ثورة فى فهم الحياة والاجتماع ؛ فكان من صوره الإجتماعية الجريئة ما يؤذى فهم عصره ، ويجاوز معيار الحياء فى مجتمعه .

قطع موپاسان حياة قصيرة ، وتوفى فى إبان فتوته وازدهار إنتاجه . وكان مولده فى ميرومزنل من أعمال السين الأدنى سنة ١٨٥٠ . ودرس فى مدينة « روان » دراسة متوسطة ، وبدأ حياته العملية كاتبا فى وزارة البحرية ، ثم كاتبا فى قسم الفنون الجميلة بوزارة المعارف . وبدأ حياته الأدبية بنظم الشعر ، واتصل بجماعة من أقطاب الأدب فى هذا العصر مثل دوديه ، وزولا ، وترجنيف الكاتب الروسى — وكان يقيم وقتئذ بباريس — وكاتيل مانديس . وكانت صلته قوية بالأخص بجستاف فلوبير صديق والدته وأسرته . وكان يرشده ويشجعه ويسدّد خطاه الأولى . ووقف موپاسان جهوده الأولى للمسرح ، ولكنه لم يحرز نجاحا كبيرا . ولم يظهر إلا فى الثلاثين من عمره حيث نشر مجموعة شعرية عنوانها Des Vers ، كادت أن توقعه فى قضية جنائية لولا تدخل بعض ذوى النفوذ من أصدقائه ؛ ثم عالج القصة ، فبدأها برواية قصيرة عنوانها Boule de Suif ، فلقيت نجاحا . ومن ذلك الحين خص

موپاسان القصص الصغير بأطيب جهوده، فأخرج منه عدّة مجموعات قوية ساحرة؛ تمتاز بتنوعها، وإحكام فكرها، وظرف مفاجآتها؛ كما تمتاز ببساطة أسلوبها، وقوة بيانها، وبديع وصفها وفنها، ودقة تحليلها، ولاذع تهكمها، وأحيانا بثورتها على تقاليد الحياء وعرفه. وبلغت هذه المجموعات ثمانية عشرة. نذكر منها : La Maison Tellier و Contes de la Bécasse و Miss Harriett، وهى قصة عجوز انكليزية تنتحر غراما؛ Yvette، وهى قصة فتاة ذات أم غانية، تنشأ فى معترك من الفساد ولكنها تقوى على مغالبته؛ و Mlle Fifi، وفيها يشهر موپاسان بالضباط الألمان؛ و La Main gauche، وفيها يصف الفتاة البدوية؛ و Les Sœurs Rondoli، وفيها يصوّر أخلاق الإيطاليات؛ و Misti؛ و Toine؛ و La Retite Roque، وهى قصة اغتصاب فظيع؛ وغيرها. وكل مجموعة تسمى باسم القصة الأولى منها، وتحتوى على نحو خمسة عشر قصة. وكتب موپاسان أيضا عدّة روايات منها: Bel Ami؛ و Une Vie؛ و Pierre et Jean؛ وغيرها. غير أنه لم يبلغ فى الرواية ما بلغه فى القصة الصغيرة من السموّ والإبداع، وقوة الخيال والفن. وكتب أيضا عدّة كتب فى السياحة وعدّة قطع مسرحية.

ولبث موپاسان فى هذا الإنتاج القوى المخصب زهاء ثمانية أعوام. ثم انتابته أعراض المرض والإعياء والانحلال. وكان عملاقا قوى البنية؛ ولكنه بدد فتوته وقواه فى إشباع أهوائه وحواسه المضطرمة، وخاض غمار حياة لهو مثيرة منهكة، وأسرف فى الشراب والمخدرات حتى انهارت بنيته المتينة، وأصيب بأمراض واضطرابات عصبية كثيرة؛ ثم أصابه الشلل؛ ثم كانت الطامة الكبرى بإصابته بالجنون. وكانت أعراض الخبل قد ظهرت عليه منذ سنة ٨٧؛ ولكنه لم ينقطع عن الإنتاج والكتابة؛ وأخرج فى ذلك الحين قصة La Horla التى تبدو فيها أعراض الاضطراب

العقلى ، وان كانت فى ذاتها قطعـة من الخيال المبدع ؛ و "الجمـال العقيم" L'Inutile Beauté ، التى نقدمها هنا ؛ وفيها يصوّر موقف المرأة الحسناء الأنيقة ازاء مسألة الحمل . وفى سنة ٩٢ ، اشتدت وطأة المرض عليه ، فحمل الى إكس ليستشفى ، وهنالك حاول الانتحار . ثم نقل الى باريس ، حيث توفى فى ٦ يوليه سنة ٩٣ فى آلام مروعة ، ودفن بمقبرة مونپارناس ؛ ووجدت بين أوراقه قصص ورسائل نشرت بعد وفاته .

وموپاسان فنـان من الطراز الأوّل ، وفيلسوف ذو طرافة . فأما الفن فقد ارتفع الى أسمى مراتبه . فهو يعالج مختلف الصور فى المجتمع وفى الطبيعة ، بقوّة وابداع ؛ ويرى فى جميع الكائنات ، وكل صور الحيـاة ، مادة للفن ؛ ويعرض صوره فى ألوان قوية ساحرة ، يطبعها ابتكار فائق ، ودقة متناهية . وأما الفلسفة ، فإن لموپاسان فلسفة خاصة فى الحياة ؛ فهو يرى انهـا سخافة ومعاناة وآلام فقط ، وليس فيها مايشوق ويبهج ؛ ويرى أن الانسان حيوان مصقول تتغلب لديه الغرائز الحيوانية على كل عاطفة أخرى ، وانمـا يخفيها طلاء من الادعاء والتستر وصولة القانون ؛ وكل طبقات المجتمع سـواء فى ذلك . وانمـا المدنية تصقل وسائل المتعة وإشـباع الشهوات . وقد درس موپاسان المجتمع الخليع دراسـة عميقة ، وخاض ظلماته وخفاياه ؛ وقدّمه الينا فى صور مثيرة ، ولكن بعيدة عن الغلو ، وقد لا يقص فى معظمها غير ما شاهده وخبره . وهو يقسو فى حكمه على المرأة ؛ فهى فى نظره مخلوق خبيث ضـال ، لا تصلح سوى أداة لإشـباع الشهوات ؛ وغرائزها نار لا تخبو ، وتحمل فى طريقها كل شىء ؛ ويندر أن تخلص المـرأة ، ويندر أن توجد زوج مخلصة . والمجتمع كله يتخبط فى معترك من الشهوات الوضيعة ؛ وهو فى كل ذلك فنان مبدع ، يقـدّم الينا أشخاصه فى أدق الصور ، ثم يجيد تصوير الطبيعة ، فيصف الريف والغابة والشمس والسماء ، والحيوان والطير ،

فى ألوان قوية . ويطبع فلسفته نوع من التشاؤم وسأم الحياة؛ وخوف الشيخوخة ؛ وروعة الموت . وأسلوبه غاية فى البساطة؛ غاية فى القوة وسحر البيان ؛ وخياله وافر الخصوبة والطرافة ، حتى أنه قلما يكرر نفس الفكرة أو المفاجأة، مع أنه كتب نحو ثلاثمائة قصة .

وقد غمط موپاسان حقه إبان حياته، ولم يتبوأ ما كان خليقا بروعة فنه وسحر خياله، فى عالم الأدب فى عصره . ولكنه أُنصف فى عصرنا، وتبوأت ذكراه مقامها اللائق، ورفع فنه وخياله الى السماكين . وفى سنة ١٩٢٥ احتفل بتخليد ذكراه ، ورفع الستار عن تمثال أقيم له فى ميرومزنل مسقط رأسه، فى المنزل الذى ولد فيه ؛ ونوه وزير المعارف الذى رأس الاحتفال بعبقريته الفذة، ودعا المجتمع الأدبى الفنى، الى اجلال هذا الذى أسبغ عليه من سمو فنه، وبديع خياله، وسحر بيانه، آيات رائعات .

الجمــال العقــــيم

كانت العربة الأنيقة، يجرها زوج نخم أدهم من الجيــاد، تقف بباب القصر . وكانت الساعة نحو الخامسة والنصف، والسماء تبدو فياضة بالصفاء والحرارة والمرح .

وظهرت الكونتة دى مسكاريه على عتبة الباب، فى نفس الوقت الذى وصل فيــه زوجها عائدا ؛ فوقف برهة يتأمل زوجته، وتغــير لونه قليلا . وكانت وافرة الحسن، رشيقة ، ذات محيــا طويل بيضى ، ولون كالعــاج المذهب، وعينين واسعتين خضراوين ، وشعر اسود ؛ فصعدت الى عربتها دون أن تنظر إليه بل كأنها لم تره، و بهيئة الآنف المتحدّى، حتى أن الغــيرة الشائنة التى تعذبه منذ بعيد عادت تقضم فؤاده من جديد، فتقدم منها وحياها قائلا : أتذهبين للتنزه ؟

فأجابته بإيجاز واحتقار : أجل كما ترى .

قال : هل تذهبين الى الغابة ؟

أجابت : ربمــا

قال : هل تسمحين لى بمرافقتك ؟

أجابت : ان العربة تحت تصرفك .

فلم تدهشه لهجتها، بل صعد الى العربة وجلس الى جانبها ، وأمر السائق أن يسير الى الغابة، وصعد الوصيف الى جانب السائق، وسارت العربة . ولبث الزوجان جنبــا الى جنب صامتين . ولبث الكونت يتلمس طريقا للحديث، ولكنها لبثت صارمة المحيا حتى أنه لم يجرؤ على الكلام .

وأخيرا مد يده نحو يدها ولمسها كمن يفعــل مصادفة ، ولكن الكونتة سحبت ذراعها بحركة سريعــة تعرب عن وافر الاشمئزاز، حتى انه لبث جزعا

رغم استبداده وتعوّده السلطة والأمر، ولكنه غمغم قائلا : ياجبرابيل !

فقالت : ماذا تريد ؟

قال : انى أراك خليقة بالعبادة .

فلم تجب وظلت مضطجعة بهيئة ملكة غضوب .

ووصلت العربة عندئذ الى الشانزليزيه نحو قوس النصر . وكان الأثر الشامخ يسفر بقوسه الضخم عن سماء حمراء، وكأنما الشمس تهبط اليه وهى تنثر من الأفق ترابا من النار .

وكانت العربات الفخمة، ذات الأطراف النحاسية أو الفضية، والبلور الساطع، تغدو نحو الغابة، وتروح نحو المدينة فى سيل مزدوج .

عاد الكونت مسكاريه يقول : ياعزيزتى جبرابيل ! .

فلم تملك نفسها عندئذ، وأجابته غاضبة : أرجوك أن تتركنى هادئة، فقد حرمت حتى من حرية الإنفراد فى عربتى .

فتظاهر بأنه لم يصغ اليها، وقال : مارأيتك قط من قبل بهذا الجمال .

فعيل صبرها، وأجابته بغضب واضح : انك تخطئ إذ تلاحظ هذا الجمال، إذ أقسم لك جد القسم، انى لن أكون لك بعد .

فتولته الدهشة والاضطراب بلا ريب، وعادت اليه نزعته العنيفة، فقال لها فى لهجة السيد الخشن لا الرجل المحب : « ماذا يعنى هذا ؟ » .

فأجابته بصوت منخفض حتى لا يسمع السائق والوصيف : ماذا يعنى هذا ؟ لقد عدت الى طبعك . أتريد أن أقول لك ماذا يعنى هذا ؟ وأن أقول لك كل شئ .

أجاب : نعم .

قالت : كل ما ينوء به قلبى مذ غدوت فريسة لأثرتك الوحشية ؟ .

فاحمر وجهه غضبا ودهشة، وقال وهو يصرف بأسنانه : أجل ! تكلمى .

وكان الكونت رجلا مديد القامة، عريض الكتفين، ذا لحية حمراء . كان رجلا جميلا، وسيدا أنيقا وافر الأدب، يعرف بأنه زوج كامل، وأب بديـــع .

ارتدت نحوه لأول مرة مذ سارت العربة وحدجته مليا وقالت : سوف تسمع أمورا لا ترضيك . ولكن اعلم انى متأهبة لكل شئ، ولن أخشى شيئا، وأخشاك اليوم أقل من أى انسان .

فحدق فى عينيها وقد فاض به الغيظ، وغمغم : أنت مجنونة ! .

قالت : كلا ! ولكنى لا أريد أن أغدو بعد فريســة لعذاب الأمومة الشائن، الذى تفرضه علىّ منذ إحدى عشر عاما، وأريد أخيرا أن أعيش عيشة النسوة الرفيعات كما يحق لى، وكما يحق لجميع النساء .

فامتقع لون الكونت فجأة وقال متلعثما : لست أفهم هذا .

قالت : بل تفهم . لقد وضعت ولدى الأخير منذ ثلاثة أشهر . ولما كنت لا زلت حسناء، بالرغم من جهودك الشائنة، كما اعترفت الآن منـــذ برهة، فإنك ترى أن الوقت قد حان لكى أحمل من جديد .

قال : إنك تهذين .

قالت : كلا، فإنى فى الثلاثين ولى ســبعة أطفال، وقد تزوجنا منـــذ إحدى عشر عاما، وتريد أنت أن تظـــل هذه الحال عشرة أعوام أخرى، وعندئذ فقط تقلع عن غيرتك .

فأمسك بذراعها وشـــد عليها وقال : لست أسمح لك أن تكلمينى بعـــد على هذا النحو .

قالت : ولكنى سأتكلم الى النهاية، وحتى أقول لك كل ماأريد قوله، واذا حاولت أن تمنعنى فانى أرفع صوتى حتى يسمعنى السائق والوصيف . ولم أسمح لك بالركوب إلا لهـــذا الغرض نظرا لوجود شاهدين يرغمانك على

الإصغاء إلىّ ويحملانك على السكوت . فاصغ إلىّ . لقد كنت دائما ثقيلا على نفسي ، وقد أظهرت لك ذلك دائما لأنني لم أكذب قط ياسيدى . وقد تزوجتني بالرغم مني ، وأرغمت والدىّ الفقيرين على أن يهباني اليك لأنك وافر الغنى ، وقد أرغماني على ذلك وأنا أبكى .

« واذًا فقد اشتريتني ، وما كدت أغدو في حوزتك ، وما كدت أبدأ أن أغدو لك صاحبة ، تريد أن توثق بك عراها وأن تنسى ما تلجأ اليه من التهديد والإرغام ، وأن أذكر فقط أنه يجب علىّ أن أكون لك زوجة مخلصة ، وأن أحبك ما استطعت ، حتى أصبحت أنت تضطرم غيرة : غيرة لم تعرف عن رجل ، غيرة جاسوس مرذولة شائنة ، حاطة بقدرك ، جارحة لى . ولم يمض على زواجى ثمانية أشهر حتى أصبحت ترتاب فى ارتكابى لكل الخيانات ، بل لقد لوحت لى بهذا ، فياللعار ! ولما كنت لا تستطيع أن تمنعني أن أكون حسناء وأن أروق ، وأن أوصف فى الأبهاء وكذا فى الصحف بأننى من أجمل نساء باريس ، فقد لجأت الى ما اعتقدت أنه يبعدنى عن الغزل ، وأخذت بتلك الفكرة الجهنمية ، وهى أن تجعلني أنفق حياتى فى حمل دائم الى حين يملكنى الإشمئزاز من جميع الرجال . آه لا تنكر ، فقد بعد ذلك عن فهمى مدة طويلة ، ثم حزرت بعد ذلك ، بل لقد فاخرت بذلك أمام أختك ، وقالته هى لى لأنها تحبنى ولأنها تثور لخشونتك .

« آه ! أتذكر شجارنا ؟ أتذكر الأبواب المحطمة والأقفال المكسورة ؟ أى حياة تلك التى حكمت بها على منذ إحدى عشر عاما . ثم إنى لا أكاد أحمل حتى يأخذك الإشمئزاز منى ، ولا أراك مدى اشهر ، إذ تبعدنى الى الريف فى قصر العائلة لكى أضع هنالك ولدى ، فاذا ما عدت حسناء صبوحة خلابة ، وساورنى أمل فى أن أعيش قليلا كما يجدر أن تعيش شابة غنية تنتهى الى الوسط الرفيع ، عاودتك الغيرة ، وعدت تطاردنى بتلك الرغبة الشائنة

البغيضة التى تضطرم بها الان الى جانبى ، وليست هى الرغبة فى امتلاكى ، اذ ما كنت لأمنع نفسى منك قط ، ولكنها الرغبة فى تشويهى .

«ولقد لاحظت غير بعيد هذا الأمر الشنيع الخفى ، ولاحظت أنك تحب أولادك بقدر ما تبغضنى ، وأن مخاوفك الشائنة تهدأ ويساورك الفرح كلما رأيتنى حاملا .

«أجل ، كم مرة شعرت بهذا الفرح ، وقرأته فى عينيك ، وحزرته ! ولقد كنت تحب أولادك كآيات لظفرك ، وليس كقطعة من دمك . أجل ! هم ظفرك على ، وعلى شبابى وجمالى وسحرى ، وعلى التهانى التى تغدق على . وأنت نفتخر بهذا ، وأنت تصحب أولادك للنزهة ، وتصحبهم الى المسارح لكى ترى بينهم ويقال عنك «أنعم به من أب ! » ...

وهنا أمسك الكونت بيدها بعنف وضغط عليها بشدة ألجأتها الى الصمت ، وبدرت منها أنة خفيفة .

وقال لها بصوت منخفض : إنى أحب أولادى أتسمعين ، ان ما اعترفت به لشائن بالنسبة لأم . ولكنك أنت لى ، وأنا السيد ... أنا سيدك . وفى وسعى أن أطلب اليك ما شئت متى شئت .. والقانون الى جانبى ... وفى صالحى .

وحاول أن يسحق أصابعها بيده الضخمة ، وحاولت عبثا وهى تمتقع ألما ، أن تسحب يدها ، وأرغمها الألم على الأنين ، وبدر الدمع من عينها .

فقال لها : أنت ترين جيدا أننى السيد وأننى الأقوى .

وإذ خفف ضغطه قليلا قالت : هل تعتقد أننى تقية ؟

فأجابها مندهشا : بلى .

قالت : هل تظن أننى أؤمن بالله .

— بلى .

— وهل تظن أنى أكذب فى يمين القيها أمام هيكل مقدس ؟
— كلا .
— هلا صحبتنى الى الكنيسة ؟
— ولمـاذا ؟
— سوف ترى، فهل تريد ؟
— اذا أصررت فلا بأس .

فنادت السائق قائلة له : سق الى كنيسة سان فيليب دى رول .

وكانت العربة قد وصلت الى باب الغابة، فلوى السائق العنان ، وارتد الى باريس

وصمت الزوج والزوجة خلال الطريق . فلمـا وقفت العربة ببـاب الكنيسة، نزلت الكونتة ودخلت، وتبعها الكونت على قيد خطوات .

أما هى فذهبت توا الى باب المقدس، وركعت فوق كرسى ، وخبأت وجهها بيديها وأخذت تصلى .

ولبثت تصـلى طويلا، ورآها الكونت أخيرا تبكى . وكانت تبـكى صامتة كما يبكى النساء فى الأحزان الأليمة الكبرى . وكان جسمها يهتز كله، والأنين يختنق تحت أصابعها .

ورأى الكونت أن الموقف قد طال ، فمس كتفها بيده، فانتبهت كأنما أصابها مس النار، ونهضت وحدقت مليا فى عينيه وقالت :

«اليك ما أريد قوله : لست أخشى شيئا، وفى وسعك أن تفعـل كل ما تريد، بل لك أن تقتلنى اذا شئت . إن أحد أولادك ليس لك . وأقسم لك بهذا أمام الله الذى يسمعنى هنا . وقد كان هذا هوالانتقام الوحيد الذى ارتكبته فى حقك ، وارتكبته ضـدّ استبدادك الشنيع ، ضدّ هذه الأشـغال الشاقة التى حكمت بها على . فمن كان خليلى؟ هذا ما لن تعرف أبدا، وسوف

تشك فى جميع الناس ، ولكنك لن تظفر بأثره . ولقد استسلمت اليـه دون حب ودون مسرة ، لكى أخونك فقط ، ولكنى حملت منـه أيضا . فمن هو ولده ؟ هذا ما لن تعرف . فلى سبعة أولاد ، وعليك أن تبحث عنه بينهم . وقد كنت أعتزم ألا أفضى اليك بذلك الا بعد زمن طويل جدا ، اذ لا يتحقق الإنتقام من رجل فى حالة الخيانة ، الا اذا وقف عليها ، ولكنك أرغمتنى على الإفضاء اليك اليوم .

ثم هرولت خلال الكنيسة نحو الباب ، منتظرة أن تسمع وراءها الزوج المهان مهرولا ، وأن تلق بها قبضته القوية على افريز الشارع . ولكنها لم تسمع شيئا ، وصعدت الى عربتها ، تضطرم جزعا ، وترتجف خوفا ، وصاحت بالسائق : «الى المنزل» .

فسارت الخيل خببا .

٢

لجأت الكونتة دى مسكاريه الى غرفتها ولبثت تنتظر ساعة العشاء كما ينتظر المحكوم عليه بالإعدام ساعة اعدامه . ترى ماذا سيفعل ؟ وهل عاد ؟ وما الذى دبره وأعدّه واعتزمه ، وهو ذلك الطاغية المغرق المتأهب لكل عنف ؟ لم يرتفع صوت فى المنزل ، ولبثت ترمق عقارب الساعة فى كل برهة . وجاءت الوصيفة لتساعدها على زينة المساء ، ثم انصرفت . ولما دقت الساعة الثامنة ، قرع بابها قرعا خفيا ، وظهر رئيس الحشم وهو يقول :

لقد أعدّ العشاء يا سيدتى الكونتة .

قالت : هل عاد الكونت ؟

أجاب : أجل يا سيدتى ، وهو فى غرفة الطعام .

فخطر لها مدى برهة أن تتسلح بمسدّس صغير كانت قد اشترته استعدادا للمأساة التى تحفز فى قلبها . ولكنها ذكرت أن الأولاد سيكونون جميعا هنالك ،

فلم تحمل معها غير زجاجة من الأملاح المنبهة .

ولما دخلت القاعة ألفت زوجها ينتظر واقفا بجانب كرسيه، فتبادلا تحية خفيفة وجلسا . واتخذ الأطفال مقاعدهم . فجلس الأبناء الثلاثة مع مربيهم الأب ماران عن يمين الأم ، وجلس عن يسارها البنات الثلاث مع مربيتهم الآنسة سميث ، وترك الطفل الرضيع مع مربيته . وكانت كبرى البنات في العاشرة، وصغراهن في الثالثة؛ وكلهن شقراوات حسناوات . وأما أكبر الأولاد فكان في التاسعة؛ وكلهم أقوياء .

غلب على الكونتة انفعال لم تتوقعه؛ فلبثت خافضة العينين في حين أخذ الكونت يتأمل الأبناء الثلاثة حينا؛ والبنات الثلاث حينا آخر؛ بنظرات مريبة تجول من رأس الى آخر ويعذبها الجزع . ثم انقلب كأس الكونت فجأة وانكسر، فرفعت الكونتة عينها وتلاقت عيناهما لأول مرة؛ ولبثا يتبادلان النظرات رغما عنهما، ورغما عن انكماش فؤادهما؛ ولاحظ الأب أن هنالك اضطرابا لم يدرك سببه؛ فحاول أن يفتح بابا للحديث ولكنه قلب عدة موضوعات دون أن يفوه أحدهما ببنت شفة .

وحاولت الكونتة بلباقتها النسوية أن تجيب أكثر من مرة ، ولكنها كانت تبحث عن الكلمات في ذهنها عبثا، وكأنما كان يروعها صوتها إذا ارتفع في تلك القاعة الشاسعة، التي لا يدوى فيها غير صوت الملاعق والصحون . غير أن الكونت ارتد نحوها فجأة وقال : أتقسمين لي في هذا المكان وفي وسط أولادك على صدق ما صرحت به الي ؟

فثار بها الغضب المختمر في عروقها، وحدجته بشدة ، وأجابت وهي تبسط يديها؛ احداهما نحو البنين الثلاثة ، والأخرى نحو البنات الثلاث ، بصوت ثابت قوي : أقسم برأس أولادي أنني قلت الحق .

فنهض الكونت عندئذ، وألقى فوطته على المائدة بغضب ، وجذب

كرسيه نحو الجدار، ثم خرج دون أن يفوه ببنت شفة .

أما هي فقد أرسلت زفرة عميقة كأنها تحيي ظفرها الأول، وقالت بصوت هادىء : لا تجزعوا يا أبنائى الأعزاء، فقد أصاب والدكم حزن شديد، وما زال يتألم كثيرا، وسوف يغيب عنا بضعة أيام .

ثم أخذت تحادث الأب ماران والآنسة سميث، وتغدق على أولادها عبارات العطف والملاطفة .

ولما انتهى العشاء ذهبت مع الجميع الى البهو، ولبثت حينا تتلو القصص على الصبية، ثم قبلتهم، وصرفتهم للنوم، وآوت وحيدة الى غرفتها .

ولبثت تنتظر كأنها لم تكن تشك فى قدومه . أما الآن وقد بعد عنها أطفالها، فقد اعتزمت أن تدافع عن جسمها، كما دافعت عن حياتها كامرأة رفيعة، ولهذا خبأت فى جيب ثوبها مسدسها الصغير .

وتعاقبت الساعات وخمدت كل حركة فى المنزل، ولبثت تنتظر متحفزة متهيجة، دون خوف ولا وجل، متأهبة لكل شيء، ظافرة لأنها ألفت له عذابا يضنيه كل لحظة ومدى الحياة .

ولكن الفجر أخذ ينبثق من وراء الحجب دون أن يأتى، فأدركت عندئذ ذاهلة أنه لن يأتى، فأغلقت بابها بالقفل والمزلاج وتمددت أخيرا فى فراشها، مفتوحة العينين، مفكرة، لا تفقه بعد، لا تدرى ماذا سيصنع .

وفى الصباح، حينما حملت اليها وصيفتها الشاى، قدمت اليها خطابا من زوجها، وفيه ينبئها بأنه اعتزم أن يقضى سفرة طويلة جدا، وان مسجله سيقدم اليها كل ما يلزم من المال .

٣

كان ذلك فى الأوبرا فى فترة الاستراحة، وقد وقف الرجال فى حلبة الموسيقى، وقبعاتهم وقمصانهم الناصعة تبدو من الصديريات المفتوحة، مرصعة

بالذهب والجواهر، يسرحون البصر فى المخادع (الألواج) الغاصة بنسوة عاريات النحور والصدور، مزدانات باللآلىء والجواهر، وكأنما يدعو جمال وجوههن ونصوع أكتافهن، النظرات، وسط الموسيقى والأصوات .

وكان ثمة صديقان ، أدارا ظهريهما «للاركستر» يتأملان بالنظارة ، معرض هذا الجمال الحق أو الزائف ، ومعرض هذه الحلى ، وذاك الترف الذى يغص به المسرح الكبير .

فقال أحدهما ، وهو روچيه دى سالان لصديقه برنار جراندان : أنظر الى الكونتة دى مسكاريه ، فهى حسناء دائما .

فأرسل الآخر نظراته نحو مخدع مواجه تجلس فيه امرأة كبيرة القد ، تبدو عليها الفتوة ، وكانما جمالها الباهر يدعو الانظار من جميع الأركان . وكان لونها الشاحب يجعلها كالتمثال ، وشعرها الأدهم يزينه تاج صغير من الجواهر .

فتأملها جراندان برهة وأجاب بلهجة اليقين : أوافقك على أنها حسناء .

— ترى كم تبلغ الآن من العمر ؟

— إنتظر ، فأقول لك بالضبط ، فإنى أعرفها منذ الحداثة ، وقد رأيتها تبدأ الحياة فتاة ، انها فى السادسة والثلاثين .

— يلوح أنها ما زالت فى الخامسة والعشرين .

— لقد رزقت سبعة أولاد .

— هذا مستحيل .

— وكلهم أحياء ، فهى أم كاملة . أما عن منزلها فهو دائما وافر السكينة والنظام . وهى تحقق مشكلة الأسرة الرفيعة .

— هذا غريب ! ألم يذع عنها شىء ما .

— أبدا .

— ولكن زوجها رجل غريب أليس كذلك ؟

— أجل ولا . فقد حدثت بينهما على ما يلوح مأساة صغيرة لا يشعر بها أحد، ولا يعلمها أحد بالضبط، ولكن يمكن التكهن بها عن كثب . ولست أعرف أنا شيئا عنها . ولكن مسكاريه قد غدا اليوم جوالا مرحا، بعد أن كان زوجا كاملا . وقد كان أيام استقامته الزوجية شنيع الخلال، كثير الكآبة، ولكنه مذ خاض المرح تبدلت خلاله، ولكن يلوح أنه ذو هم أو حزن، وهو لذلك يفرط فى السهر .

وتحدث الصديقان بعد ذلك بضع دقائق عن الآلام الخفية التى قد يثيرها التباين فى الخلال أو النفرة المادية فى قلب الأسرة .

ثم قال دى سالان وهو لا يزال يتأمل الكونتسة دى مسكاريه : لست أفهم كيف أن هذه المرأة جاءت بسبعة أولاد .

— أجل، فى إحدى عشر عاما . ثم اختتمت أعوام انتاجها فى الثلاثين لكى تبدأ عهد التمثيل الباهر الذى يلوح أنه لن ينتهى .

— وارحمتاه للنساء .

— ولماذا تشفق عليهن ؟

— لماذا؟ تأمل أيها العزيز حالة امرأة تنفق إحدى عشر عاما فى الحمل . تبا له من جحيم ! ان الشباب كله، والجمال كله، وأمل النجاح كله، وكل المثل الشعرية للحياة الباهرة، يضحى بها فى سبيل قانون الإنتاج الشنيع الذى يجعل من المرأة العادية آلة بسيطة لإنتاج المخلوقات .

— وماذا تريد ؛ فهذا حكم الطبيعة .

— أجل ؛ ولكنى أقول ان الطبيعة عدوتنا، وانه يجب أن نقاتلها دائما لانها تردنا الى الحالة الحيوانية . وكل ما هنالك من جمال وإناقة وإبداع فى الأرض، لم يكن من صنع الطبيعة، بل من صنع الرجل، وصنع الذهن البشرى . فنحن الذين قد أدخلنا فى الخليقة، بالترنم بها، وبتفسيرها، وبالإعجاب بها فى شعرنا،

وتمثيلها فى فنوننا ، و بحثها فى علمنا ، شيئا من الظرف والجمال والسحر والخفاء . ولم يوجد فى العالم غير مخلوقات خشنة ، تفيض بالجراثيم والأمراض ، تقطع بضعة أعوام من الإزدهار الحيوانى ، ثم تشيخ فى الأمراض ، وكل ما يسبغه الإنحلال البشرى من عجز وسقم . والظاهر أن الانسان لم يخلق إلا لكى ينتج فقط ، ثم يموت كحشرات الصيف الطائرة . أقول أجل ! إنه لم يخلق إلا للإنتاج فأى شىء أشنع فى الواقع من انتاج المخلوقات على هذا النحو المضحك الشائن ، الذى تثـور له كل النفوس الرقيقة ، وسوف تبـقى ثائرة الى الأبد ؟ ولمـاذا لم يوهب الإنسان طرقا ووسائل أنق للقيام بهذه المهمة المقدّسة ، التى هى أنبل الوظائف البشرية ؟ ان الفم الذى يغذى الجسم بالعناصر المـادية ، يذيع الكلام والفكر أيضا ، و به يزدهر الجسم وتتصل الفكر . والإنتعاش الذى يحمله الهواء الى الرئتين يمد الذهن بكل عطر فى العالم ، عطر الزهر والغاب والشجر والبحر . والأذن التى تصل ما بيننا ، قد ساعدتنا على اختراع الموسيقى ، وخلق الحـلم والسعادة واللانهاية . ولكن يلوح لنا أن الطبيعة قد أرادت أن تمنع الإنسان الى الأبد ، من أن يجعل من لقاء الرجل والمرأة مثلا عاليا نبيلا . ومع ذلك فقد وجد الإنسـان الحب ردا على الطبيعة وملأه بالشعر . وقد استطاع أولئك الذين لا يخدعون أنفسهم فى الهيام ، أن يخترعوا الرذيلة وأن يصقلوا الفجور والملاذ ، وهو رد آخر على الطبيعة ، واجلال وخ للجمال . إن المخلوق العـادى ينتج الأطفال كالحيوان . فتأمل هذه المرأة ، أليس من المروع أن يتصور الإنسان أن هذه الحلية ، هذه اللؤلؤة التى ولدت لتكون حسناء تعبد وتثـير الإعجاب ، قد أنفقت إحدى عشر عاما من عمرها فى انتـاج ورثة للكونت دى مسكاريه ؟

فقال جراندان ضاحكا : فى كل ما قلت كثير من الحقيقة ، ولكن كثيرا من الناس لن يفهموك .

فقال سالان فى حماسة : يكفى أن نتأمل لحظة لكى نفهم أن هذا العالم لم يجعل لمخلوقات مثلنا . ان الفكر يتفتح ويتسع بأعجوبة عصبية من الخلايا التى فى رأسنا، وهو رأس عاجز جاهل يجعل منا جميعا، نحن المفكرين، أشقياء الى الأبد، منفيين فى هذا العالم . ألا فتأمل هذه الأرض وانظر لمن وهبها الله . ألم توهب للحيوان وتعمر به؟ ماذا نفوز به منها نحن؟ لا شيء . فللحيوان كل شيء، له الكهوف، والشجر، والورق، والمنابع، والغذاء، والشراب . وأولئك الذين تصعب الحياة عليهم مثلى، لا يجدون فيها خيرا . أما أولئك الذين يقتربون من الحيوان فهم الراضون . أما الآخرون وهم الشعراء، وذوو الرقة، والهائمون، والباحثون والجزعون، فوارحمتاه لهم !

«إنا نأكل الخضر والبقول لأننا نرغم على أكلها، بيد أنها غذاء المعز والأرنب وغذاء البقرة والحصان . إن الحيوانات لا عمل لها إلا أن تعيش فى الأرض، فهى فى منازلها تقيم وتأكل، وليس عليها الا أن ترعى أو تصيد . أما نحن فعلينا أن نعمل، وأن نبذل الجهد والصبر والاختراع والخيال والبراعة والعبقرية؛ ومع ذلك فانظر كيف ترغمنا الطبيعة على الحياة الخشنة التى تنقصها النظافة والرفاهة والإناقة والتى لا تكاد تخلق بنا .

«وكلما تقدمنا فى المدنية والذكاء، وجب علينا أن نخضع الغريزة الحيوانية التى تمثل فينا ارادة الطبيعة .

« فتأمل كيف وجب علينا أن نخترع الحضارة التى تضم كثيرا من الأشياء من كل نوع : من الحذاء الى التليفون، وانظر الى ما نراه كل يوم، وما نستخدمه فى مختلف الأمور .

«ولقد توسلنا الى تحسين مصيرنا، باختراع كل شيء وصنع كل شيء، فمن المنزل، الى الطعام الشهى، الى الحلوى، والمشروبات، والأقمشة والأثاث والرياش والحلى والآلات التى لا تحصى؛ كذلك اخترعنا الفنون

والعلوم والكتابة ، وأنجبنا الشعر والموسيقى ، فكل المثل العليا من صنعنا ، وكذا كل ما فى الحياة من رقة وعظمة ، من زينة المرأة الى براعة الرحل .

«انظر الى تلك المرأة ـــ الكونتة دى مسكاريه ، فقد خلقها الله لتعيش فى كهف ، عارية أو متدثرة بجلود الحيوان . ولكن أليست أبدع هكذا ؟ وبهذه المناسبة أتدرى ، كيف ان زوجها الفظ ، بعد أن حصل عليها ، وأولدها سبع مرات ، قد نبذها بغتة ليجرى وراء الغانيات ؟

أجاب جراندان : ربما كان هذا أيها العزيز السبب الوحيد . فقد انتهى الى أنه من الصعب عليه أن ينام دائما فى منزله ، ورأى أن واجب الاقتصاد المنزلى ، يقضى عليه باتباع نفس المبادئ التى تضعها أنت للفلاسفة .

وهنا قرعت الدقات مؤذنة بابتداء الفصل الأخير . فارتد الصديقان الى مقعديهما ، ورفعا قبعتيهما وجلسا .

٤

جلس الكونت والكونتة دى مسكاريه صامتين جنبا الى جنب فى العربة التى تحملهما الى المنزل ، ولكن الكونت ما لبث أن قال بغتة : يا جبرابيل .

قالت : ماذا تريد ؟

— ألا ترين أن هذا الأمر قد طال ؟

— وما هذا اذًا ؟

— ذلك العذاب المروع الذى قضيت به على منذ ستة أعوام .

— وماذا تريد ، فلست أستطيع شيئا ؟

— ألا تقولى لى أخيرا من هو ذلك الولد ؟

— كلا ، أبدا !

— اذكرى أننى ما عدت أستطيع رؤية أولادى أو أشعر بهم بالقرب

مني دون أن يمزقني الشـك . فقولي لي من هو ؟ وأقسم لك أني أعفو عنك وأعامله كالباقين .

— ليس يحق لي هذا .

— ألا ترين أني لا أستطيع بعد أن احتمل هذه الحياة، وهذه الفكرة التي تنهشني، وهذا السؤال الذي أضعه لنفسي دائما ويعذبني كلما رأيت أولادي . اني أكاد أجن لهذا .

فقالت : وهل تألمت اذا ؟

أجاب : أروع الألم . وهل كنت أقبل دون هـذا، روعة العيش الى جانبك، وروعة شعوري بأنه يوجد بين أولادي واحد، لا أستطيع الاعتراف به، ولكنه يمنعني من حب الآخرين .

قالت : اذا لقد عانيت حقا وكثيرا .

فأجاب بصوت يشف عن الكآبة والألم : اني أكرر لك كل يوم أني لا أستطيع احتمال هذا . وإلا فهل كنت أعود الى هذا المنزل الى جانبك وجانبهم ، اذا لم أكن أحبهم ؟ لقد تصرفت في حق أشنع التصرف . أني أهب أولادي كل ما في قلبي من حب . وأنت تعرفين هذا . وإني لهم كأب من آباء العهد القديم ، كما أني كنت لك زوجا من أزواج العهد القديم ، لأني بقيت رجل غريزة، ورجل الطبيعة القديم . أجل، لقد أثرت في نفسي غيرة هائلة، لأنك امرأة من جنس آخر وروح آخر، ولك حاجات أخرى . أجل، لست أنسى مدى الدهر ما قلته لي . فمن ذلك اليوم تركت كل اهتمام بك ، ولم أقتـلك حتى لا تفلت من يدي الوسـيلة الوحيدة لمعرفة الولد الزائف . وقد انتظرت، ولكني عانيت أروع مما تتصورين لأني لم أجرؤ بعد أن أتهم أحدا منهم اللهم إلا الولدين البكرين ، ولم أعد أسـتطيع أن أراهم أو أناديهم أو أعانقهم أو أجلسهم في حجري دون أن أقول لنفسي : «هذا هو» . وقد كنت

مع ذلك رقيقا فى حقك مدى ســتة أعوام ، فقولى لى الحقيقة ، وأقسم لك انى لن ارتكب أمرا سيئا .

وحسب الكونت أنه يراها فى ظلام العربة منفعلة متأثرة ، وشـعر أنها ستتكلم أخيرا فقال : انى أتضرع اليك ، انى أتضرع اليك ...

فقالت : ربما كنت جانية أكثر مما تتصور ولكنى لم أستطع أن أمضى فى تلك الحياة المثيرة ، حياة الحمل ؛ ولم أجد غير وسيلة واحدة لكى أبعدك عن فراشى ، وقد كذبت أمام الله ، وكذبت ويدى مرفوعة فوق رأس أولادى ، لأننى ما خنتك قط .

فأمسك بذراعها فى الظلام كايلة أمسك به يوم نزهة الغابة المروعة ، وقال مضطربا : أهذا حق ؟

أجابت : أجل ! هو الحق .

ولكنه قال ، وهو يضطرم ألمـا : إن الشـكوك تحدق بى من جديد ، ففى أى يوم كذبت أمس أم اليـوم ؟ وكيف أصـدق امرأة بعد هـذا ؟ ولن أعرف قط أى خطة أسلك .

وهنا دخلت العربة فى فناء الدار ، فنزل الكونت ، ومد ذراعه لزوجتـه ليسندها حين صعود السلم . فلما وصلا الى الطابق الأول قال لها : هل أستطيع أن أتحدث معك برهة ؟

أجابت : هذا ما أرغب فيه كل الرغبة .

فدخلا الى بهو صغير ، أضاء الوصيف شموعه ، وانصرف .

ثم قال الكونت : كيف أعرف الحقيقة ، لقد تضرعت اليك ألف مرة لتتكلمى ، ولكنك بقيت صامدة جامدة لا تتحركين ، واليوم تقولين إنك كذبت . وقد تركتينى مدى ستة أعوام أعتقد صحة مثل هذا الأمر . بيد أنك تكذبين اليوم ، ولست أدرى لمـاذا ، ولكن ربما خامرتك بى رأفة .

فقالت بلهجة المخلص الواثق : لو لم أكذب لحملت فى الأعوام الستة الأخيرة بأربعة أولاد آخرين .

فصاح بها : أهكذا تتحدث أم ؟

فقالت : لست أشعر اطلاقا بأنى أم أولاد لم ألدهم ، ويكفينى أنى أم أولئك الذين رزقت بهم والذين أحبهم من كل قلبى . إنى ، بل نحن ياسيدى نساء من العالم المتمدين ، ولم نعد ، ولا نريد أن نكون بعد ، أولئك الإناث اللائى يعمرن الأرض .

ثم نهضت ، ولكنه أمسك بيديها قائلا : كلمة ، كلمة فقط ياجبرابيل . قولى لى الحقيقة .

قالت : لقد قلتها لك وما خنتك قط .

فحدق مليا فى وجهها البديع ، وعينيها الخضراوين ، وعندئذ شعر بغأة ، شعر فى نوع من الوحى أن هذا المخلوق لم يعد بعد امرأة خصصت لتخليد نسله .

ولكنه ثمرة كل أهوائنا الغريبة المعقدة ، التى ركبت فينا منذ العصور ، وحولت عن غايتها الأصلية السماوية ، فسارت هائمة نحو جمال روحى لايدرك . وإنهن لكذلك ، بعض أولئك اللائى يزدهرن لأحلامنا فقط ، متجملات بكل ما أودعت الحضارة فى الشعر ، وفى الترف الأمثل ، والدلال والسحر حول المرأة — ذلك التمثال الحى الذى يبعث الحياة ، كما تبعث الحمى الحواسية ، الأهواء المعنوية .

وقف الزوج جامدا أمام زوجه ، دهشا من ذلك الإكتشاف الغامض المتأخر ، باحثا فى حيرة عن سبب غيرته القديمة ، مضطربا فى فهم الأمر جميعه .

ثم قال أخيرا : إنى أصدقك ، وأشعر أنك لا تكذبين فى هذه اللحظة ، بل لقد لاح لى فيما مضى دائما أنك كنت كاذبة .

فمدت اليه يدها قائلة : اذا فنحن صديقان ؟

فتناول اليد وقبلها قائلا : أجل نحن صديقان . شكرا لك يا جبراييل .

ثم خرج ، وهو يتأملها دائما وقد سحره أنها بقيت على هـذا الحسن ، وشعر بانفعال غريب ، أشد وأروع من الحب الفطرى القديم[١] .

---

(١) هذه هى القصة الأولى من مجموعة L'Inutile Beauté وهو نفس عنوانها .

الناسك

ذهبنا مع الأصدقاء لنرى الناسك الشيخ الذى يقيم فى قبة قديمة تظللها الأشجار الباسقة وسط السهل الشاسع الذى يمتد من كان الى نابول .

وجعلنا عند العودة نتحدث عن أولئك النساك الدنيويين وغريب أطوارهم ، وقد كانوا كثيرين من قبل ، ولكن جنسهم ينقرض اليوم ، وأخذنا نبحث عن الأسباب النفسية ونتعرف طبائع الأحزان ، التى كانت تدفع بالناس فيما مضى ، الى وحشة العزلة .

فقال أحد أصحابنا بغتة : لقد عرفت فريدين ، رجلا وامرأة ؛ أما المرأة فلعلها ما زالت حية ، وكانت تسكن منذ خمسة أعوام طللا فى أكمة جبل قفو على ساحل كورسيكا ، يبعد عن الأحياء العامرة زهاء عشرين كيلومترا . وكانت تعيش هنالك مع خادمة لها ، فذهبت لرؤيتها . ولا ريب أنها كانت سيدة من الطبقة الراقية ، لأنها استقبلتنى بحفاوة بل وفى ظرف رقيق ، ولكنى لم أعرف شيئا عنها ولم أحزر

أما الرجل ، فسوف أقص عليكم قصته الموحشة

ارتدوا بأبصاركم فترون هنالك تلك الأكمة المدببة الغاصة بالأشجار التى تنفصل فيما وراء نابول ، منفردة بنفسها فى مقدمة آكام «استيريل» وهى التى يسميها أهل تلك الجهة بجبل الثعابين . فهنالك كان يقيم «ناسكى» فى خرائب معبد قديم منذ زهاء اثنتى عشرة سنة .

وقد سمعت به فاعتزمت أن أتعرف به ، فذهبت إلى كان على ظهر الجواد ، ذات صباح من مارس . ثم تركت جوادى فى فندق نابول ، وأخذت أقطع سيرا ذلك المخروط الغريب الذى يرتفع عن الارض زهاء مائتى مترا ، وتغطيه النباتات العطرة ، حتى لقد يصيب المرء حين اختراقه الدوار لقوة أريجها ،

والأرض هنالك حجرية ينسل الى شقوقها كثير من الزواحف الصغيرة، ومن ثم سميت بأكمة الثعابين . وهنالك تروعك كثرة هذه الحشرات وتشعر كأنها تولد تحت قدميك . نخيل لى وأنا أصعد هذه الهضبة، انى أرقى جبلا عتيقا مقدسا، وتلا غريبا يغطيه العطر، وينبثق منه الخفاء، يغص بالأزهار، وتعمره الزواحف، وتتوجه خرائب المعبد .

وهذا المعبد ما زالت خرائبه قائمة، فقد أكد لى على الأقل أنه معبد؛ بيد أنى لم أحاول أن أبحث فى تاريخه أكثر من ذلك، احتفاظا بما خالجنى من انفعال وتأثر .

تسلقت الأكمة إذن فى ذات صباح من مارس، بحجة مشاهدة مناظر الطبيعة؛ فلما وصلت الى القمة رأيت الخرائب، ورأيت هنالك رجلا يجلس فوق حجر. ولم يكن تزيد سنة عن الخامسة والأربعين وان كان الشيب قد عم رأسه، ولكن لحيته ما زالت سوداء . وكان يداعب هرة تنام على ركبتيه وكأنه لم يلحظ مقدمى، فدرت حول الخرائب . وكان قسم منها مسقفا، موصدا بالأغصان والقش والأعشاب والحصى، وكان هذا مسكنه، ثم عدت الى جانبه .

والطبيعة هنالك بديعة جدا، فانك ترى جبل استريل ذا الآكام المدببة، ثم البحر الزخار، يمتد إلى ما بعد قيد البصر الى ايطاليا ورؤوسه العديدة . وترى أمام كان جزر ليران خضراء منبسطة وكأنها عائمة، وفى أنحاءها يقوم حصن قديم ذو أبراج بنيت فوق الموج ذاته .

وترى نحو الشرق جبال الألب وآكامها الشاهقه غائصة فى البرد .

فغمغمت قائلا، ما أجمل هذا !

فرفع الرجل رأسه وقال «أجل، ولكن المنظر يغدو عاديا اذا رأيته كل يوم» .

وإذن فقد كان يتكلم، وكان يتضجر .

ولم أمكث طويلا هنالك يومئذ، بل حاولت فقط أن أتعرف نفسيته، فشعرت بالأخص أنه مخلوق سئم عشرة غيره، وان نفسه تفيض من نفسه اشمئزازا وخيبة أمل .

فتركته بعد ان حادثته نصف ساعة . ولكني عدت بعد ثمانية أيام، ثم عدت ثالثة بعد أسبوع، ثم اعتدت أن أراه كل اسبوع، فلم يمض شهران حتى كنا صديقين .

ففى ذات مساء من آخر مايو رأيت الوقت قد حان، فحملت طعاما نتعشى به معا على أكمة الثعابين .

وكان مساء جنوب زاه منعش، من تلك الأمسية التى تزرع فيها الأزهار فى الجنوب كما يزرع القمح فى الشمال، فى تلك البلاد التى تصنع فيها كل الروائح التى تعطر لحم النساء وأثوابهن : أحد هذه الأمسية التى ترسل فيها بساتين البرتقال الكثيرة فى تلك الأنحاء شذاها، فتسحر الناس، وتبعث الحب الى قلب الشيوخ .

فاستقبلنى ناسكى بحيا يتهلل، وقبل أن يشاطرنى طعامى رحبا . فسقيته شيئا من النبيذ الذى اعتاد مقاطعته منذ أعوام . فانتعش وأخذ يحدثنى عن حياته الماضية . والظاهر أنه كان يسكن باريس دائما، وكان ينفق أيامه أعزب طروبا .

ثم سألته بغتة: أى خاطر غريب ساقك الى أن تنقطع فوق هذه الأكمة؟

فأجابنى على الأثر: آه، ذلك لأنى أصبت بشر صدمة يصاب بها امرؤ . ولكن لم أكتم عنك هذه النكبة ؟ انك قد ترثى لى . ثم إنى لم أفض بسرى الى أحد، لم أفض به قط وأريد أن أعرف مرة ماذا يرى فيه غيرى ؟ وبم يصدر حكمه على" ...

لقد ولدت فى باريس ، وربيت فيها ، فترعرعت وعشت فى هذه المدينة . وترك لى والدى بضعة آلاف من الفرنكات ايرادا ، ثم ان كبيرا ساعدنى على الالتحاق بوظيفة متواضعة هادئة ، كانت ثروة بالنسبة لأعزب .

وقد عشت منذ حداثتى عيشة أعزب . وأنت تعرف ما هى . وإذ كنت حرا لا أسرة لى ، وإذ كنت أعتزم ألا أتخذ زوجة شرعية ، فقد كنت أنفق ثلاثة أشهر مع واحدة ، وسنة مع أخرى ، ثم سنة بلا صاحبة أخوض فيها جماعة البنات الساقطات أو اللاتى يُبعن .

وكانت هذه الحياة الوضيعة ، المبتذلة اذا شئت ، تلائم أذواقى الطبيعية من التقلب والمرح . فكنت أعيش فى الشوارع ، وفى المسارح والمقاهى ، دائما فى الخارج ، لا أؤم منزلى تقريبا مع أنى كنت أتخذ مسكنا حسنا . كنت أحد هذه المخلوقات الجمة الذين يحملهم تيار الحياة فيستسلمون اليه ، والذين يرون فى جدران باريس جدران العالم بأسره ، والذين لا يهتمون لأمر ، ولا يشغفون بشىء . كنت ما يسمونه فتى حسنا لا خلال له ولا نقائص . هكذا كنت ، وحكمى صحيح .

وهكذا لبثت حياتى من العشرين الى الأربعين ، تمر بطيئة سريعة ، لا يشوبها حادث بارز . ولما كانت أعوام باريس المتماثلة تمر سريعة ، فقلما يرسخ فى الذهن من تلك الأعوام الطويلة العاجلة ذكرى أو تاريخ معين ، ولا غرو فكلها مبتذلة طروبة ، تقضى فى الشرب والأكل والضحك الذى لا تدرك له سرا ، وفى تقبيل الشفاه التى تقدم لكل ذائق ومقبل . ولأنت فتى ، فاذا بك تهرم دون أن تؤدى شيئا مما يؤديه الآخرون : دون أن ترتبط أو تتصل ، أو ترسخ قدمك فى شىء ، ودون أن يكون لك صحب أو أهل أو نساء أو أولاد .

وهكذا وصلت الأربعين فى رفق وعجلة معا . واعتزمت للاحتفاء بهذا

العيد، أن أقدم لنفسى فقط، عشاء طيبا فى مطعم كبير. ولا غرو فقد كنت وحيدا فى العالم، ولذا سرنى أن أحتفل بهذا التاريخ وحدى .

وبعد العشاء ترددت فيم أصنع . فكرت أولا أن أذهب الى المسرح، ثم خطر لى أن أذهب حاجا الى الحى اللاتينى، الذى أتممت فيه دراستى للحقوق فيما مضى . فاخترقت باريس، وازدلفت بلا عمد، الى احدى هاته الحانات التى تخدم فيها البنات .

وكانت تلك التى تعنى بمائدتى فتيـة جدا، حسناء، ضاحكة؛ فقدمت اليها شرابا تناولته للحال؛ وكانت تجلس تجاهى، وتحدجنى بعينها الثاقبة، دون أن تعرف أى رجل هـذا الذى ترى . وكانت شـقراء نضرة جدا، تخيلتها وردية عبلة، تحت ثوبها المنتفخ . فأفضيت اليها بعبارات غرامية سخيفة، من تلك التى تقال دائمـا لهاته المخلوقات . ولمـا كانت ساحرة حقا، فقد خطر لى بغتة أن أصطحبها ... وذلك حبا فى الاحتفاء بالأربعين كذلك .
ولم يكن الأمر طويلا أو عسـيرا، فقد كانت حرة منذ خمسة عشر يوما على قولها، فقبلت أن تأتى أولا للعشاء فى (هال) بعد أن ينتهى عملها .

ولمـا كنت أخشى ألا تبر بوعدها، اذ ليس يعلم انسان قط ماذا عسى يحدث فى هذه الحانات، أو ماذا تهب من الرياح فى رأس امرأة، فقد لبثت أنتظرها طول السهرة . وكنت حرا أيضا، منذ شهر أو اثنين، فكنت أحدج هذه الحسناء، البادئة فى الحب وهى تسير من مائدة الى أخرى، لأرى ماذا كنت قد أحسنت صنعا باستئجارها الى حين .

انى أقص عليك إحدى هاته المخاطرات اليومية العامة، التى هى ظاهرة لحياة الرجل فى باريس، ولكن أصفح عن هذه التفاصيل المملة . ذلك لأن أولئك الذين لم يحبوا الحب الشعرى، يأخذون النساء ويختاروهن، كما يختارون ضلع الضأن فلا يفكرون فى غير مزايا لحمه .

اصطحبتها عندها اذن، وليس عندى، لأنى كنت أحترم فراشى؛ فوجدتها تسكن جناح عاملة صغير، فى الطبقة الخامسة، نظيفا وضيعا . وقضيت هنالك ساعتين ساحرتين، والحق أنها كانت ذات ظرف وسحر نادرين .

ولما هممت بالذهاب تقدمت نحو المدفأ لأضع فوقه الهبة المعتادة، وذلك بعد أن ضربت معها ميعادا آخر، فخانت منى التفاتة الى وعائين من الزهر، وصورتين، احداهما قديمة جدّا ومن الطراز القديم، فانثنيت نحوها عرضا، ووقفت جامدا صعقا لا أفهم . ذلك لأنها كانت صورتى ومن أوليات صورى، التى كنت أصنعها حينما كنت أعيش طالبا فى الحى اللاتينى .

فامسكتها بلهفة لأفحصها عن كثب، فلم أك مخطئا، وغلبنى الضحك لأنى رأيت الأمر مفاجأة غريبة مضحكة وسألتها : من هذا السيد ؟

فأجابتنى وهى ما تزال فى الفراش، هذا أبى الذى لم أعرفه . وقد أعطتنى إياه والدتى وأوصتنى بالمحافظة عليه لعل ذلك ينفعنى ذات يوم ...

ثم تردّدت وأخذت تضحك وهى تقول : « ولست أدرى بم ينفع، ولست أظن أنه سيأتى ليعترف بى » .

وكان قلبى يخفق عندئذ بشدّة كأنه خبب جواد جامح . فوضعت الصورة على ظهرها فوق المدفأ، ثم وضعت فوقها دون أن أدرى ماذا أصنع ورقتين بمائتى فرنك كانتا فى جيبى، وفررت قائلا : « الى اللقاء يا عزيزتى، الى اللقاء ! » .

فسمعتها تقول : « الى يوم الثلاثاء » . وكنت فى السلم المظلم أقطعه تلمسا .

فلما صرت خارجا، رأيت المطر ينهمل، فانحدرت مسرعا الى أحد الشوارع، وكنت أسير أمام نفسى ذاهلا مرتاعا أحاول التذكر . أممكن هذا؟ نعم ذكرت بغتة أن فتاة كتبت لى ذات مرة بعد نحو شهر من فراقنا أنها

تحمل منى فمزقت الخطاب وأحرقته ونسيت كل ذلك . وكان واجبا أن أفحص صورة المرأة التى فوق مدفأ الفتاة . ولكن أكنت أعرفها؟ اذ يلوح لى أنها كانت صورة امرأة عجوز .

ووصلت الى ضفة النهر، فارتميت على مقعد وكان المطر ما زال ينهمل، والناس يمرون من وقت لآخر تحت المظلات . فتبدت لى الحياة كريهة مثيرة غاصة بصنوف البؤس والخزى والعار، الظاهرة أو المستترة . ابنتى ! لعلى قد ملكت ابنتى . وباريس تلك المدينة الكبرى المظلمة الموحشة، المتعرجة الكئيبة، السوداء، وكل ما فيها من المنازل المغلقة، انما تفيض بأمثال هذه الأمور، تفيض بالفسق، وعشرة المحارم، وانتهاك الأولاد .

وأذكر أنى سمعت ما يقال عن بعض أولئك الأوغاد السفلة . ولكنى قد ارتكبت دون عمد ودون علم، أشنع ما يرتكبه هؤلاء . لقد دخلت فى فراش ابنتى !

وكدت ألقى بنفسى فى النهر، كنت مجنونا فجعلت أهيم على وجهى حتى الصباح ثم عدت الى منزلى لأفكر .

وصنعت عندئذ ما رأيته خير الحلول، فرجوت مسجلا أن يدعو الفتاة اليه، وأن يسألها عن الظروف التى تركت لها فيها أمها صورة ذلك الذى تعتقد أنه والدها، قائلا أننى كلفت بذلك من صديق، فنفذ المسجل ما أردت . وكان أن تلك المرأة قد عينت لا بنتها صورة والدها، وهى تعالج سكرات الموت وذلك أمام كاهن ذكر اسمه . فعندئذ باسم ذلك الصديق أيضا، وهبت للفتاة نصف ثروتى، وهو نحو مائة وأربعين ألف فرنك، لا تقبض سوى ريعها، ثم استقلت من وظيفتى وها أنا ذا .

رأيت وأنا أهيم فى تلك الأنحاء، تلك الأكمة فوقفت بها ... إلام؟ هذا ما أجهله .

فماذا ترى فى أمرى وفيم صنعت ؟

فأجبته وقد مددت يدى اليه : لقد صنعت ما كان واجبا أن تصنع ، وقد كان كثير غيرك يعلقون على ذلك القدر المشئوم أهمية أقل مما علقت .

فقال : هذا ما أعرف . ولكنى كدت أجن ، والظاهر أن كانت روحى حساسة جدا دون أن أدرى ، وقد خشيت باريس كما يجب أن يخشى المؤمنون من الجحيم ، وقد أصابتنى ضربة فى الرأس . ولكن نفسى قد برئت نوعا منذ حين .

فغادرت ناسكى وقد تأثرت لقصته كل التأثر .

ورأيته مرتين بعد ذلك ثم رحلت .

فلما عدت الى الجنوب فى العام التالى لم أجده فوق الأكمة ، ولم أسمع عنه بعد ذلك قط .

وهذه هى قصة ناسكى[1] .

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة La Petite Roque.

على القـــــبر

انتهى الأصدقاء الخمسة من تناول العشاء — وهم خمسة رجال، راقون، ناضجون، أغنياء، تزوج ثلاثة منهم، وبقى اثنان بلا زواج . وكانوا يجتمعون كل شهر لاستعراض ذكريات الشباب، ويتسامرون بعد العشاء حتى مطلع الفجر، ويطربون بهـذا الإجتماع أيما طرب، بل لعلهم يرون فيه أحسن أمسية فى حياتهم . وكان الحديث يدور على كل شئ يشغل الباريزيين ويسليهم . وكان أشدهم مرحا جوزف دى باردون، وهو عزب يحيا الحياة الباريزية على أكمل نحو وأظرفه . ولم يكن خليعا ، ولا ساقطا ، ولكنه كان متطلعا ، فرحا . وما زال شابا لأنه لم يجاوز أربعين . وكان رجلا أنيقا بكل معنى الكلمة، كثير الملح دون تعمق، ذا معارف متباينة دون متانة، وذا فهم يقظ دون نفاذ خطير . فكان يستخرج من ملاحظاته، ومغامراته، ومن كل ما رأى ووجد، قصصا فلسفية مضحكة معا ، وتعليقات طريفة تجعل له شهرة واسعة بالذكاء .

وكان خطيب العشاء . وكان له فى كل مجال قصة يرويها دون أن يرجوه أحد .

وكان يدخن، معتمدا بمرفقيه على المائدة ، وأمامه قدح نصف مملوء بالشمبانيا ، وجو الغرفة يتنفس عطر الدخان وحرارة القهوة . وكان يشعر فى هـذا المقام أنه دائما فى منزله، كما يشعر بعض الناس بذلك فى أمكنة وفى لحظات معينة، أو كالعابد فى زاويته .

قال فى نفثة من الدخان : لقد وقع لى منذ حين حادث غريب .

فقال الجميع فى صوت واحد : أرو لنا ذلك .

فقال : سمعا وطاعة . تعرفون أنى أكثر التجوال فى باريس، وأتربص

بالمناظر وبالناس، وبكل مار وكل حادث . ففي نحو منتصف سبتمبر كان الجو بديعا جدّا، فخرجت ذات عصر دون أن أعرف أين أسير . والمرء يأنس دائما رغبة غامضة في زيارة أية امرأة حسناء، فيسدد اختياره، ويقارن بينهن في ذهنه، ويزن ما يثرن فيه من اهتمام، وما يفرضن عليه من سحر، ثم يعتزم عزمه طبقا لما يوحى اليه . ولكن الشمس اذا كانت بديعة، والهواء فاترا، فإن رغبة الزيارة قلما تخطر لك .

وكانت الشمس بديعة، والهواء فاترا، فأشعلت سيكارا، وسرت متمهلا، وإذ قد خطر لى أن أستمر فى السير حتى مقبرة مونمارتر .

وإنى أحب المقابر كثيرا ، فهنالك تهدأ نفسى وتفيض كآبة . ونفسى فى حاجة الى السكينة والوحشة . ولنا هنالك أصدقاء أعزاء لا نراهم بعد . ولذا أذهب هنالك من وقت لآخر .

ولى فى مقبرة مونمارتر هذه أيضا حديث قلب : لى خليلة كانت فتاة ساحرة، تؤلمنى ذكراها، وتثير فى نفسى كل شجن ، فأذهب هنالك لأطلق العنان فوق قبرها لتصوّراتى ...

ثم انى أحب المقابر لأنها مدن عظيمة آهلة بالسكان . فتصوّروا كم ميت فى ذلك الفضاء الصغير من كل الأجيال ، يرقدون هنالك الى الأبد، فى تلك الأوكار الصغيرة التى تغطيها الحجارة أو يعينها الصليب ، بينما يشغل الأحياء أيما فضاء، ويثيرون أيما ضجيج .

دخلت مقبرة مونمارتر اذن ، وتولانى بغتة حزن عميق ، هو ذلك الذى يحملك على التفكير وأنت صحيح مرير : «إنه مقام روعة ولكن ساعتى لم تأت بعد» . وكان أثر الخريف، وما يحمل من تلك الرطوبة الفاترة التى تنبعث من الأوراق الذابلة، والشمس المتعبة الضعيفة الباهتة، يؤكد شعور الوحشة، ويثير فى النفس ذكرى تلك الخاتمة الأبدية التى ترفرف على هذا المكان .

فسرت بخطوات بطيئة فى تلك الشوارع الحافلة بالقبور، والتى لا يتجاور فيها الجيران بعد ولا يبيتون معا، ولا يقرأون الصحف . وجعلت أقرأ الأسماء المنقوشة على مهل .

وإنى لأعبد فى هذه المقبرة بالأخص، نأيها ووحشتها وقدمها .

فلما أنفقت هنالك من الوقت ما يكفى لترويح النفس ، خشيت أن أتضجر، ورأيت أن أحمل الى صاحبتى الذاهبة ذكرى الإخلاص والحب . وكان قلبى ينكمش حينما وقفت بقبرها . فوارحمتاه لهذه العزيزة المسكينة ، التى كانت تفيض رقة وحنانا ونعومة !

انثنيت فوق السياج الحديدى ، وهمست اليها بحزنى الذى لا تسمعه بلا ريب . وهممت بالذهاب، فلمحت امرأة ترتدى السواد ، وتجثو أمام القبر المجاور. وكان خمارها الأسود المرفوع ، يشف عن رأس أشقر بديع كأنما يضئ خصلاتها نور الفجر تحت ليل سواد ثيابها . فوقفت ، وخيل لى أنها تعانى حزنا عميقا، لأنها كانت تخبئ وجهها بين يديها، وترسل عنان تصوراتها كالتمثال ، أو كئيبة . ثم خيل لى بغتة أنها ستبكى، ثم بكت فى رفق أول الأمر، ثم علا بكاؤها، واهتز كتفاها زفيرا . ثم رفعت يديها عن وجهها بغتة فكانت عينها تفيض بالدمع والسحر ، عين هائمة أرسلتها حولها كأنها أفاقت من كابوس . فرأتنى أنظر اليها، وكأنما خجلت من ذلك فخبأت وجهها ثانية . وعندئذ تحوّل زفيرها الى تشنج، ومال رأسها ببطء على حافة الرخام، وأسندت جبينها اليه، وانفرد خمارها من حولها على زوايا القبر الأبيض كأنه حزن جديد . وسمعتها تئن ثم تسكن، وخدّها على الرخام، ثم تلبث جامدة فاقدة الرشد .

فهرولت اليها ، وأخذت أروح على جفنيها ، وأفرك يديها ، وأنا أقرأ على القبر «هنا يثوى لوى تيودور كاريل ، ضابط فى قسم المشاة البحرى ، قتله العدو فى طونكين . صلوا لأجله» وكانت الوفاة ترجع الى بضعة أشهر ،

فانقبضت نفسي حتى سال دمعي، وضاعفت عنايتي حتى أفاقت . وكان التأثر الشديد باديا على وجهي، ففهمت من نظراتها الأولى أنها وافرة التأدب والعرفان، ففاض دمعها ثانية، وأخذت تقص تاريخها بين الزفرات والدموع في عبارات متقطعة خارجة من صدرها المضطرب ، وكيف توفى الضابط الميت لعام واحد من زواجه، بعد أن تزوّجته حبا وهوى، لأنها كانت يتيمة الأب والأم .

فعزيتها وشجعتها وأنهضتها ثم قلت لها : هيا ولا تلبثي هنا بعد .

فقالت : لست أقوى على السير .

قلت : سأساعدك .

قالت : شكرا يا سيدي، إنك لكريم فهل أتيت مثلي تبكي ميتا ؟

أجبت : أجل يا سيدتي .

قالت : أميتة؟ أجبت : نعم يا سيدتي .

قالت أزوجة؟ أجبت كلا بل صاحبة .

قالت : قد يحب المرء صاحبته قدر ما يحب زوجه . وليس للهوى قانون .

قلت : أجل يا سيدتي .

وهكذا سرنا معا ، وهي تتكيء علي، وأنا أكاد أحملها في طرقات المقبرة. فلما خرجنا غمغمت متخاذلة : أشعر أني أكاد أسقط .

قلت : فهل تريدين أن ندخل محلا ما وأن نتناول هنالك شيئا ؟

أجابت : نعم يا سيدي .

فلمحت بالقرب مني مطعما ، هو أحد هذه المطاعم التي يؤمها أصدقاء الموتى للاحتفاء بانتهاء سخرتهم . فدخلنا ، ولما شربت قدحا من الشاي الحار، انتعشت قليلا ، وبدت على شفتيها ابتسامة غامضة . فحدثتني عن نفسها .

وكانت فى حالة مؤسسية جدا ، ولشدّ ما يؤسى أن تكون وحيدة فى الحياة ، وحيدة فى منزلها ، بالليل والنهار ، لا تجد من تغدق عليه عطفها وثقتها وحنانها .

وكان يبدو على محياها الصدق ، وكان ثغرها ساحرا ، حتى جاشت نفسى حنانا . وكانت فتية جدا ، قد لا تجاوز العشرين . فبدأت أقدم اليها تحياتى وهى تتقبلها شاكرة . ولما كان الوقت قد تأخر ، اقترحت أن أصحبها الى منزلها فى عربة ، فقبلت . وفى العربة التصق كل منا بصاحبه حتى اختلطت الثياب والحرارة ، وهو لعمرى أشد ما يثير .

فلما وقفت العربة بمنزلها غمغمت قائلة : أشعر أنى لا أستطيع الصعود وحدى لأنى أقيم فى الطبقة الرابعة . فهل تتفضل بمساعدتى حتى مسكنى؟

فبادرت بالقبول ، وأخذت تصعد ببطء . فلما وصلنا الى الباب قالت : ألا تدخل بضع دقائق حتى أستطيع شكرك ؟

فدخلت طبعا .

وكان مسكنها متواضعا ، بل تبدو عليه بعض مظاهر الفقر ، ولكنه بسيط حسن النظام .

فجلسنا جنبا إلى جنب ، وأخذت تحدثنى من جديد عن وحشتها .

ثم قرعت جرسا وأمرت خادمتها أن تقدّم لى شيئا لأشربه ، ثم لم تأت الخادمة بعد . فطربت لذلك لاعتقادى أنها من خادمات اليوم فقط .

وكانت قد رفعت قبعتها . وكان لها رأس ساحر حقا ، فأخذت تحدجنى بعينيها الصافيتين مليا ، حتى ملكتنى رغبة لم أستطع أن أقاومها ، فطوقتها بذراعى فجأة ، وانهلت لثما على عينيها اللتين أغلقتا فجأة .

وكانت تقاومنى وتدفعنى قائلة : ما هذا؟ ما هذا ؟

ماذا كانت تعنى هذه العبارة ؟ انها تعنى فى مثل هذا الظرف على الأقل أمرين . فحولت قبلاتى الى فمها مفضلا أن أفسر العبارة على ما اشتهى .

فلم تقاوم كثيرا . فلما التقت نظراتنا ثانية بعد الذى أسأنا به الى ذكرى الضابط الميت ، لاحت عليها امارات الفتور والخيال والاستسلام ، حتى تبدد كل ريب فى نفسى ، فغدوت شهما كثير العرفان . و بعد حديث مستفيض ، قلت لها : أين تتناولين عشاءك ؟

أجابت : فى مطعم صغير بالقرب من المنزل .

قلت : هل تتعشين وحيدة ؟

أجابت : نعم بالطبع .

قلت : هل تتعشين معى ؟

أجابت : وأين هذا ؟

قلت : فى مطعم من المطاعم الأنيقة .

فعارضت قليلا ، ثم رضيت أخيرا وهى تقول «انى أتضجر ... أتضجر كثيرا » ثم قالت : «يجب أن أرتدى ثوبا أقل كآبة من هذا» ثم دخلت غرفة نومها ، وعادت فى ثوب قاتم ظريف ساحر وفى زينة بسيطة .

وكان العشاء بهجا فشربت بعض الشمبانيا ، وانتعشت ، وأضاء محياها . ثم عدت معها الى منزلها .

واستمرت هذه العلاقة التى ارتبطت على القبور بضعة أسابيع . ولكن المرء يعاف كل شىء ولا سيما النساء . فتركتها محتجا بسفرة طارئة ، وأثبتها بكرم شكرتنى عنه أوفر الشكر ، وطلبت أن أعاهدها على العودة اليها متى عدت ، لأنها كانت ، على ما يلوح ، تخلص لى بعض الشىء .

و جريت وراء لذات أخرى ، ومر شهر قبل أن أفكر فى حبيبة القبور الصغيرة ، ومع ذلك فإنى لم أنسها ...

وكانت ذكراها تعاودنى ، وكأنها لغز أو معضلة نفسية أو احدى هذه المسائل التى نحار فى حلها .

ولا أدرى لم تصورت ، ذات يوم ، أننى سأراها فى مقبرة «ونمارتر» فذهبت الى هنالك .

ولبثت أتجول هنالك طويلا دون أن أقابل أحدا غير الزوار العاديين ، أعنى أولئك الذين لم يقطعوا بعد كل رابطة بالموتى . ولم يكن ثمة باكيات على قبر الضابط الذى قتل فى طونكين ، ولا زهور ولا أكاليل .

ولكنى إذ أتجول فى ناحية أخرى من تلك المدينة الحافلة بالموتى ، لمحت فجأة ، فى نهاية ممر ضيق ، شخصين يرتديان السواد : رجل وامرأة . واشتد ما كانت دهشتى حينما اقتربت المرأة وعرفتها : لقد كانت اياها .

فرأتنى واحمرت . وأشارت لى ، وأنا أمر الى جانبها ، بطرفها اشارة ذات مغزى ، وكأنها تقول لى « ألا تعرفنى » أو « عد الى يا عزيزى » .

وكان الرجل أنيقا ، يحمل وسام الشرف ، وفى نحو الخمسين من عمره . وكان يسندها ، كما كنت ، عند مغادرة المقبرة .

فعدت ذاهلا أسائل نفسى عما رأت ، والى أى جنس من البشر تنتمى هـذه الصائدة بين القبور : هل كانت حقا فتاة ساذجة ، أم كانت عاهرا ذكية ، تجتنى فوق القبور حزانى الرجال ، الذين يساورهم شبح امرأة : زوج أو خليلة ، وما زالت تؤسفهم ذكرى الخيال الذاهب ؟ وهل كانت وحيدة من نوعها ؟ أم تنتمى الى جماعة عديدة؟ وهل تلك مهنة ؟ وهل تجعل المقبرة كالافريز فيؤمها صائدات المقابر؟ أم هل ابتكرت من تلقاء نفسها تلك الفكرة البديعة ، ذات الفلسفة العميقة ، فى استثمار مؤسيات الحب التى تعاود جوانح المرء فى ذلك المكان الموحش ؟

وتالله كم وددت أن أعرف لمن كانت أرمل فى ذلك اليوم[1] .

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة La Maison Tellier

القـاتـل

كان يدافع عن المتهم محام فتى مبتدئ تكلم على النحو الآتى :

«ليست الوقائع منكورة ياحضرات المحلفين ، فموكلى وهو رجل شريف ، وعامل نزيه ، رقيق خجول قتـل مخدومه فى نزعة غضب لم أدركها . فهل تسمحون لى أن أصوّر لكم نفسية هذه الجريمة من غير ما تخفيف أو اعتذار؟ ثم احكموا بعد ذلك .

«ان چان نيكولا لوچير ولد أسرة شريفة جدا ، جعلت منه رجلا بسيطا محترما . وهذه جريمته : الإحترام ! تلك أيها السادة عاطفة لا نعرفها اليوم بعد ، ولم يبق منها سوى الاسم على ما يظهر ، وقد غاضت كل قوتها . ويجب أن ننفذ الى بعض الأسر المتأخرة المحتشمة ، لنظفر بأثر هذه الخلة الصارمة ، ذلك الإيمـان بالشيء أو الإنسان أو العاطفة أو العقيـدة يصطبغ بلون مقدّس ، أو ذلك الإيمـان الذى لا يقبل الشك ولا الابتسام .

« وليس فى وسع المرء أن يكون شريفا حقا بمعنى الكلمة ، إلا إذا كان محترما لغيره . والرجل الذى يحترم ، مغلق العينين . أما نحـن الذين سلطوا أعينهم واسعة على العـالم ؛ نحن الذين يعيشون هنا فى دار العـدل الذى هو مهبط المجتمع ، وفيـه تساقط كل الفضائح ؛ نحن الذين يفضى الينا النـاس بكل عار ؛ نحن المدافعون المخلصون عن كل سحيقة بشرية ؛ الذين يشدّون أزر كل ساقط وساقطة من الأمير الى الشريد ، والذين يستقبلون بالبشر والتسامح والابتسام كل آثم ندافع عنه أمامكم ؛ نحن الذين نشغف حقا بمهنتنا ونغدق ما يمزجها من عطف بنسبة فداحة الجرم — نحن لا نستطيع بعد أن تكون لنا روح محترمة ؛ فكثيرا ما نرى هذا التيار من السفالات يجرف رؤساء الحكم ، الى أحط الأوغاد ؛ ولذا فكثيرا ما نعرف كيف يحدث كل ذلك ، وكيف يسلم

كل شيء وكيف يباع كل شيء؛ وكثيرا ما نرى المناصب والوظائف والشرف تباع بطريقة وحشية، مقابل حفنة من الذهب أو مقابل أسهم أو أنصبة صناعية، أو بكل بساطة نظير قبلة امرأة . فواجبنا أو بالحرى مهنتنا ترغمنا على أن لا نجهل شيئا وأن نشك فى كل النـاس، لأن الناس كلهم مريبون، ومن ثم فإنا ندهش متى رأينا رجلا كالقاتل الذى يجلس أمامكم، يدين بدين الإحترام الى حدّ أن يجعل منه شهيدا .

« ونحن شرفاء أيضا أيهـا السادة، نزهاء لأنا نمقت السفالة؛ ولأن لنـا عاطفة كرامة شخصية وكبرياء . ولكنا لا نحمل فى أعماق قلوبنا ذلك الإيمان الأعمى الوحشى الراسخ كما يحمله هذا الرجل .

« اسمحوا لى أن أقص عليكم سيرته .

« ربى كما كان يربى الأطفال قديما على فكرة تقسيم كل الأعمال البشرية الى قسمين ماهو خير وما هو شر . وفهم الخير بشـدّة جعلته يميزه من الشر كما نميز النهار من الليـل؛ ولم يكن أبوه من أصحاب الأذهان الرفيعـة الذين ينظرون من عل، فيرون مصادر الإعتقاد ويعترفون بالضرورات الإجتماعية التى تولد منها هذه المميزات .

« وهكذا ترعرع متدينا، واثقا متحمسا، ضيق الذهن .

« ثم تزوّج فى سن الثانية والعشرين : زوّجوه بابنة عم له ربيت مثله على البساطة والنقاء . ورزق بهذه المصادفة التى لاتقدّر، وهى الفوز بزوج شريفة القلب، أعنى بمـا هو أرفع شيء فى العالم ومايغدو أندر فى كل يوم . وكان يجـل والدته ذلك الإجلال الذى يحف بالأمهات فى الأسر القـديمة أو بتلك العبادة العميقة التى تسـدى للآلهة، فنقل الى زوجه شيئا من ذلك الدين؛ وعاش يجهل النفاق كل الجهل فى استقامة مطبقة، وسـعادة هادئة جعلت منـه مخلوقا فريدا . وإذ لم يكن يخدع أحدا فقـد كان بعيدا عن

الإرتياب فى أن أحدا قد يخدعه كذلك .

« وكان قد التحق قبل زواجه بقليل ، صرافا عند المسيو لانجليه الذى قتله مؤخرا .

« ونحن نعرف يا حضرات المحلفين من شهادة مدام لانجليه وأخيها وشريك زوجها المسيو برتويس ، ومن شهادة كل الأسرة وكل الموظفين الكبار فى هذا البنك أن لوجير كان نموذجا للإستقامة والطاعة والرقة واحترام الرؤساء .

« وكان من أجل ذلك يعامل بما يستحق من الاعتبار ، كان معتادا على هذا التقدير اعتياده على مايقوم من إجلال لزوجه التى كان مديحها حديث كل إنسان .

« على أنها توفيت بالحمى فى بضعة أيام .

« فتولاه ألم عميق بلا ريب ، ولكنه ألم بارد هادئ اعتاده القلب المنتظم ، لم تبد بوادره إلا فى شحوب لونه وانكماش ملامحه .

« وعندئذ حدث أيها السادة أمر طبيعى جدا .

« ذلك أن هذا الرجل كان متزوجا منذ عشر سنين . وكان منذ عشر سنين قد اعتاد أن يجد المرأة الى جانبه دائما . كان معتادا عنايتها ، وذلك الصوت الأنيس يحييه مودّعا فى الصباح مرحبا فى المساء ، معتادا حفيف الثوب الحريرى الذى تعبده المرأة ، وتلك الملاطفات الغرامية أحيانا ، الأمومية أخرى ، التى تخفف أعباء الحياة وتجلو الغمة ، وتلك الصحبة المحبوبة التى تقتل أبطأ الساعات . كان معتادا كل لذائذ المائدة الناعمة ، وكل هذه الخدمات التى لا نشعر بها لكنها تغدو ضرورية شيئا فشيئا . فلم يعد يطيق الحياة منفردا . عندئذ اضطر لكى يقضى أمسيته الطويلة ، أن يعتاد الذهاب الى مقهى قريب ينفق فيه بعض الوقت ، فكان يشرب قدحه ، ويلبث جامدا ، يرقب بعينه الشاردة كرات البليارد تتعاقب راكضة تحت دخان السجائر ،

ويصغى الى صخب اللاعبين دون تفكر ، والى مناقشات جيرانه فى السياسة ، والى الضحك الرنان تثيره أحيانا مزحة ثقيلة فى إحدى زوايا البهو . وقد يغلبه التعب والضجر فينام فى مكانه . على أنه كان يشعر فى أعماق قلبه وفى أعماق لحمه ، بالحاجة المحتومة الى قلب والى جسم امرأة ؛ وكان يقترب فى كل مساء شيئا فشيئا دون أن يشعر أو يقصد ، من مائدة الصرف حيث تجلس «الصرافة» وهى فتاة صغيرة شقراء ، كانت تدفعه نحوها قوة قاهرة لأنها امرأة .

« وسرعان ما تحدثا ، وسرعان ما اعتاد عادة لذيذة ، هى أن يقضى الى جانبها كل أمسيته . وكانت رشيقة خلابة شأن كل فتاة تتجر بالإبتسامة ، وكانت تلهو بتجديد شرابها ما استطاعت خدمة لصاحب الحانة . وكان لوجير فى كل يوم يزداد شغفا بتلك المرأة التى لا يعرفها والتى يجهل كل حياتها والتى يحبها لأنه فقط لا يرى سواها .

« فلاحظت الفتاة ، وكانت خبيثة ، أنها غدت تستطيع أن تستغل هذا الابله ، وفكرت فى خير الوسائل لاستغلاله ، وخيرها هى بلا ريب أن تتزوج منه . فوصلت الى بغيتها دون مشقة .

« أترانى فى حاجة ، يا حضرات المحلفين ، لأن أقول لكم أن خلق هذه الفتاة كان من أسوأ الأخلاق ؛ وأن الزواج بدلا من أن يضع حدا لنذالتها ، قد زادها على ما يظهر ؟

«لقد لاح أن هذه الفتاة مدفوعة بغريزتها النسوية ، كانت تطرب بخيانة هذا الرجل الشريف مع كل موظفى المصرف . أقول معهم جميعا . ولدينا أدلة كتابية أيها السادة . ومالبث الأمر أن غدا فضيحة عامة لا يجهلها ، كالعادة سوى الزوج .

«وأخيرا رأت هذه الذئبة تحقيقا لمصلحة ظاهرة ، أن تغوى ولد صاحب المصرف ، وهو فتى فى التاسعة عشرة من عمره ، فما لبثت أن ملكت على عقله

وحواسه نفوذا خبيثا . وكان المسيو لانجيه يغمض عينـه حتى ذلك الوقت طيبة منـه وشفقة على موظفه . ولكن ما لبث أن شعر بغضب حق حينما رأى ولده بين يدى هذه المخلوقة الخطرة أو بالحرى بين ذراعيها .

« وكان من خطئه أن دعا لوچير على الأثر وخاطبه وهو تحت تأثير غضبه الأبوى .

« لم يبق على أيها السادة الا أن اقرأ عليكم خبر الجريمة كما نطق به المحتضر ودونه التحقيق .

« — علمت أن ولدى قد أعطى هذه المرأة قبل ذلك بيوم عشرة آلاف فرنك ، فتغلب عندى الغضب على العقل . لا ريب انى لم أرتب قط فى شرف لوچير ، ولكن بعض العمى أشد خطرا من الغلط .

« فاستدعيته عندئذ الى وقلت له انى مضطر الى الاستغناء عن عمله .

« فوقف ازائى جامـدا لا يفهم . ثم انتهى بأن طلب منى بشـدة أن أوضح له السبب .

« فأبيت أن أجيبه مؤكدا أن السبب يرجع الى عوامل شخصية جدا ، فظن عندئذ انى أتهمه بسوء الخلق فاصفر لونه ، وتضرع الى أن أوضح له السر وتغلبت لديه هذه الفكرة فعلا صوته .

« أما أنا فلبثت صامتا ، ولكنـه لبث يرجونى أحيانا ويهيننى أخرى ، ووصل الأمر الى حد خشيت معه على نفسى من الاعتداء . وما شـعرت بغأة الا وأنا ألق بالحقيقة فى وجهه عند ما بدرت منه كلمة جارحة .

« فوقف برهة وهو يحـدق فى وجهى بعين شاردة . ثم رأيته يتنـاول من فوق مكتبى المقص الطويل الذى أستخدمه لفض بعض المغلفات ، ثم انهال على بغأة بذراع مشهورة وشعرت بالصلب يدخل فى عنق وفى صدرى دون أن أشعر بألم ما » .

«هذه يا حضرات المحلفين قصة هذه الجناية بكل بساطة . فماذا أقول بعد هذا الدفاع عن القاتل؟ لقد احترم زوجه الثانية احتراما أعمى، لأنه احترم زوجه الأولى بحق .

*
* *

و بعد مداولة قصيرة برئ المتهم [1] .

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Le Rosier de Mme Husson

رسالة منتحر

لايمضى يوم دون أن نقرأ فى احدى الصحف أمثال النبأ الآتى :

« فى ليلة الخميس انتبه سكان المنزل رقم ٤٠ بشارع ... على أثر دوى طلقين متواليين، وخرج الدوى من جناح يسكنه المسيو ص ... وكان الباب مفتوحا ، وقد وجد هذا السيد غارقا فى دمه، وما زال يمسك بيده المسدس الذى انتحر به ... والمسيو « ص » يناهز السابعة والأربعين من عمره، وكان ميسور الحال ينعم بكل ما يحمل السعادة ، ولم تعرف قط أسباب عزمه الأسود » .

أى آلام مبرحة، وأحزان قلبية ، وضروب يأس خفية ، وجروح دامية تدفع بأشخاص سعداء الى الانتحار؟ يتساءل الأنسان ، ويتصوّر مآسى غرامية، أو نكبات مالية ، فلا يهتدى الى تعليل حق، فيسم هذه الميتات بالخفايا .

وقد نجد فوق مائدة « أولئك المنتحرين دون سبب » خطابا كتب فى الليلة الأخيره بجانب السلاح المحشو، فنمسكه ونعتقد أن فيه ما يشوق، فاذا به لا يكشف عن أية نكبة من النكبات التى نتصورها دائما، وراء هذه النزعات الفياضة باليأس؛ ولكنه يكشف عن توالى صنوف صغيرة من بؤس الحياة فى بطء ، وعن اضطراب خطير فى حياة فريدة غاضت أحلامها ، واذا به يقدّم لنا سبب هذه النهايات المحزنة التى لا يدركها سوى العصبيين وذوى الحس الدقيق . واليك ما فيه : —

« نحن فى منتصف الليل . فإذا فرغت من كتابة هذا الخطاب فسأنتحر . لماذا ؟ سأحاول أن أفسر السبب لا لأولئك الذين يقرأون هذه الأسطر، ولكن لنفسى ، لكى أدعم شجاعتى الخائرة ، ولكى أبرر ضرورة هذا العمل

الخطـــير .

« نشأت فى حجر والدين ساذجيـــن يعتقدان فى كل شيء، فاعتقدت مثلهما . وطال حلمى فلم تمزق أوصاله الأخيرة إلا أخيرا .

ومنذ أعوام تحدث فى نفسى ظاهرة . فان كل حوادث الحيـاة، التى كانت فيما مضى تبدو لعينى كسنا المشارق، تبدو اليوم فى ثوب من الظلمات، وقد ظهرت معانى الأشياء أمامى فى حقيقتها الوعرة، وبث فى سبب الحب الصحيح مقت ألوانه الشعرية .

إنا دائمـا لعبة الأوهام السخيفة الساحرة التى تجدد أبدا .

ولمـا كنت أشيخ، فقـد أخذت بنصيبى من بؤس الأشياء المروع، ومن عبث الجهود، ومن كبرياء الانتظار . واذا بى يتبدى لى هذا المساء، بعد العشاء، ضوء جديد يكشف لى عدم كل شيء .

وكنت فيما مضى مرحا، وكان يسحرنى كل شيء : النساء اللاتى يسرن، ومنظر الشوارع، والأماكن التى أسكنها، بل كنت اطرب لشكل ثيابى . ولكن تكرر هذه المناظر قد انتهى بأن ملأ قلبى ضنى وضجرا، كما يحدث لمشاهد يغشى نفس المسرح فى كل ليلة .

فمنذ ثلاثين عاما، انهض فى كل يوم، فى نفس الساعة . ومنذ ثلاثين عاما أتناول طعامى فى نفس المطعم، فى نفس الساعات، وأشهد نفس الألوان يحملها الى الخدم المتعاقبون .

وقد حاولت السفر . ولكن الوحدة التى نشعر بها فى الأماكن الغريبة روعتنى، واشـتدت على وطأة العزلة حتى بادرت فسلكت طريق العودة الى وطنى .

ولكن منظر أثاثى الذى أشاهـده منذ ثلاثين عاما، فى نفس المكان، ورثاثة مقاعدى التى عرفتها جديدة، ورائحة مسكنى (لأن كل مسكن يتخذ

مع الزمن رائحــة معينة) كانت تبعث الى فى كل ليلة غرابة الأطوار، وكآبة سوداء للحياة على هذا النحو . فكل شيء يتكرر بلا انقطاع وبأساليب مؤسية . بل إن نفس الطريقة التى أتبعها فى فتح الباب ، والمكان الذى أجد فيه الثقاب عادة، وأول نظرة ألقيها على غرفتى متى أضأت الثقاب، تحمل الى رغبة فى أن أثب من النافذة، لكى أتخلص من هذه المناظر المتماثلة التى لا نفلت منها على الإطلاق .

بل انى لأشــعر فى كل يوم ، حينما أحلق لحيتى برغبة قوية فى أن أنحر نفسى، وكثيرا ما بكيت لمنظر وجهى الذى اراه بشكله الذى لا يتغير فى المرآة الصغيرة كل يوم .

ولم أعد أستطيع أن أجالس الناس الذين كنت أسر برؤيتهم فيما مضى ! ذلك لأنى عرفتهم جد المعرفة، وعرفت ماسوف يقولون، وما سوف أرد به، ونفــذت الى كامن أفكارهم وتصوراتهم . والذهن كمسرح يدور فيه دائمـا جواد مغلول مسكين ، فمهما كانت جهودنا وحيلتنا فان النهاية قريبــة دائرة الى الأبد، لا مفاجأة فيها ولا باب لها يطل على عالم الخفاء . وواجب أن تجوز دائما نفس الآراء ونفس المسرات، ونفس النكبات، ونفس العادات، ونفس الاعتقادات .

وقــد كان الضباب الليلة حالكا . وكان يخيم مطبقا فوق الشارع الذى كانت تبدو مصابيحه كشموع داخنة . وكان ثمة عبء أثقل من المعتاد ينهك كتفى . والغالب انى كنت مصابا بسوء هضم .

ذلك لأن الهضم الحسن هو كل شيء فى الحياة، فهو الذى يلهم الفنان، ويمد الفتية بالأهواء الغرامية، والمفكرين بالآراء الرائقة، وهو الذى يمد العالم كله بلذة العيش، ويساعد على الأكل الجيد، وهو أسعد شيء فى الوجود . أما المعدة السقيمة فانها تدفع صاحبها الى الشك والإنكار، وتحمل اليه الأفكار

السود ورغبة الموت . وهذا ما لاحظته كثيرا ، ولعلى كنت لا أتحير لو أنى نعمت بالمضم الحسن فى هذا المساء .

فلما جلست فى المقعد الذى أجلس فيه منذ ثلاثين عاما ، سرحت البصر حولى ، فتولانى يأس هائل حتى شعرت أنى على وشك الجنون .

وتلمست ماذا عسى أفعله لأهرب من نفسى ، فروعت لكل فكرة جالت بخاطرى ، ورأيت أنها جميعا شر من السكوت . عندئذ فكرت فى أن أنظم أوراقى . وكنت أفكر منذ بعيد فى تنظيم أدراجى . ذلك أنى منذ ثلاثين عاما ألقى الى نفس المكتب بالرسائل والإيصالات ، وكثيرا ما كنت أتضجر لرؤية هذا الحال . بيد أنى كنت دائما أشعر بتعب جسمى وعقلى ، اذا ما هممت بذلك ، حتى انى ما جرؤت قط على اتمام هذه المهمة الكريهة .

جلست اذن أمام مكتبى ، وفتحته ، معتزما أن أتخير من أوراقى القديمة جانبا كبيرا مما يجب إتلافه . فلبثت فى بادئ الأمر مضطربا أمام هذه الرزم المكدسة من الأوراق الصفراء ، ثم تناولت بعد ذلك واحدة منها .

ألا فحذار أن تقربوا أبدا ذلك المكتب ، أو ذلك القبر الذى يضم ميت الرسائل ، اذا كنتم تضنون بالحياة ! فاذا فتحتموه عفوا ، فامسكوا الرسائل التى يضمها خفية ، وأغمضوا أعينكم لكى لا تقرأوا شيئا منها ، ولكى لا تلق كتابة قديمة نسيت ، بكم فجأة إلى بحر الذكريات . احملوا الى النار هذه الأوراق القاتلة ، فمتى صارت هشيما فاسحقوها لتغدو ترابا ، وإلا فقد هلكتم كما هلكت أنا منذ ساعة .

آه ، إن الرسائل الأولى التى أعدت قراءتها لم تثر شيئا فى نفسى على أنها كانت حديثة ، جاءتنى من أشخاص أحياء ما زلت أقابلهم ، ولا أتأثر لرؤيتهم . ولكن غلافا جعلنى أضطرب فجأة ، وكان اسمى مكتوبا عليه بخط كبير مجوف . وفى الحال وثب الدمع الى عينى . ذلك أن الرسالة كانت من أعز أصدقائى ،

ورفيق صباى ، ومستودع آمالى . فبدا لى واضحا بابتسامته الطفلية ، ويده مبسوطة نحوى حتى سرت الرجفة الى عظامى . أجل . أجل . إن الموتى يبعثون ، لأنى قد رأيته ! وان ذاكرتنا لعالم أدق من الكون لأنها تهب الحياة الى من لا يحيا بعد !

ولقد قرأت ، ويدى ترتجف ، وعينى مظلمة كل ما يقول . وشعرت فى قلبي المسكين الزافر قتلة أليمة ، حتى أخذت فى الأنين كرجل حطمت أعضاؤه .

وعندئذ استعرضت كل حياتى وعدت أصعدها كما تصعد نهرا ، فذكرت أناسا خيم النسيان البعيد عليهم ولم أعد أذكر أسماءهم ، ولم يبق منهم فى ذاكرتى سوى وجوههم . وذكرت عند رؤية رسائل والدتى ، الخدم القدماء ، وشكل منزلنا ، وما يعلق بذهن الصغار من تفاصيل .

أجل ، رأيت بغتة كل أزياء والدتى القديمة ، وطلعاتها المختلفة طبقا للثياب التى ترتديها والقبعات التى تلبسها .

وعدت بغتة ففتحت درجا آخر استعرضت فيه ذكرياتى الغرامية ، ورأيت فيه حذاء رقص ، ومنديلا ممزقا ، وشعورا ، وأزهارا جافة ، فعندئذ حملتنى قصة حياتى العذبة ، التى مازال بطلاتها يعشن اليوم بشعور بيضاء ، الى الكآبة المرة التى تقترن بذكرى الأشياء التى طويت الى الأبد . آه ، لنعم الجباه الفتية التى تظلها الشعور الذهبية ، ولنعم مداعبات اليد ، والنظرات المتكلمة ، والقلوب الخافقة ، وهذه الابتسامات التى تعد بالشفاه ، وهذه الشفاه التى تعد بالعناق ! ثم يا لسحر القبلة ! . . تلك القبلة التى لا نهاية لها والتى تغمض عينيك لها ، والتى تقتل كل فكرة أخرى غير سعادة الوصل العاجل .

حملت هذه العهود الناعمة القديمة ملء يدى وغمرتها لثما حارا ، ورأيت فى روحى المعذب كل واحدة منهن ساعة الاستسلام ، وشعرت بعذاب أشد

من كل مما يتصور فى خرافات الجحيم .

وبقيت رسالة أخيرة ، وكانت منى ، أملاها على منذ خمسين عاما ، أستاذى فى الخط واليك نصها :

« أمى الصغيرة العزيزة .

« لقد بلغت اليوم عامى السابع . وهو سن العقل ، فأنتهز الفرصة لأشكرك على أنك أخرجتنى الى الضياء   ولدك الصغير الذى يعبدك

« روبر »

لقد انتهى كل شىء . وقد عدت الى البداية ، ثم ارتددت لأتأمل بقية أيامى ، فرأيت الشيخوخة المروعة الفريدة ، والعاهات العاجلة . لقد انتهى كل شىء ، أجل انتهى ، ولم يعد حولى انسان !

وكان مسدسى هنالك ، على المائدة ، ... فحشوته « لا تقرءوا رسائلكم القديمة » .

وهكذا ينتحر كثير من الناس الذين نبحث عبثا فى ظروف حياتهم لنكشف عما عسى أن يكون قد وقع بهم من صنوف الحزن المبرح[1] .

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Les Sœurs Rondoli.

يــوم الربيــع

لمـا تبدأ الأيام الحلوة ، وتستيقظ الأرض وتخضر ، ويداعب جسومنا فتور الهواء العطر ، ويدخل الى صدورنا وكأنما ينفذ الى قلوبنا ، عندئذ نأنس رغبـة غامضة فى اجتناء سعادات غامضة ، ونتوق الى التجوال والجرى وراء المصادفة ، والبحث عن المغامرة ، والارتواء من مناهل الربيع .

كان الشتاء قاسـيا فى العام المـاضى ، فكان الشغف بهذا التنفس فى شهر مايو ، كأنه ثمول غمرنى ، وكأنه غيث منهمر .

وقد استيقظت ذات صباح ، فرأيت من نافذتى ، فوق المنازل المجاورة ، الأفق الشاسع الأزرق يغشاه ذهب الشمس ، والشارع فياض بالمرح ؛ فخرجت صافى الذهن ، لا أعرف أين أتجه . وكنت أرى الإبتسامة تعلو كل ثغر ، وآنس ريحا من السعادة تهب فى كل صوب ، فى ضوء الربيع الحار . وكانت المدينة تمرح فى غمرة من الحب ، والفتيات يخطرن فى زينـة الصباح ، وكأن عيونهن تنم عن حنان دفين ، وقدودهن عن ظرف رقيق ؛ ففاض قلبي اضطرابا ، وسرعان ما وصلت الى السـين دون أعرف كيف أو لم ؛ وكانت السـفينة البخارية تتأهب للسير الى سيرصانص ، فخطرت الى رغبة فجائية فى أن أسير الى الغابات . وكانت السفينة غاصة بالركاب ، فالتفت فاذا الى جانبى جارة ، هى عاملة صغيرة بلا ريب ، ولكن ذات ظرف باريزى ، ورأس أشقر فاتن ، تتهدل خصلاتها على خديها كأنها ضوء منتثر ، وتداعبها الريح فوق أذنيها وعنقها البديع الأشقر .

فجعلت أحدجها مليا حتى التفتت نحوى ، ثم خفضت عينيهـا فجأة ، وارتسم على ركن فمها غضن كأنه شروع فى ابتسامة .

وكان النهر الهادئ يتفتح أمامنا والضوء الحار يملأ السماء ، وكأن غمغمة

من الحيـاة تملأ الفضاء الشاسع . فرفعت جارتى عينيها ثانية وكنت مصرا على التحديق بهـا ، فابتسمت عنـدئذ ؛ وكانت ساحرة فى الواقـع ؛ وتخيلت فى نظراتها الهائمة ألف مسألة ، ورأيت فيها أعماقا مجهولة ، ورأيت سحر الحنان ، وكل ما نتصوره من الشعر والسعادة مما نسعى اليه أبد الحياة ، وملكتنى رغبة جنونية فى أن أفتح ذراعى وأحملها بعيدا ، لأغمغم فى أذنها أنغام الحب الموسيقية .

فهممت أن أفتح فمى لأحادثها واذا بشخص يمس كتفى ، فالتفت منذ هلا فاذا برجل عادى المنظر ، لا هو بالفتى ولا بالشيخ ، يحدق بى بنظرات مكتئبة ، ويقول : أود أن أحدثك .

فأتيت بحركة تضجر فشعر بها وقال : أود ذلك لأمر مهم .

فنهضت وتبعته الى الناحية الأخرى من السفينة .

فبدأ يقول : « سيدى ، لما يقترب الشتاء فى كل يوم بقره وبرده ومطره ، يقول لك طبيبك « أدفىء قدميك جيدا ، واحذر من البرد والزكام والنزلات الصدرية » فعنـدئذ تأخذ لنفسك ألف تحوط ، ولكن ذلك لا يحول دون أن تمضى شهرين فى الفراش دائمـا . ولكن الربيع اذا أتى بخضرته وأزهاره ورياحه الحارة الفاترة ، وأنفاسه الناعمة التى تحمل اليك اضطرابات غامضة ، وميولا لا باعث لها ، فما من أحد يأتى ويقول لك « حذار ياسيدى من الحب ، فانه جاثم فى كل ناحيـة ، يتربص بك فى كل ركن ، وينصب لاقتناصك كل شراكه وكل أسلحته الماضيـة وكل خياناته ! حذار من الحب ! ... حذار منه ! فانه أخطر من الزكام والنزلات الصدرية والسل ، وهو لا يغفر بل يحمل كل انسان على ارتكاب زلات لا تغتفر ! » — نعم ياسيدى أقول إنه يجب أن تعلق الحكومة فى كل عام على الجدران اعلانات عليها : « عودة الربيع : حذار من الحب أيهـا الفرنسيون ! » كما يكتب على أبواب المنازل

أحيانا : «حذار من الدهان !» وما دامت الحكومة لا تفعل، فانى أنوب عنها وأقول لك : حذار من الحب !، فهو يهم أن يبطش بك وواجب على أن أخطرك كما يخطرون فى روسيا مارا قد تجمد أنفه !» .

فلبثت جامدا ذاهلا أمام هذا الشخص الغريب، ثم تكلفت الأنفة وقلت : «يلوح لى ياسيدى أنك تتدخل فيما لا يعنيك» .

فأتى بحركة سريعة وأجاب : «لو رأيت، يا سيدى، رجلا أشرف على الغرق فى مكان خطر فهل أتركه اذن يغرق؟ . ولكن اصغ الى قصتى ياسيدى فتعلم لم جرؤت أن أحدثك على هذا النحو .

«كنا فى العام الماضى فى مثل هذا الوقت؛ ويجب أن تعلم أولا ياسيدى انى موظف بوزارة البحرية، فأطللت من نافذة مكتبى ذات يوم، فأطربتنى زرقة السماء وصدح البلابل، حتى كدت أرقص بين الصناديق والأوراق المكدسة . فلما انصرفت سرت الى السين، وكان الجو بديعا كما هو اليوم، فركبت نفس هذه المركب قاصدا أن أتريض فى سان كلو، وخيل لى أنى أتمدد من حرارة الشمس، وأطربنى منظر كل شيء : منظر المركب والنهر والشجر والمنازل وجيرانى . وكنت أتوق الى معانقة أى شيء فى العالم، فاذا بالحب يهيء لى شراكه، وإذا بى أرى بغتة، فتاة تصعد الى المركب من التريكاديرو، فى يدها حقيبة صغيرة، وتجلس أمامى .

«وكانت حسناء — أجل ياسيدى، ولكن المدهش هو ما يخيل الينا من أن النساء يبدون أكثر حسنا إذا صفا الجو وجاء الربيع، وعندئذ نأنس فيهن سحرا خاصا .

«فحدقت بها وحدقت بى، ولكن من وقت لآخر فقط، كما تفعل جارتك الآن . وأخيرا رأيت بعد المثابرة حينا فى تبادل النظرات، أن الوقت قد حان لمحادثتها، فخاطبتها فأجابتنى؛ وكانت رشيقة ككل امرأة، فثملت لحديثها

ياســـيدى .

«ثم نزلت فى سان كلو، فتبعتهـا، وكانت ذاهبـة لتسليم طلب من الطلبات، فلما عادت كانت المركب قد سارت، فسرنا معا، وجعلت رقـة الهواء تنتزع الزفرات من كابينا .

قلت لها : «لا بد أن يكون الجو بديعا فى الغابة . فقالت : أجل بلاريب

قلت : فهل توافقين أيتها الآنسة على أن نتجول هنالك قليلا ؟

فحدجتنى بنظرة سريعة شاملة كأنها تختبر شخصى! وقبلت دعونى بعد تردد قليل . واندفعنا نسير جنبا الى جنب بين الأشجار، فى ظلال الأغصان الرطبة، وفوق الأغصان النامية التى تنعكس الشمس على خضرتهـا . وكانت الطيور تصدح فى كل ناحية، فثملت صاحبتى طربا لهذه البدائع الطبيعية، وأخذت تثب هنا وهنالك، وأنا من ورائها .

ثم أخذت تغنى مختلف الأناشـيد بنبرات رخيمـة حتى كدت أبكى . آه هذا ما تضطرب له النفس دائما، فلا تتخذ ياسيدى امرأة تغنى فى المروج !

وسرعان ما غلبها التعب فجلست على العشب الأخضر، فجلست عند قدميها وأمسكت بيديها اللتين ارتسمت فوق أناملهما وخزات الإبر، فتأثرت لذلك، وقلت فى نفسى : «هذا طابع العمل المقدس» . آه ياسيدى، أتعرف ماذا تعنى علامات العمل المقدسة؟ إنها تنم عن كل مايحويه المصنع من اضطراب فى الذهن، ومرض فى النفس، وعفاف مثلوم، تعنى كل سخف الثرثرة، وكل بؤس العادات اليومية، وكل ضيق الفكر الذى هو خاصة لنساء العامة .

ثم حدق كل منا فى صاحبه مليا .

آه ! عين المرأة، لشد ماتبطن من قوى، ولشد ماتثير، وتغزو، وتملك، وتأسر، وآه كم تبدو عميقة فياضة بالإغراء، وبما ليس له نهاية! يعبرون عن ذلك بقراءة الروح ! آه ياسيدى ياله من سخف ! اذ لو كنا نستطيع حقا أن

نقرأ هنالك مافى الروح لكنا أحرص وأوفر تعقلا .

وأخيرا اضطرمت جوانحى ، فاردت أن أطوقها بذراعى ، فقالت : حذار بخثوت الى جانبها وفاتحتها بحبى ، ونثرت على ركبتيها كل ما يحرقنى من جوى ، فبدت عليها الدهشة من تغيرى وحدجتنى بنظرة مائلة ، كأنما تقول لنفسها : «هكذا يالعب بك فسوف نرى » .

ونحن فى الحب ياسيدى سذج دائما ، والنساء فيه دائما تاجرات .

وقد كان فى وسعى أن أملكها بلا ريب ، وقد أدركت حماقتى بعد ، ولكن الذى كنت أبحث عنه لم يكن جسما ، وانما الحب والمثل الأعلى ، وقد ركبت متن العواطف فى ظرف كان واجبا أن استخدم فيه وقتى بأحسن مما فعلت .

فلما فرغت من بث جواى اليها نهضت ، وعدنا الى سان كاو ، ولم أتركها الا فى باريس . وكانت منذ العودة شديدة الكآبة ، فسألتها عن السبب فأجابتنى : «أفكر فى مثل هذه الأيام التى لا تمر كثيرا فى الحياة» فاشتد خفوق قلبى حتى كاد يثب من صدرى .

ثم رأيتها فى الأحد التالى وفى الأحد الذى ولاه ، وكل أحد من بعده . وكنا نتريض فى بوجيفال وسان جرمان وميزون لافيت وپواسى وفى كل مكان تدور فيه أحاديث الحب .

وكانت الخبيثة الصغيرة من جانبها تثير هواى ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

وأخيرا ، فقدت صوابى بتاتا ، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى اقترنت بها .

ماذا تريد ياسيدى ، اذا كان المرء ، موظفا وحيدا ، لا أسرة له ، ولا ناصح ؟ يقول المرء لنفسه : إن الحياة تغدو سعيدة مع امرأة معينة فيتزوج من هذه المرأة .

ولكنها عندئذ تسيئه صباح مساء ، ولا تفهم شيئا ، ولا تدرى شيئا ،

وتتفرغ الى الشجار، والغناء (آه الغناء ياسيدى !) وتقص على خادمة المنزل كل أسرار البيت، وتفضى الى خادمة الجيران بكل أسرار الفراش ، وتبهظ زوجها فى الحوانيت ، وتملأ رأسها بالمضحكات والخرافات والسخافات والاساطير والتقاليد الرائعة، حتى لقد كنت أبكى يأسا ياسيدى اذا ما تحدثت معها .

ثم صمت ، وقد غلبه التعب والتأثر، فنظرت اليه مشفقا على سذاجته ، وهممت بأن أجيبه بعبارة ما ، ولكن المركب وقفت عندئذ ، ووصلنا الى سان كاو .

ونهضت المرأة الصغيرة التى اضطربت لنظراتها للنزول ، فمرت بالقرب منى وهى تلحظنى خلسة وعلى شفتيها ابتسامة داعية — احدى هذه الابتسامات التى تطير صوابك، ثم وثبت الى البر .

فوثبت لاتبعها ، ولكن صاحبى أمسك بكمى فتخلصت منه بحركة سريعة ، ولكنه أمسك بذيل سترتى ، وهو يضحك ويكرر : «لن تذهب لن تذهب ،» بصوت عال التفت له كل الناس .

فتعالى الضحك من حولنا . فوقفت جامدا ، غضوبا ، ولكنى فقدت كل جرأة أمام السخرية والفضيحة .

ثم ارتدت المركب عائدة ، والمرأة الصغيرة تحدجنى ، بهيئة الأسف ، بينما كان مطاردى يهمس فى اذنى وهو يفرك يديه :

«تالله لقد أسديت اليك يدا[1]» .

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة La Maison Tellier

صحف

من

تيودور دى بانفيل Théodore de Banville

تيودور دى بانفيل

بانفيل، شاعر مبدع، وقصصى ساحر . ولد فى مولان سنة ١٨٢٣ وتوفى فى باريس سنة ١٨٩١؛ ونشأ فى أسرة حسنة، ودرس فى باريس، ونظم الشعر حدثا ، وأخرج أول مجموعة منه سنة ١٨٤٢ وعنوانها Les Cariatides . وبعد بضعة أعوام أخرج مجموعته الثانية Les Stalactites ، فلقيت نقدا عنيفا ، ولكنها أذاعت شهرته . واتصل فى ذلك الحين بأعظم شاعرين فى هذا العصر وهما الفريد دى ڤينى ، وڤكتور هوجو ، ولقى منهما إعجابا وتشجيعا . وأخرج فى الأعوام التالية عدّة قطع مسرحية قوية . ثم عنى بالنثر والقصص الصغير فأخرج عدّة مجموعات قصصية ونقدية ساحرة منها : Contes Bourgeois و Camées parisiennes و Contes héroïques و Contes féeriques و Contes pour les femmes وغيرها . وفى معظمها يعنى بانفيل بدراسة المجتمع الباريزى عناية خاصة ، ويصور لنا أحواله وخلاله وتقاليده فى ألوان قوية ساحرة، ويجيد بالأخص تصوير المجتمع الرفيع ، ثم الشعراء والكتّاب والفنانين والممثلات . وله فى ذلك أسلوب شعرى بديع ، يفيض رقة وحلاوة ، ويطبعه طابع قوى من الرشاقة والظرف ، حتى أنه ليطير بقارئه سحرا وفتنة ؛ وخياله ممتع رائق ، يسمو دائما الى أرفع الخلال والفكر، وقد يطبعه لذلك شىء من الغلو . وهو أستاذ فى التهكم ؛ يلجأ فى كثير من الأحيان الى السخرية اللاذعة ، ولكن بأساليب رقيقة مختارة . وكان بانفيل قدوة للنظم فى عصره ، يدعو الى تحرير الشعر الفرنسى من تماثله القديم . وله فى الشعر وأساليبه رسالة قيمة . وكان يتبوأ فى النظم فى عصره أرفع مكانة ، ويتصل بأكابر عصره من المفكرين والكتّاب والفنانين بأوثق الصلات . وكان شديد الإعجاب بهينريش هينه الكاتب الألمانى ، يتأثر به أشد التأثر حتى لقد شبه به .

الحب الأوّل

يقول الشاعر : تسألينى يا سيدتى فى أى سن يبـدأ الحب ، فأجيب أنه لا يبدأ أصلا ؛ فأن يحب المرء حالة كونية للانسان ، كأن يكون أسود ، أو يكون ذا أنف أفنى . وأولئك الذين قدر لهم أن يكونوا محبين ، كانوا دائما كذلك . وقد نفث شكسبير من عبقريته الشاملة ، فى تلك النقطة كما نفث فى غيرها ، فصور روميو يكاد يموت غما لمـا ناله من ازدراء روزالين ، وذلك فى نفس اللحظة التى سار فيهـا للقاء جولييت ! واليك قصـة محدثة توضح لك هذ القول :

ربيت فى دار « كريوليس » الواقعة فى شارع ريشيه ، وهى دار كانت تحيط بحديقتها الصغيرة الموحشة ، حدائق نخمة كانت لمنازل كبيرة هدمت أو حورت لمـا أنشئ شارع ترفيس . وكان فيهـا بالأخص صبية أغنياء ، فكانت الحياة هنالك أنيقة جدا ، وان كان ما يقدم الينا من الأطعمة سيء لا يكاد يصلح لسجناء المنفى . وبلغ من وفرة ما يحمل التلاميذ من المـال أن استطعنا أن نشترى حلة تمثيلية كاملة ، من ثياب وأغطية ملونة ، وخوذات من الورق المقوى ، ملبسة بالورق المفضض أو المـذهب ؛ وسيوف صغيرة لكنها من الصلب ، وغيرها . وكنا نلهو أيام الآحاد بتمثيل مآس وقطع ، بعضها محفوظ ، وبعضها مرتجل ، ولم يكن مسرحنا سوى الفصل الكبير ، نكدس موائده لكى نفوز بالفراغ اللازم .

وكان الأساتذة يغتبطون لكل ذلك اذ كان التلاميـذ فى هذه الأمسية يعـدون الفطائر الفخمة التى قد يبلغ ثمنها عشرين فرنكا ! كانت دارا كما قلت أنيقة يحق لك فيها أن تلبس أحدث الأزياء ؛ وكان من أظرف صبية الدار اثنان يجمع بينهما الحب الأخوى همـا شيدوم وبسوناى ، وكلاهما ابن تاجر

غني من الماقر؛ وكنت أراهما دائما فى أوقات الرياضة يلبسان صدريات خضراء تزينها شرائط بيضاء . كان ذلك فى سنة ١٨٣٦ ؛ وكان كلاهما فى سنى أعنى فى الثالثة عشرة . أما شيدوم فكان له وجه فتاة ناعم أبيض وشعر طويل أشقر؛ وأما بسوناى فكان ذا شعر قصير، ورأس صغير موحش، تبدو عليه أمارات الرجولة .

ففى ذات يوم بينما كنا نجوز شارع بروفانس الى الكلية، وكان شيدوم الى جانبى فى الصف، إذ قال لى بعد كثير تردد إنه يريد أن يفضى الى بأمر، ثم انتهى بأن فتح لى قلبه بصوته الرقيق الرخيم، فقال لى إنه يحب روزالى، وانها تحبه . وكانت روزالى هذه وصيفة صغيرة سمراء كالجحيم، هزيلة، لامعة العينين؛ وكان يظن أنها صاحبة رب الدار المسيو كريوليس . وحدث أن شيدوم ذهب الى مخدع الثياب ليتسلم ربطات عنق جديدة له، فسقط منه هنالك دبوس وانحنى لأخذه، فلما رفع جبينه إذا بيدى روزالى تمسكان بهذا الجبين، وإذا بها تلثم شعره بشغف، ثم تلت ذلك اعترافات سريعة؛ ثم موعد وخلوة قطعها دخول العمة بيجات، وهى امرأة شاحبة جافة تدير شئون الدار . هذا ما قصه على شيدوم بعبارات متقطعة؛ وفى حمى المراهقة الساحرة؛ وكان ذلك فى أوائل شهر أبريل إذ كان الهواء فياضا بحرارة الربيع، وإذ كان شذى الأزهار فى الحدائق المجاورة يعطر الأرجاء؛ وكنت استمرئ كلماته، بل كانت تقع على قلبى وقوع النار على البارود؛ فقد كنت عاشقا أيضا، ولكنما كنت أهوى كل نساء « هوراس » .

سارت المأساة بسرعة عجيبة، وانقطعت أياما عن شيدوم إذ كنت أقضى أوقات الفراغ فى نظم مقطع صغير، ولم يجئ دورنا فى الرياضة معا . ثم إذا بى معه فى الصف ذات يوم لعشرة أيام من لقائنا الأول ... فرأيته مضطربا متجهما شاحبا يعض شفتيه الباهتتين، وقد بلغ من غضبه أن أخذ يحدثنى

بصوت متقطع متهدج . قال لى : « بلى لقـد خاننى وهو صـديق وأخى بسوناى ! » وعبثا حاولت أن أقاطعه وهو يقول : « سوف أقتله » عندئذ أفضى الى بكل شيء . ذلك أن مبارزة عقدت للغداة بينه و بين بسوناى ، وقد خرجا فى رياضة الى الحديقة فتضاربا هنالك ورآهما جميع التلاميـذ من نوافذ الفصل . فاستنفدت كل منطق لتحويله عن مشروعه فصاح بى ملقيا بشعره البديع الى الوراء « وشرفى ! » ثم زفر زفرات متوالية ، ثم جرى دمعه مدرارا ، وقال « ليس الأمر هـذا ، ولكن ما دامت روز الى قد غدرت بى فيجب أن أموت لأنى أحبها ! » ثم أغرق فى البكاء ، ولم تساورنى قط فكرة التبليغ عن صديقى ، فقد كنت اعتقد يومئذ كما اعتقد اليوم أن سلطان الغاية يبرر كل واسطة .

وأغرب من كل ذلك ، أن مشروع هذين الطفلين المسكينين قد تحقق خطوة خطوة ، من غير صعوبة ، ففى الغداة انتحل كل منهما عذرا للخروج ، وسرعان مارأيناهما معا فى الحديقة وعلى كل سرواله وقميصه فقط ، وقد صعد كل منهما فوق جواد خشبى من جياد الملعب ، وشهرا سيفين أخذاهما من عدّة المسرح . وقد أرادا أن يتبارزا مرتفعين ليراهما كل انسان فكانت قلوبنا تخفق جميعا ، ولم يدرك الأستاذ سر انقطاعنا عن العمل ، ولم يلاحظ لفرط غباوته بريق أعيننا ، ولا نظراتنا الملتهبة ، التى كنا نلقيها نحو الحديقة خلسة .

كان صديقانا ، وهما شجاعان ، ثائران ، تغمرهما الشمس ، جميلين كالملائكة . ونشبت المبارزة عنيفة ، شنيعة ، لأنهما لا يعرفان عن البراز شيئا ، ولم يلاحظا وهما فى ثورة الغضب ، أن قميصيهما قد تمزقا وخضبا بالدماء . وفى النهـاية هوى سيف بسـوناى على جبين شـيدوم فأصابه بضربة هائلة خرقت جبينه خرقا كبيرا وانكسر السيف فى الجرح ، فسقط شـيدوم صريعا

من فوق جواده الخشبي . فوثب بسوناى اليه يبكى و يمسح دمه ، وخرجت من صدورنا جميعا صرخة واحدة ، فاقتحمنا الموائد ، وانحدرنا جماعة الى الحديقة ، وهرول معنا المسيو كريوليس وزوجه و بناته والأساتذة والعمة بيجات والحشم ، و بالاختصار كل حى فى المنزل واشتد ما كانت روعتنا لهذه المأساة ، إذ حمل شيدوم مغميا عليه الى غرفة إحدى آنسات كريوليس حيث مدد ، واستمر فى إغمائه ، ولم يجب الأطباء عن حياته . ومضى على ذلك شهران ، عاش فيها كل من فى الدار فى عذاب واضطراب ، كأنما الحياة كابوس أو حلم رائع ، حتى تماثل شيدوم وحمل الى والديه .

أما بسوناى فحمل فى نفس اليوم الذى وقعت فيه المأساة الى الهاقر برفقة أحد الأساتذة ، وسلم الى أسرته على أن يبقى رهن تصرف القضاء .

و بعد ياسيدتى فإنى لم انعم بلقاء شيدوم إلا فى سنة ١٨٧٤ أى بعد ذلك بثمان وثلاثين سنة . قابلته لأول مرة منذ حادث الصبا وقد غدا الرحالة الأشهر الذى لاتجهل رحلاته وأعماله . وقد عمل ، وناضل ، وعانى ، وعرف المجد ، ولاقى أروع صنوف المصائب ، وكثيرا مادهمه الوطنيون فى إفريقية ، ولفحه سعير الشمس ، وعانى ألم الجوع والحمى فى الصحراء ، ونجا من الموت ألف مرة . وقد ماتت زوجه الحسناء غريقة ، وهلك ابنه فى الحرب الأخيرة شر مهلك . ومع ذلك فما كاد يلقانى فى نيس حتى هرول نحوى ، وأمسك بيدى وصاح بى بلهجة يغلبها فرح الصبية : « ألا تذكر قصة خصلة شعر روزالى ؟ فقد ظهر أنها لم تعطها الى بسوناى ، ولكنه سرقها من غرفتها ، وقد لقيته فى العام الماضى فى ريودى جانيرو فاعترف لى بهذا ! » ؛ فخدجت عندئذ شيدوم ، ولمحت عنقه الهرم يرتجف فرحا ، وقد أضاء جبينه الأصلع الجعد .

الثـــوب الحريرى

دخلت ذات يوم على الشاعر الشيخ كروزى لأستمد النصح منه فى أحد الأمور — ويتعلم الأنسان فى كل سن — فوجدته هادئا باسمـا كعادته ، فى مخدعه الصغير الذى يزينه الوشى ، وقد جلس الى نار تضطرم ، فى كرسى ضخم ، وأخذ يداعب لحيته البيضاء الطويلة ، ويقرأ نظم رابليه فى سفر قديم ضخم .

فقال : لى لعمرى لقــد أرسلتك الآلهة واسوف تقوم لى بخدمة . إن أختى كما تعلم لم تغادر مرسيليا قط ، وسوف تزف فى الأسبوع القادم ، وقد رجتنى أن أرسل اليها عاجلا ثوبا بديعا جدا . ولمـا كنت أعلم أنك ما زلت من أبناء هذا العصر ، فقد رأيت أن أعهد اليك بشرائه .

ثم مد الى صديق الأشهر يده برزمة من الأوراق المـالية ، ذلك أنه يعلم كل شىء ولا يجهل أن الثوب يقتنى اليوم بما كان يقتنى به من قبل منزل رحب أو قطعــة أرض بديعة ، فقلت : أيها الأستاذ العزيز إنى رهن إشارتك . ولكن ألست ، وأنت المصنف العظيم ، تستطيع أن تحسن الاختيار عنى؟

فأجابنى : كن كريما ، ولا تضطرنى أن أزور أحد هاته المحال البابلية التى تغص بالأستار والورق اليـابس ، والتى ترغم أن تقطـع فيها ثلاث مراحل لتشـترى بضعة مناديل ، والتى تباع فيها ساعات ومظلات وأقراط مموهة ، وترتسم على وجوه عمـالها آيات السـياسة ، وتقدم اليك فيها البسط التركية مكان أغطية الفراش ! — ثم أضاء وجهه بشرا ، وقال : وبعـد فإنى أؤثر أن أصدقك القول : ذلك انى أقسمت منذ ست واربعين سنة — بلى كان ذلك فى سنة ١٨٣٤ — ألا اشترى بعد أثوابا قط !

قلت لكروزى : عفوا أيها الأستاذ العزيز ، فما كنت فى سنة ١٨٣٤ تجاوز الثامنة عشرة ، وما كنت تملك شيئا من المـال ، وقد جئت الى باريس دون

مورد للعيش غير الشعر الغنائى، هذا ما قلت لى الف مرة . فكيف حدث اذن أنك استطعت أن تشترى الأثواب الحريرية ؟

أجاب الشاعر الشيخ : لقد اقتفيت أثر مواطنى ميرى فى نظم التهكم السياسى، فكنت أنظم القطع وأبيعها للمكاتب بدريهمات، أو كنت أطبعها نسيئة فلا يكاد دخلها يفى بالنفقات . وقد نظمت فى العهد الذى أحدثك عنه ضد الوزارة، احدى هاته القصائد الملتهبة، وأمدنى الطابع وتاجر الورق نسيئة بما احتاج اليه لطبع ديوان ضخم، وكنت أحمل بنفسى نسخ الديوان الى مكاتب الباليه رويال فلا تجد من يقبل على شرائها .

«وكنت أقيم تحت السقائف فى المخزن الشهير، وهو ما كان يصلح لسكناى حتى بعد ذلك بعامين أعنى لفتيان فى سن العشرين؛ بيد أنى كنت أختنق هنالك . وكنت أقتات كل يوم بقدح من اللبن ورغيف بفلس، كما كان يفعل بازالك الذى تعرفت به يومئذ، على انى ما كنت أنظم قصائدى فى ذلك الوكر، فقد كان لى طبقا لعادة ذلك العصر حبيبة، كنت أقضى لديها معظم أوقاتى ، وكانت القصائد النادرة التى أبيعها بمائة فلس والتى كانت ثمرة الإلهام والوحى، تذوب فى أزهار وتحف لهذه الحبيبة .

«وكانت تدعى أجات . وكان لها رأس من أبدع ما يتصور الذهن، ذات عينين سوداوين كبيرتين، وأنف صغير أقنى، وفم أحمر كالزهرة ونحر طويل، وكانت مليئة ممشوقة ساحرة، فى ثيابها البسيطة الأنيقة، كانت مثل الفتاة العامية الحقة، وكان لها خيال رائق وذوق حسن فى الغناء، وكانت تتحدث كإحدى بطلات بول دى كوك، فتصف الروابط الغرامية بقولها «أن تكون مع أحد من الناس» .

«وكان محصل عزتها كفتاة شريفة أنها لا تتخذ فى نفس الوقت سوى حبيب واحد ، على أنها كانت تحدثنى دون تحفظ عن أولئك الذين

تقدمونى . وكانت منــذ الصباح الى المساء تجيــل إبرتها بانتظام يثير نى ، فاذا قاطعتها بقبلاتى شكت مر الشكوى من أنى أضعت عليها يوما تكسب فيه ثلاثين فلسا ، فتأمل ماذا كنت أرى فى ذلك الأسف الذى تثيره خسارة فلس أو فلسين ذهبا ضحية لنشوة هوى ، أنا الذى كان يؤمل أن يكسب فى القريب العاجل من وافر الذهب ، ما يكفى لأن يسكن أجات قصرا .

«ومع ذلك فقد كان يثيرها قلمى حين يجرى على الورق ، كما كانت تثيرنى ابرتها . وأذكر أنهــا سألتنى ذات مرة متهكمة عمــا أكتب ، فأجبتها بالطبع أنى أنظم شعرا . فقالت لى اذن فغنه فقلت إنه شعر لا يغنى ، وكنت أحمق فى هذا التصريح فقد حدجتنى بغضب بارد كما لو قلت إن النمور تسبح فى المــاء أو إن التماســيح تطير فى الهواء . ذلك أن فكرة الشعر الذى لا يغنى لم تفسر لهــا شيئا . ثم سألتنى بصوت أجش : وماذا تعنى أن تعمل بنظمك هذا ؟ فأجبتها : أريد أيتها الحسناء أن أشترى لك ثوبا من الحرير .

«فمــا قلت هذه الكلمات المدهشة حتى فتحت أجات عينيها ، وبدت عليها أمارات الدهشة والشك والجشع والشهوة المضطرمة . بيد أن ذلك لم يكن سوى قبس سرعان ما انطفأ ، ذلك انها ما كانت لتستطيع أن تعتقد أمرا عظيما كهذا الذى قلت ، وقــد كان الثوب الحريرى والدولاب ذو المرايا والزهور الصناعية أحلامها العظيمة . سألتنى بتهكم : تقول ثوبا من الحرير ومتى يكون هــذا ؟ فأجبتها ببشر : « فى ظرف خمســة عشر يوما » وما كنت أعرف بأى روح من الترقب كانت هــذه الفتاة الحازمة تعد الدقائق والساعات .

«مضت الخمسة عشر يوما ، وكان آخر يوم ١٠ أغسطس . ففى صباح هــذا اليوم لم يكن معى من الدراهم ما أتناول به قدحى من اللبن ولا رغيفى الصغير ، فسرت أطوى الحشا الى مقام صاحبتى فى شارع ماى . ولمــا اخترقت الباليه رويال ، ألقيت على المكاتب نظرة الإحجام ولكنى أجبت لسوء الطالع

أن شيئا من قصائدى لم يبع ، وكان أصحاب المكاتب يخدجوننى باحتقار ؛ فلما انهكتنى الذلة وقوارص الجوع فكرت فى عينى أجات النجلاوين وفى شعرها الجعد ، وفى شفتيها الحمراوين ، وخلت أنى أتأسى فى الحال اذا ما رأيتها تبتسم . بيد أنى وجدتها باردة قاسية ، وكأنما غدت أجنبية عنى ، وسألتنى عن الثوب الحريرى كما يسأل رسول القضاء دفع الدين ، فلما أجبتها مكتئبا انى لم اشتره ، امتقع لونها جدا ولمعت عيناها ببارق من البغضاء الوحشية ، وصاحت وهى تفتح الباب : «آه انك لم تشتره اذن ففى وسعك ان تذهب فلا تعود إلا به» .

وكنت جائعا جدا ! ومع ذلك فقد شعرت أن دمعتين حارتين تجريان على خدى ، اذ كنت أعبد هذه الفتاة ذات العقل الصغير ، والصوت الرخيم . ولكن سرعان ما تحول مجرى أفكارى إذ لاحظت حين خروجى فى الشوارع حركة غير عادية ، ورأيت الناس مجتمعين جماعات يتحدثون بحماسة ، ويندفعون هنا وهنالك . ثم سمعت بضع عبارات فهمت منها حقيقة الأمر . ذلك أن أخبار ليون وصلت الى باريس ومؤداها أن العمال وثبوا بالأحياء الصناعية ، فقتل وجرح من جند الحكومة والعمال مئات عدة . وفهمت أن الثورة أخذت تتحرك فى باريس أيضا ، ذلك أنه قبض على معظم أعضاء لجنة حقوق الإنسان ولم يفلت منهم سوى اثنين .

كل هذه : قتلى ليون ، والاضطراب فى باريس وفرار الجمهوريين ، اختلطت فى رأسى المحطم ، بقصيدتى ، و بأجات ، و بالثوب الحريرى . فلما جزت الى الباليه رويال أدركت لأول وهلة أن اصحاب المكاتب ينتظروننى ويترقبوننى ، ذلك أن قصائدى اختطفت على ما يلوح ؛ بيد أنى ما كنت أتصور الى أى مدى . واذا بصاحب مكتبة قد وثب نحوى وأمسك بى متهيجا ، وكأنما يرى أن ليس لديه وقت يضيعه فصاح بى مباشرة : ياموسيو كروزى ، أتبيعنى ملكية قصيدتك «الجيزوتيد» بثلاثين ألف فرنك؟ فلم تمض ثلاث

دقائق ، حتى جذبت الى داخل الحانوت ووقعت العقد المعد ، وألفيت نفسى في الحدائق وفي جيبي ثلاثون ورقة كبيرة .

ثلاثون ألف فرنك ! وكنت في الثامنة عشرة ، وكنت جائعا ! كان في وسعي ، وأنا أنتظر الغداة الغامضة وما تحمل من صراع مستعر ، ودخان بارود ، وحصار ، أن ادخن سيكارات هافانا الشقراء ، وأن أشترى الأثاث والرياش ، وأن أتمتع باولئك النسوة الأنيقات اللائى كنت ارى منالهن بعيدا فيما وراء الأفق الأزرق . وكان في وسعي بالأخص أن اتعشى ، ولكن هل تحزر ما صنعت ؟ هل تظن انى فكرت في العشاء ؟

أجبت كروزى : كلا ! بل أظن أنك اشتريت الثوب ، ففي مثل هذه الأحوال يشترى المرء الثوب دائما .

قال الشاعر : نعم فقد اشتريت ثوبا ، بل اشتريت عشرة أثواب مختلفة الألوان ، وسرت بها الى مقام أجات يتبعني عاملان ينوء عاتقاهما بما يحملان .

وكانت حاجبة المنزل تقف بالباب ، فاستوقفتني بابتسامة شيطانية ، وقالت « ان الآنسة أجات لم تعد تقيم هنا فان السيد الذى تصحبه الآن قد اقتادها في عربته » فحملت أثوابي العشرة . ولكنى منذ هذا اليوم أيها الصديق العزيز لم أشتر ثوبا قط ، ومن أجل هذا رجوتك أن تقوم بهذه الخدمة .

قلت لكروزى : أيها الأستاذ العزيز ، من السهل أن يعتقد المرء أن فتاة من العامة حازمة ذات عواطف ، قد غيرت حبيبها في خمس دقائق . ومن الطبيعي أيضا أن يحدث خلال العواصف السياسية التي تجعل نزعاتها كل شيء ممكنا ، وفي سن الثامنة عشرة التي تتم فيها كل معجزة ، أن شاعرا فرنسيا يستطيع أن يربح من نظمه ثلاثين ألف فرنك . ولكن الذى لا أدركه اطلاقا هو أن امرأة مهما كانت ، تحمل اليها أثواب عشرة دفعة واحدة ، فلا توحى اليها بذلك نبوءة صادقة ، ولا تشعر بأن أثوابا تحمل اليها .

ســــــوء التفـــاهم

أجل ياسيدتى، يعلم الله وحده كم تجشم رولان دارس ، من شدائد، وكم خاض من معارك، وكم ضحى، وكم جاز من أسفار وصعاب، فى سبيل إعداد الغرفة التى تصورها ونظمها كما ينظم خريدة من الشعر، ليستقبل فيها الممثـلة الحسناء الشهيرة چنى ليڤرون . فما فرغ من إعدادها حتى أضحت بطلائها، وأثاثهـا الحريرى ذى اللون الوردى البـديع رسمت عليـه أزهار المروج ، وسريرها الابيض الذى هو آية من تحف القرن الثامن عشر، ومكتبتها المطرزة بالعاج النفيس، ومرآتها التى تمثـل اختطاف چانيميد، وساعتها المصـدفة، وبسطها الناعمة الكثيفة، وآنيتها الڤنيزية المذهبة — أضحت حقا جنة دنيوية للهوى؛ ولكن شاء نكد الطالع أن لا ترى چنى ليڤرون تلك الغرفة التى كانت وليـدة فكرها اذا صح القول . ومع ذلك فقـد نال رولان دارسى كل ما بغى وأمل، وهذه هى قصة السعادة البشرية التى تذهب من بهـاء الشكل الذى تخيلناه صورة لهـا، اذا ما ظفرنا بها مصادفة، والتى لا يحمل الفشل فى نيلها امرأً على الموت .

كانت چنى ليڤرون ككل أولئـك الذين عرفوا رولان، ذلك الشاعر الظريف الذى ينعم بعلم الساحر وبراءة الطفل، والذى لبث طول حياته يتردد بين الحلم والجنون — تشعر نحوه بصداقة جمة خالصة، غير أنها كانت بعيدة جدا عن أن تتصوّر ذلك المخلوق الوديع النابه يهيم بها غراما؛ وكانت الممثلة يومئذ فى أوج شهرتها وذروة شبابها المعبود، وكان رولان يأتى لرؤيتها فى دار الأوپرا الهزلية، فى مخدعها الذى يغص بكبار المؤلفين، ونخبة الضباط والنبلاء فلا تشعر أنه يفترسها بعينيه، ويحرق كتفيها بنظراته الملتهبة، وأنه يكاد يتحطم على صخرة رغبة يفوق اضطرامها كل قوة بشرية . ولكن شاء القـدر ذات

مساء أن يكون الشاعر آخر من بقى فى مخدع صاحبتـه ، وكانت چنى قلمـا تأنس فى وجوده شيئا من الحرج ، حتى أنها لم تر بأسا من أن تبدى أمامه وهى تغير ثوبها من كنوز جسمها البديع أكثر ممـا يكفى لذهاب رشده ، ولكن لشد ما كان روعها حينما ارتدت نحو رولان بجأة فلمحت وجهه المضطرب ، وعينيه اللتين اتسعتا تأثرا وانفعالا ، وأخذتا ترسلان مدرار الدمع .

فصاحت به : رباه ترى ماذا أصابك ؟

فبـذل الشاعر المسكين جهدا كذلك الذى يجب أن يبـذل للاعتراف بجريمة قتل وقال : ان مابى هو أنى أحبك !

فلم تخالج چنى ليفرون رغبـة ما فى الضحك . ذلك ان هـذه المرأة التى ثملت بكل آيات ظفر فى الحياة وفى الفن ، كانت فى أعمـاق سريرتها رقيقة الفؤاد والمشاعر ، واذا كان يستحيل عليها أن تبادل رولان هواه ، فإنها مع ذلك تأثرت لمصابه أيمـا تأثر وقالت : « آه أيها الصـديق ، لست أود أن يقال انك قاسيت من أجلى ومنى فأنا لك ! »

وقد يكون للأخلاق مأخذ على ذلك ، ولكن شيئا من النبل كان يحيط تصرف هذه المرأة المعبودة ، التى ترى عنـد قدميها كل أمراء الأرض وكل جواهرها ، ومع ذلك تحملها السذاجة والطيبة الخالصة ، على ان تهب نفسها لناظم أفقر من أيوب .

امتقع لون الشاعر أيما امتقاع وغمغم قائلا : ماذا ! أتسمحين بزيارتى !

أجابت چنى : « أزورك حيثما ومتى أردت ، ويوم تدعونى أجىء » .

ففر رولان هائمـا على وجهه ، وأخذ فى تلك الليـلة يجوب باريس من أقصاها الى أقصاها ، وقد غص رأسه بأغرب الفكر وأعقدها . فلم يلبث ، رغم جنونه فرحا وسعادة ، أن ذكر أنه مازال يعيش عيشة النورى المتجول ، يبيت تارة تحت أشجار الغابة ، وأحيانا فى غرف مفروشة ليست بخير منها .

على أنه فى الصباح آنس فى نفسه عزما دونه كل عزم، فهرول الى الناشرين والى مديرى المسارح والمجلات وباع من كتاباته كل ما استطاع بيعه، وعرض عليهم مشاريع قصص وقطع مسرحيـة دبجها براعة، وحصل من كل ذلك ماااستطاع تحصيله، ثم ذهب فعهد بكل شىء الى صديقه وزميله الشاعر ڤكتور ليكلا، ولما سافر فى المساء الى هولنـدا شعر لأول مرة أنه يحمل فى جيبه ما يشبه مبلغا من المـال .

بعد ذلك بعدّة أسابيع، فى نحو الساعة السادسة من الصباح كان ڤكتور ليكلا غارقا فى عميق نومه، فاستيقظ مذعورا على صوت جرس وطرق عنيف، فذهب وفتح الباب فاذا به وجها لوجه أمام رولان ومن ورائه ثلاثة حمالين أشداء . وكان رولان قد وجد فى أمستردام السرير الذى يبحث عنه، فشحنه فى ثلاثة صناديق . ثم سافر فى الحال الى البندقية، ليبحث عن ثريات مذهبة نادرة، تاركا لڤكتور مخطوط كتاب وضعه عن هولاندا ليحمله الى مدير المجلة، ولم تمض بضعة أسابيع أخرى، حتى أيقظ ڤكتور ثانية وحتى قدم رولان يحمل الثريات النادرة . ثم سافر ثانية الى ڤينا ليحمل منها ما استطاع من التحف .

ولبث رولان يجوب أنحاء أوربا جوب اليهودى التائه كما كان يجوب باريس فى أمسيته ولياليه، فكان يؤم مدينة من المدائن، فيشترى منها تحفة نادرة، ويتلمس وفاء ثمنها بتكديس المخطوطات على مائدة الكتابة، وكلها قصص شائقة يرسلهـا الى صـديقه ليبيعها وليرسل بثمنها اليـه لينقذ نفسه وتحفته . ولم يكن رولان فى أثناء ذلك يقيم فى باريس سوى الليلة والليلتين، فيرتمى فوق إيوان فى مخدع صديقه، ثم يذهب فى المساء الى دار الأوبرا بعد أن يحكم إتقان زينته، ليحظى برؤية چنى ليڤرون . وكانت الممثلة قد اعتادت أن تعتبره كقطعة من أثاث مخدعها فلا تعنى بحضوره كما أنها لا تعنى بغيابه،

ولعلها كانت تدهش أيما دهش لو قيل لها أن رولان يسيح من آن لآخر سياحات صغيرة . أما المنظر الغرامى الصغير الذى حدث بينهما فقد نسيته كل النسيان ، نسيانها لأول ساعاتها الذهبية . وذلك أمر طبيعى بالنسبة لامرأة تقبض على أعنة أمراء عدة ، وتحفظ مختلف الأدوار فى كل يوم .

وأخيرا تم إعداد الغرفة الشهيرة . واستقر رولان فى باريس واستأنف زيارته لجنى . وكان فى كل مساء يهم بالكلام ، بأن يصيح بها «لقد أعددت الغرفة ! » فكان يلوح له دائما أن أول كلمة ينطقها تحطم صرح أحلامه ، فيلوذ عندئذ بصمته وانفعاله الخفى . وكان عزمه قد تصرم وذكاؤه قد خبا ، فلم يعد يقرض إلا القصائد الروحية التى لا يقبل على شرائها أحد . وكان محياه يعرب عن الألم المبرح حتى أن جنى ذات مساء تأثرت لكآبته فلم تتمالك أن سألته عن السبب ، فأجاب رولان مغمغما :

« ولكنى أحبك دائما » .

فصاحت جنى بابتسامة ملائكية : وارحمتاه ياصديق المسكين . ثم ذكرت فجأة ما كان بينهما وصاحت به : ولكن لم لم تحدثنى عن هذا ؟ ثم صرفت فى الحال وصيفتها بإشارة قائلة لها : «لا أريد أن أقابل أحدا» . ثم أغلقت باب مخدعها بالمفتاح والمزلاج ، وجلست وجذبت رولان اليها ، وأمسكت بيديها الصغيرتين البديعتين رأس الشاعر الهائم الباكى . وهكذا نال رولان دارسى أمنيته الغالية ، بيد أنه لم يجرؤ أن يذكر سيرة الغرفة ، ولم ترها جنى قط . ونحن نعرف أن تلك المرأة الفاتنة قد ماتت فتية ، وان رولان شهد دائنيها يبيعون تلك الرياش البديعة التى كانت تذكره دائما بمرأى الحبيبة . ولم يفهم رولان قط كيف أن جنى قد ماتت وكيف أن رياشها قد بيع ، حتى لقى هو تلك الميتة المفجعة التى ينفطر لذكراها الفؤاد .

الرق المشـــروع

كانت مرجريت داللبرى تلك الفتاة الهيفاء، حقا صاحبة الدوق الشيخ جوسيران دى بلاندراس ؛ وكان الناس جميعا يظنون يوم استقرت فى قصر الدوق أنهـا إحدى بنات أسرته . ولكن من كان يظن أن ذلك الشـيخ، مديد القامة أصلع الجبهة، الذى يكال الشيب الناصع رأسـه، والذى جاوز السبعين حتى غدا يشبه صور الأجداد — من كان يظنه قادرا على الابتسام بعد ؟ أما مرجريت التى كتب اسم أسرتها على الأثر (داللبرى) فقد كانت فتاة فى السابعة عشرة، غير هزيلة ولكن نحيفة كأبدع الأشكال التى تعتبر مُثلا ؛ وكان شـعرها الأسود ذو الخصلات المعقوصة، وصـفاء عينيها الذهبيتين، وثغرها الحلو، ويداها الشفافتان، وقوامها الظريف المسجوع، كلها تعرب عن براءة طاهرة، حتى لقد كان وجهها يعرب أحيانا عن تلك الصرامة التى يبعثها مقت الحياة بلا ريب، والتى تراها ماثلة فى وجوه بعض القدّيسات .

وكان أصدقاء الدوق القلائل الذين مازال يسمح برؤيتهم، وكلهم شيخ مثله، يعجبون غاية الإعجاب بشمائل الآنسة داللبرى الباهرة حينما تأتى رشيقة خفيفة كالطيف، فتقدّم اليهم أقداح الشاى بحركات ملكة ووقارها، وكان صـوتها الرخيم اذا ما تنازلت بالكلام يقع لديهم وقع المداعبة . وكانت نقية محسنة بل ورعة لا تبـدو إلا فى أثواب محتشمة ؛ وقلمـا تتجمل إلا ببعض الحلى القديمـة ؛ وكان أصدقاء الدوق لا يرون بأسا من أن يقصـوا أمامها ذكريات حروبهـم، وأن يقولوا كل شيء كما يقال أمام فتاة صـغيرة ، بل كانوا يرون اذا ماقص أحدهم واقعـة دموية، عينيها النجلاوين تسطعان ، فلا يدهشون لذلك، إذ المعروف أن العـذارى لا يشعرن نحو الدم المسفوك بذلك الروع الذى يشـعر به الأمهات اللاتى عانين آلام الأمومة، هذا الى

أنهـــم جميعا كانوا من أسر رفيعـــة ، لا تقدر كبير ثمن لفتاة بارعة فى الحسن لا تعرف العزف على المعزف ولا التصوير .

وقد يحدث أحيانا أن أحد أصدقاء الدوق يطلب اليه يد ربيبته ، ولكن الدوق كان يجيب دائمـا عن هذه الإقتراحات المزعجـة بجواب واحد هو : «أيها الصديق العزيز إن الآنسة داللبرى غنية جدا فهى سترث عشرة ملايين على الأقل وعندئذ يقال أنك اقترنت بها من أجل مالها» .

وهكذا كان لذلك الفردوس الدنيوى الذى نظمه الدوق چوسيران فى شارع ليل بأثرة شيخ مؤمن يزعم أنه يستطيع أن يحقق السعادة الدنيا ، أن يبقى طويلا بل أن يبقى أبدا ، إذ كان يمتاز بأنه فردوس غير محتمل الحدوث ، ومن ثم غير معروف . لكن المرء لا يستطيع العيش دون حشم ؛ وقد شـاء نكد الطالع أن تظهر وصيفة على مسرح الحوادث . وكانت ڤرچينى هـذه ، وهى فتاة حسـناء قبيحة معا ، قد عنيت منذ بدء هـذا الزواج بتأمل صور الأسرة ، وما لبثت أن فاجأت سر سيديها ، وأملت أن تخرج منه مائة ألف جنيه من الريع . وكانت باريزيه وافرة السفالة ، تحمل فى قلبها الخطيئات السبع وغيرها ، بارعة فى الأزياء والتطريز ، متفقهة فى شؤون الزينة ، عالمة كالكتاب تفهم جيدا معنى الخير والشر ، تجيد الطهى الى حد أنها تؤكل من لا يؤكل ، وكانت كلما تأملت نفسها فى المرآة قدرت فى الحال بعين النقادة المـاهر منظر شعرها النحيل ، وشفتيها الباهتتين ، وصدرها المبسوط . كانت متفقة مع نفسها على ما يأتى : وهو أنه يجب ألا تعتمد على جمالهـا فى أن تشـق لنفسها طريقا ، وأنه يجب عليها من أجل ذلك أن تحل عقدة دقيقة التركيب وافرة التعقيد .

ومع ذلك فقد جالت بخاطرها بادئ بدء فكرة بسيطة ، هى أن تحل محل مرجريت ، وقد طافت من أجل ذلك حول چوسيران وهى تومىء اليه

بنظرات تذيب الصخر، مؤملة أن تحمل غريزة المتعة، وضوء ابتسامتها الخبيثة، ولمعان عينيها المظلمة، ذلك الشيخ أن يجد فيها متاعا للهو، مضطرما يوقظ الموتى . ولكن الشيخ كان يعنى باستمراء حبه السعيد، فلم يلتفت الى إغراء الوصيفة كالبخيل حين يحصى قطعه الذهبية لا يصغى الى صدح البلابل .

ورأت ڤرچينى أنها سقطت من ذروة حلمها ، فعكفت على التربص وأخذت ترقب مرجريت بلا كلال ولا سأم؛ وكان محققا أن تفلح، لأن شهوة الشر كانت تمزقها، وكانت لها حواس دقيقة كحواس الهمجى . ففى ذات صباح من يناير كان البرد ينهمر مدرارا ؛ ولكن الآنسة داللبرى خرجت مع ذلك لتزور فقراءها . عندئذ سارت ڤرچينى توا الى مكتب الدوق حيث كان يشغل بالكتابة، ودخلت دون استئذان ولا تكلف، وقالت له بلهجة تضطرم : هل يعرف سيدى الدوق أين توجد الآنسة فى تلك الساعة ؟

وفى وسعك أن تتنبأ بما يسفر عنه حديث من هذا النوع . لم تمض ثلاثة أرباع ساعة، حتى كان الدوق دى بلاندراس قد التحف بمعطف سميك، وارتدت ڤرچينى ثياب سيدة أنيقة، ثم سار الاثنان الى حانة فى بلڤيل، ونفذا إلى بهوها الأكبر حيث كان الثملون، والمحجبون، والنسوة الفاجرات ذوات الأذرع العارية، يتناولون الطعام عقب الحفلة الراقصة . وجلسا فى ركن مظلم، وهنالك ما لبثت سحابة أن غشيت عينى الدوق، إذ لمح إلى مائدة قريبة فتى جميلا مديد القامة يتجمل بالخواتم والدبابيس والسلاسل البراقة، وإلى جانبه مرجريت داللبرى عارية الذراعين منفوشة الشعر تحتسى الخمر فى أقداح كبيرة ؛ فهم بالوثوب من مكانه ولكن ڤرچينى منعته بحزم حرصا على ألا يتبدد هذا المنظر بسرعة .

وكانت مرجريت تطوق بذراعيها الساحرتين عنق صاحبها الضخم بلا اكتراث، وكان الدوق يصغى كل الإصغاء الى حديثهما فلم تفته منه كلمة .

قالت مرجريت بصوتها الناعم الرخيم : قبلنى ثانية يا فرچرون .

قال : اليك عنى فلست أحب هذه السخافات .

قالت : آه! أنك لا تستطيع أن تقول ذلك لو كانت ميلى فى مكانى .

قال : وما شأن ميلى فى هذا ؟

قالت مرجريت وهى تصرف بأسنانها : لقد كنت تاجرا صغيرا ، أما اليوم فأنت تاجر كبير ولك كتبة ...

قال فرچرون : وبعد ؟ ثم أخرج من جيبه ذهبا وأوراقا مالية وأخذ يعدها فى سكون .

قالت : وبعد أفتريد أن تكون مدير مسرح وسوف تكونه ، غير أنى أعلم أن ذلك لكى تحصل على النساء ! كل النساء اللائى ترغب فيهن إلا ميلى ، فهذه الآثمة تقف على أسرار شنيعة ، وعلى ذلك فسوف تحتفظ بك .

قال فرچرون : وميلى إذا أردت أيضا ، فأنا السيد .

فصاحت مرجريت : آه أهكذا الأمر؟ ثم استلت من جيبها مدية وانقضت على فرچرون الذى استل أيضا مديته دون أن يفوه بكلمة . ومضت لحظة كان الراقصون فيها يشهدون المعركة فى هدوء وجمود إلى أن أصابت مدية التاجر ذراع مرجريت العارية . وفى تلك اللحظة إذ رفعت بصرها ، حانت منها التفاتة إلى الدوق ، فصعقها الرعب ، ففرت إلى مخدع قريب ، وأغلقت وراءها بابه بعنف وسقطت صارخة .

وفى صباح اليوم التالى كانت مرجريت تقول للدوق دى بلاندراس ، وهى ترسل اليه نظراتها الساحرة البريئة : « أجل إنى أصغى الى قصة تلك الشقية ولا أفهم منها شيئا ! فكيف استطعت أنت أن تصدّق انى كنت ماثلة فى الحادث؟ » قالت ذلك وعلى ثغرها ابتسامة عتب حلوة ففاضت نفس الدوق الشيخ ثانية ، وقد ساوره مر الندم .

وصاحت ڤرچينى التى دخلت عندئذ بغتة و وثبت الى جانب مرجريت :

تبا لهذه الأكاذيب ، ثم أخذت تمزق بأصابعها وأسنانها ثوب الفتاة بعنف وهى تصيح بالدوق : لقد رأيت أيها الدوق جيدا انها تسخر منك .

هم الدوق بالكلام ، فقاطعته الآنسة داللبرى قائلة : دعنى آوى الى مخدعى أيها العزيز اذا أشعر بخفوق فى القلب والتهاب فى الصدر ، واذ أريد أن أكتسب هيئة الفتاة الطاهرة بأسرع مما تستطيعه ممثلة ! ولنسلم بأنى أخونك ، ولكن يجب أن تساعدنى أيضا . وقد كان أوّل ما يجب فى هذه الحالة هو أن تصرف هذه الوصيفة ، اذ ما كنت لأستطيع فى نهاية الأمر أن أقوم بكل شىء .[1]

---

(١) أخذت هذه القصة ، وما تقدمها من قصص دى بانفيل ، من مجموعة Contes pour les femmes

صحـــف

من

مارسل پريڤو Marcel Prévost

مارســـل بريفـــو

بريڤو ، قصصى ، وكاتب مسرحى معاصر ، ولد بباريس سنة ١٨٦٢ ، ودرس الهندسة ، ولكنه مال الى الأدب ، واشتغل به منذ الحداثة ، وظهر قبل أن يجاوز العشرين فى ميدان القصص ، ولقيت قصصه منـذ البداية نجاحا وإقبـالا . وكان من أولى قصصه وأبدعها Le Moulin de Nazareth كتبها فى نحو العشرين . ثم أخرج بعد ذلك عدّة روايات كبيرة قوية نذكر منها : Le Scrapion و Mlle Jouffre و Cousine Laure و Con- fession d'un amant . وفى سنة ٩٢ نشر أول مجموعة من رسائله النسوية الشهيرة Lettres de femmes ، وهى قصص ومواقف اجتماعية صيغت فى رسائل نسوية كتبت على ألسنة النساء بختلف صفاتهن ، من زوجة وخليلة وصديقة ، فتية وعجـوز ، وتصف أحوال الأسرة والمجتمع والحب والرذائل الإجتماعية فى صور تهكمية لاذعة . وقد لقيت هـذه الرسائل نجاحا عظيما ، حتى أن بريڤو عاد بعد ذلك فكتب منها مجموعتين أخرتين هما : Nouvelles lettres de femmes و Dernières lettres de femmes ، كتبا بنفس الطريقة والأسلوب . ولكن بريڤو لقى ذروة شهرته سـنة ٩٥ ، حيث نشر روايته الشهيرة : Les demi-Vièrges ، «أنصاف العذارى» ، وهى قصة قوية مثيرة عن المجتمع الباريزى والفتيات الباريزيات ، ولا سيما بنات الأسر الرفيعة ، فأثارت عاصفة كبيرة من الاستحسان والنقد معا ، وصيغت للسرح فى العام التالى ولقيت فيه نجاحا عظيما . وأخرج بريڤو بعد ذلك طائفة من الروايات الإجتماعية القوية نذكر منها : Frederique و Les Anges gardiennes وفيها يصف مفاسد المربيات ، وغيرها .

وبرع بريڤو فى القصة الصغيرة أيضا ، وله منها عدّة مجموعات قوية ساحرة

تمتاز بكثير من إحكام الفكرة، وطرافة المفاجأة، ودقة التصوير والفن، نذكر منها : Missette و Femmes و Le Pas rélévé و Trois Nouvelles و La Fausse bourgeoise، وغيرها .

وقد دخل بريڤو الأكاديمية الفرنسية، وتبوأ مقامه بين الخالدين فى سنة ١٩٠٩ . وهو فنان مبدع، يصور المجتمع والأشخاص والأشياء فى ألوان قوية ممتعة . ثم هو من كتاب مدرسة الحقيقة والواقع، يصور الحب والعواطف البشرية طبقا للواقع المحسوس؛ وله فى المرأة وعواطفها نظريات قاسية تجعله فى ذلك أشبه الكتاب بموپاسان؛ فهى فى نظره مخلوق غادر يضطرم هوى، وقلما تحكمه مبادئ الأخلاق أو العقل؛ وقلما تعف أو تخلص . والزواج سخرية اجتماعية؛ فلكل زوجة صاحب، ولكل زوج صاحبة؛ وأسلوبه غاية فى البساطة والقوة والرشاقة والجرأة، بيد أنه يبدى براعة كبيرة فى عرض الآراء والمعانى، فيخرج أدق الآراء والصور الإجتماعية والجنسية فى عبارات رقيقة محتشمة؛ وهو يرمى بكتابته الى مثل ومبادى أخلاقية سامية؛ والى اصلاح ما يعرض من صنوف المفاسد الإجتماعية .

التـاريخ

فى غرفة من مطعم فوازان أعد عشاء فاخر هو إحدى هذه الأعشية الدورية التى يعتبرها بعض المجتمعات الباريزية، العاملة الأنيقة معا، أحد عناصر الحياة الإجتماعية، فهى تجمع بين المعاصرين وبين الأصدقاء الذين تشغل مهامهم المختلفة فراغ عامهم، وتسمح لهم من وقت لآخر بهدنة مشتركة فى خاتمة يومهم . وقوام هذه الأعشية عادة كهول أو شيوخ يزدان سوادهم بالأوسمة، فاذا أزفت الساعة العاشرة، أخذت السيارات والعربات الأنيقة تنتظم فى ركن سان أونوريه وشارع كامبون، لتنتظر أولئك الأضياف ذوى المكانة . والواقع ان كلا منهم يمثل عنصرا من عناصر الحياة المضطرمة فى المدينة، وهو ما يشعر به ويعتز، ويعتز أيضا إذ يعتبره بعض كبراء المجتمع الباريزى لهم قرنا يرفعون من شأنه .

على أن العشاء فى هذا المساء لم يكن يشهده سوى القليل منهم . فقد نفث ربيع قاس، الزكام فى كل أنحاء باريس، وجذبت حفلات الصيد الأخيرة نفرا الى الريف القريب، فلم يجب الدعوة سوى ستة من الاثنى عشر صاحبا، هم المثال مجريه، والدكتور تافرنييه، والكونت بلوا وهو صاحب مصنع سيارات كبير فى نانتير، وهربلان وهو مؤلف مسرحى بارع، ومدير السين، والأستاذ فيچيه بوكار عضو مجلس المسجلين . وكان الجميع إلا هربلان يدخنون «سيكارات» فاخرة، ويشربون فى بطء قهوة صبها كبير الطهاة أمامهم . أما قنانى الخمر فقد بقيت كلها مغلقة، إذ كان كل أولئك الرجال العاملين الناضجين، يعتنقون التوجس الحديث من سم الخمر، ومع ذلك فقد كانت ثمة حرارة لطيفة ناعمة تهيمن على ذلك العشاء الأنيق . فاستعرض هربلان وتافرنييه وكلاهما محدث بارع، فضائح الأسبوع الصغيرة . وقص مجريه قصة

مسلية ، ثم تناول هربلان ومدير السين الحديث عن النساء ، وعن الدور الذى يؤدينه فى حياة الرجال العاملين ، وكان كلاهما زوجا سعيدا بأسرته ، فكان يشيد بنعم الزوج والشريكة الفاضلة ؛ أما مجوريه الذى تزوج من فتاة كانت من نماذجه ، والكونت بلوا الذى كان يقال ان الاضطراب يسود أسرته ، فلم يعارضا فى أن شريكة ذكية مخلصة ، تستطيع أن تفيد فى سعادة الأسرة ، بيد أنهما أبديا ريبهما فى امكان العثور بمثل هـذه الشريكة ، ثم قال بلوا وماذا ترى أنت فى هذا يا أستاذ فيجيه .

وكان المسجل حليقا يشبه محياه محيا رجال الدين فأجاب : انى أعزب .

قال تافرنييه هذا صحيح فأنت مسجل وعضو فى مجلس المسجلين وأعزب ، وهذا ما كان واجبا أن لا يكون ، بيـد أن صديقنا قد آثر على ما يلوح أن يحتفظ بكل حريته فى أن يخطب ود كل العميلات الحسناوات .

فأبدى الاستاذ فيجيه بوكار حركة ارتياح قهقه لها الجميع وصاح : العميلات الحسناوات ! الا فليحفظنى الله منهن !

وبسط يديه الى الأمام كأنما يدفع عن نفسه هجوما عليه .

فقال هربلان ، ومع ذلك فقد عرفتك جوالا فى الحى اللاتينى يوم كنا نزور معا « نزل لافير » .

فاستعاد محيا فيجيه بوكار سكينته ، وقال لقد مررت بهذا .

فحدجه الخمسة معا ثم قال : اجل مررت بهذا وكنت ككل الفرنسيين فى عصرى فتى اعتقد أن أشرف ما يشغل به المرء وقته هو غزل النساء بل كنت أعتقد أنه واجب ، وقد حاولت أن أعالج العمل والغزل معا ، فسرعان ما ألقى القـدر على درسا قاسيا ، بيد أنى استفدت منـه فلزمت السكينة ، وهذا كل قصـتى .

فاعترض هربلان قائلا : كلا ليس هذا كل تاريخك ، بل هـذه عبرته

فقط . اذن فتفضل بأن تقصه علينا ، هيا ، وتحدث قليلا أيها المسجل .

وأيد الباقون هجوم هربلان . فنزل المسجل على هـذه الإرادة . وكان يعرف أنه محدث بارع ، ويشعر فى نفسه بذلك النوع من الروح الخاص ، الذى قد نسميه « روح القصص » .

قال : اليكم الحادث فى كلمتين . كنت فى التاسعة والعشرين ، كبير الكتاب الحقيق فى مكتب عمى الأستاذ بوكار الذى خلفته . واذ أقول أنى كنت كبير الكتاب الحقيق ، أعنى كنت ساعد الأستاذ الأيمن رغم كونى كنت أعتبر من الهواة فقط . أما كبير الكتاب الرسمى فقد كان شيخا متهدما ، وكان الأستاذ بوكار يبقى عليه شفقة منه ، حتى يعجز المسكين عن الحركة .

«وكنت أعمل بجد ، و يلذ لى عملى . وأعرف جيدا أنكم ترون اغراقا ، أنتم رجال السياسة ، والصناعة الكبرى ، والفن أو العلم ، أن يستطيع شاب أن يشغف بالأوراق . ولكنكم تجهلون ما هو المسجل بالنسبة لمعظم العملاء الباريزيين ، فهو فى نفس الوقت مدير أموال الأسرة ، وناصح الوالدين ، ووصى الأبناء ، وخل الأزواج ، ومستودع أسرار النساء . وهو الذى يسجل كل عمل عظيم فى الحيـاة البشرية ، ثم هو خير من يعلم لمـاذا أجريت هـذه الأعمال أو تلك ، وقد يتوقف عليه أحيانا أن يعـدل مداها أو منحاها . وهو الذى يعترف اليه بكل شىء تقريبا ، ويحزر ما لا يعترف اليه به . وهو الذى يرقب سير المـال والحب ، — قواما الجهود البشرية — أقرب ما يود ، لدى كل أعضاء الأسرة الواحدة . وكنت فى سن التاسعة والعشرين ، استخرج لنفسى كل ما أستطيع من ملاحظات جميلة فى هذا المعترك ، وآنس لذة مريئة فى أن أدمجها فى صيغ العقود المسجلة . وكنت كاتبا مجيدا ، وكان العملاء يتحولون الى مخاطبتى شيئا فشيئا ، و يسرون لسرعتى ومهارتى .

«وكنت فتى جميـلا . واياكم أن تصدقوا من يقول إن النساء يجذبهن

ذكاء الرجال أو مواهبهم ، أو مراكزهم ، بل ولا مالهم ، فقد انتهيت من تجاربي وملاحظاتي الخاصة الى أن النساء ، يسرن بالغريزة بادئ بدء الى الى الفتيان الحسان . ولكن الفتيان الحسان ، على الأغلب ، أغبياء لا يعرفون الاستفادة من هذا الظرف ، وهذا ما يقرر التوازن لمصلحة الآخرين .

« ألسنا ، قبل الثلاثين نجيش بنشاط وافر ، وفي نفس الوقت برغبة تضطرم في الحياة ، ونتوق الى الغنى والنفوذ والحب ... وكل شيء ؟ لاح لي أن طبيعي جدا ، أن مهنتي تغذي ذوقي للعمل وذوقي للسرور معا . وكان العم بوكار وافر الدهاء ، وافر الحصافة ، فكان يعظني دائما و يقول لي « اياك ومغازلة العميلة » على أني كنت أخالف هذا التحذير ، بل أمعن في مخالفته مؤمنا بعزيمتي وقوة نفسي .

« ثم انتهى العم بوكار بأن باع لي مكتبه بستمائة ألف فرنك . وألفيت نفسي في سن الثلاثين مديرا لمكتب من أعظم المكاتب الباريزية . فازدهر في عهدي . وكنت أبذ العم بوكار بلا ريب في ادارة الأعمال . بيد أنه لم يكن بعد هنالك ليرقبني و يعظني ، فاندفعت بكل قلبي الى الغزل .

« وكانت لي عميلة أمريكية حسناء هي السيدة ... فلنسمها مدام سميث . وكانت أثناء سفراتها في أوربا قد تزوجت من أمير ايطالي . ثم جاء الزوجان واستقرا في باريس حيث كان يعيش والد الأمير . ولكن لم يمض عام ونصف عام ، حتى عرفت الفتاة أن زوجها يخونها ، وظفرت بالأدلة ، وطلبت الطلاق فحصلت عليه ، وعادت مدام سميث . وكان من نذالة الزوج ، أن والده وحماها الأمير الشيخ أيدها في موقفها ، بل فكر في أن يحرم ولده من القسم الحر من تركته وأن يهبه الى مدام سميث .

« وكانت المسألة في منتهى الدقة ، إذ كان يتوقع أن الوارث المحروم يدفع بالتأثير غير المشروع ولا يدخر وسعا في خلق أشنع التهم لتأييد دفعه

فلجأت الى مدام سميث لا من أجل مشروع الوصية فقط ، ولكن لكى أنصحها أيضا فى شأن العلائق التى يجب أن تنظمها معوصيها ، حتى لا تقدم لأحد حجة عليها . وأخذت تتردد على مكتبي حتى لاحظت أنها تتردد أكثر مما يقتضيه العمل . وجاء دور الغزل بالاختصار ، وكانت مدام سميث صغيرة القد ، وافرة السحر مع ذلك ، ذات خلال شائقة ، عملية ثائرة معا ، لا تدع فرصة مشروعة للكسب ، ولا تتنزل من أجله فى نفس الوقت . على أنها كانت أعف النساء . ذلك لأن الزواج والحب كانا فى نظرها اسمان لمسمى واحد . فاذا تحاب اثنان تزوجا ، فاما وقد وجد الباعث الحسن للتعارف ، وأما هى أرمل فان لها أن تمتع بشىء من الحرية .

«أما أنا فكنت أقول لنفسى ، ولم لا؟ فهى ساحرة ، غنية ولكن الى حد لا يقال معه إذا تزوجتها أنى بعت نفسى اليها ، ثم هى ذات مكانة فى الجالية الأمريكية ، وهم من صفوة العملاء ، وإذ كنت أروق فى عينها ، فلتجر الأمور كما تشاء ، فسوف ينتهى كل شىء طبق ماتهوى .

وهنا صاح مجريه : تلك روح مسجل ! أهذا ما تسميه حبا ؟

قال فيجيه : الواقع أنى بالرغم مما كان يساور ذهنى من الريب ، ومن الإيمان بحسن طالعى ، كنت فى الأعماق عبدا لأهواء عمليتى الى حد كنت أنكره على نفسى . بل إن هذه المرأة الهائلة الصغيرة ، كانت تقول لى أحيانا « إنى أحبك » أو « إنى كثيرة الشغف بك » ثم تأبى بعد ذلك أصغر قبلة . على أنها كانت فى كل عصر تفد على تجرجر عطرها الظافر ، فاذا اجترأت عليها بشىء انقطعت عن الحضور ، فيبلغ بى الجبن أن أكتب اليها معتذرا متضرعا .

«ولكن حدث ذات مساء فى منتصف ديسمبر ، حينما كنت خارجا من سهرة فى دار شخص كبير من الجالية الأمريكية (لأن مدام سميث كانت تقودنى الى المجتمعات) ، وكنت أسير بها الى عربتها ، أن قالت لى فى بطء

وهى تحدجنى بنظرة فاترة :

«بعد أربعة أيام تمثل لأول مرة فى «الرينصانص» رواية هذا المؤلف الشاب . آه ماذا يسمى؟ وأريد أن أشهد التمثيل فاحجز لنا نحن الاثنين بنوارا . وبعد ذلك تقودنى للعشاء مرة فى كل يومين . لا تقل شيئا، ولا تمسك يدى بيدك هكذا أمام الناس . وتحقق من يوم التمثيل الأول وأرسل إلى فقط نمرة البنوار فسأحضر مهما كان اليوم . ولكن لا تعتمد منذ الآن حتى ذلك اليوم أن ترانى فى مكتبك أو فى منزلى . فإنى أريد أن أكون هادئة لأستطيع التفكير .

« ثم صعدت الى عربتها، فسارت بها سراعا وتركتنى . فسرت الى منزلى متخاذلا كالطالب

«واليوم وقد مضت عشرون سنة، فإنى كلما فكرت فى كل ذلك، أعتقد أن صاحبتى كانت على الأرجح تريد أن تمضى ليلة فى خلوة معى لتقول لى فى رفق وحنان : إنها قررت أن تتزوج منى . إذ أنا لم نفه قط بهذه الكلمة الخطيرة، وإن كان كل منا يتصورها جاثمة فى ذهن الآخر . قلت فى نفسى أليلة معها؟ سوف نرى . وبادرت منذ الغد أتفقد أخبار المسارح، لأعرف التاريخ المقصود بالضبط، ولكن هذا التاريخ لم يكن قد تحدد بالضبط، لأن الممثل الأول كان مريضا . فكتبت الى مدير المسرح أن يحجز لى « بنوارا » حتى أخطر بالتاريخ .

«على أن مدام سميث فعلت ما قالت، فلم تظهر فى مكتبى لا فى الغد ولا بعده . ولكن وصلتنى بالعكس بعد يومين رقعة من الامير الشيخ حميها القديم . وكان قد أصيب فى المساء السابق بنوبة حادة، وانتابته أفكار سوداء، فاعتزم أن يحرر الوصية المشروعة دون ابطاء . ولما كان نائما لا يستطيع الكتابة، فقد رجانى أن أزوره فى عصر اليوم ذاته، مصحوبا بالشهود المعتادين، وأوصانى أن لا أقول شيئا لمدام سميث لكى لا أزعجها . وفى نحو الساعة الرابعة

غادرت مكتبي مصحوبا بالأربعة « العدول » وهم الشهود كنص القانون ، فألق الى حاجبي عند البـاب غلافا ، فيـه تذكرة « بنوار » لأول ليـلة في الرنيصانص . ودهش أصحابي لما تولاني من الاحمرار لدى رؤية هذه الرقعة ، وقد طبع التاريخ في زاوية منها فاذا هو « ٢١ » ديسمبر . وكنا عندئذ في ١٩ ديسمبر . أعني بقي يومان طويلان . فصعدت الى العربة بخفة ، وحاولت جهدي اخفاء اضطرابي حينما وصلت الى دار الأمير .

« فرأيته مريضا جدا ، شديد الامتقاع والسقم ، فقطع مواساتي بفجأة وقال لي : هيا بنا ، وأنت تعرف رغباتي . فكل ما يتركه لي القانون للوصية متروك لمدام سميث . فحرر لي بذلك عقدا بعيدا عن المطاعن .

« وكنت قد اعددت صيغة العقد ، فقرأتها عليـه ، فوافق . ثم سطرتها في نفس الوقت وفي نفس الغرفة على ورق مدموغ ، اذ كان الامر يتعلق بمالكة قلبي . وكنت أردد أثناء ذلك في ذهني « في اليوم الحادي والعشرين سأبوح بسر مهنتي ، وأخبرها بأن الوصية قد تمت . يوم ٢١ ! أعني بعد يومين » .

« ولمـا تم العقـد قرأته بصـوت عال أمام الأمير والشهود فلم يثر أحد اعتراضا ووقع الأمير ثم انصرفنا .

« وكان الأمير قد اتخـذ تحوطاته الأخيرة ، لأنه زهق في اليوم التالي أعني في ٢٠ ديسمبر وقرأت النبأ في إحدى صحف المساء .

« ثم قال الأستاذ فيجيه : ألم تلاحظوا أن هنالك في ضميرنا أو في ذاكرتنا أوضاعا متوالية تشبه أوضاع المسرح — أوضاع تمثل فيها صور الحوادث ، وصور أعمالنا ، وأفكارنا ، وأن بعض هذه الأوضاع يبقى أحيانا في الظلام ، ثم يبرز بفجأة ويغـير ، ويتقدم منا حتى « يفقأ العين » كما يقول النـاس ، فلا نرى بعـد غيرها ، وتشـغل كل ذهننا . وهكذا كنت متمددا في فراشي أقرأ نبأ وفاة الأمير ، فإذا بالجريدة تسقط من يدي بفجأة ، فنهضت نصف نهوض

ورأيت ، — أجل رأيت أمام عيني أسطر الوصية الأخيرة التي كتبتها بيدى مساء اليوم السابق .

وكانت هذه الاسطر كما يأتى :

«وقد تحرر هـذا العقد وتنفذ فى باريس ، شارع سان دومنيك نمرة ١١ مكررة ، فى غرفة تقع فى الطابق الثانى ، ولها نافذتان على الشارع ، وذلك سنة ألف وثمانمائة وسبع وثمانين فى اليوم الحادى والعشرين من ديسمبر ... » .

«اليوم الحادى والعشرون من ديسمبر! أتسمعون جيدا ؟ الحادى والعشرون من ديسمبر . رأيت هذه الكلمات الأربع التى كتبتها ، كما لو كنت كتبتها منذ لحظة ، ٢١ ديسمبر ! أعنى تاريخ التمثيل الأول فى مسرح الرينصاص ٢١ ديسمبر ! أعنى غدا وقد مات الأمير اليوم فى يوم عشرين ديسمبر . لقد كانت الوصية باطلة !

وهنا قاطعه هربلان قائلا : هـذه مبالغة ، فأن واقعـة الوصية لا يمكن إنكارها ويمكن أثبات ...

فصاح المسجل : أ تعتقد هذا ؟ انك لواهم . واذا كنت حقيقة قـد أخطأت التاريخ ، فقد يمكن اثبات أنى أخطأت وهـذا كل ما فى الأمر ، ولكنى عندئذ أكون مسئولا — أنا المسجل محرر العقد ... والأحكام مجمعة على هذا ، ولم تكن هذه أول حالة من نوعها . إن أ كن أخطأت التاريخ ، فإنى مسـئول عن مبلغ أربعمائة ألف فرنك ، وهو ما يمثل القـدر الموصى به لمدام سميث . وما كنت أملك منـه درهما ، بل كنت مازلت مدينـا لعمى بباقى ثمن المكتب . وتالله لقد كنت فى هـذه الليلة الليلاء أرجف من كل أوصالى كالمحموم ، حتى لم أسـتطع أن أثب من الفراش . وقد حاولت أن أهدئ روع نفسى فقلت : إن هذا مستحيل ، فقـد قرأت الوصيـة أمام الأمير والشهود الأربعة ... وواحد وعشرون ليست فى رنينها كتسعة عشر

على أنى ذكرت أحوالا شهيرة حدث فيها مثل هذا الخطأ فى الوصية ، وكان المسجل فى هذه الأحوال يتلو التاريخ ، ولكن القدر شاء ألا يفطن أحد للعشار ... وكانت الساعة قد دقت ربعا بعد منتصف الليل ، فاستطعت أخيرا أن أنهض وارتديت سروالا وسترة . وكان مكتبى فى الطابق الواقع تحت مسكنى ، فنزلت السلم وفى يدى شمعة مسرجة ، وجزت الغرف المقفرة بخطى سريعة ، ونفذت الى غرفة المكتب ، وفتحت درجا ، وتصفحت ملفا ، ـ ها هى وصية الأمير . فوقعت عينى على الأسطر الأخيرة ، فإذا بالتاريخ حقيقة هو « ٢١ ديسمبر » ، أعنى كانت الوصية تحمل تاريخا بعد تاريخ وفاة الموصى أو بعبارة أخرى كانت باطلة .

«فوضعت الورقة فى ملفها ، والملف فى الدرج ، وعدت الى غرفتى هادئا إذ الواقع أن تحقيق زلتى لم يدهشنى ، وقد أصبت بالضربة قبل ذلك ، حينما قرأت ، كما أقرأ بواسطة سلك منير يوم « ٢١ ديسمبر » مرقوما على الورقة الغائبة . أجل عاد الى ثباتى . وقد لا تصدقونى اذا قلت لكم : انى نمت ليلى هادئا . ذلك أنى بحثت كل الإحتمالات ومنها الانتحار . فيالها من ليلة هائلة ، كلما فكرت فيها ، حتى بعد أن مرت عشرون سنة ، أشعر بالرجفة تسرى الى أوصالى .

وملأ الأستاذ لنفسه كأسا صغيرة من «الكيمل» ، وشربها على دفعتين بينما كان أصحابه يتجادلون .

فقال بجريه : لو حدث لى هذا ، لكنت ودعت كل شىء ، المكتب ، والوصية ، والأمريكية ، وأخذت تحت جنح الظلام قطارا يجعل الحدود بينى وبين المحاكم ، وما كنت آسف لشىء .

قال بلوا : ومم كان يستطيع العيش فى الخارج ؟ أمن لحيته الشقراء !

وقال ثالث من الجماعة : كانت أبسط وسيلة هى أن يبادر الى الأمريكية

ويعترف لها بكل شيء، فقد كانت هى سبب الخطأ، وقد كانت تهواه، وكانت بلا ريب تصفح عنه .

واتفق الجماعة على أن ذلك كان أفضل حل للمشكل .

ولكن الأستاذ فيجيه استأنف قائلا : بيد أن هذا الحل كان هو الوحيد الذى لم أقف عنده لحظة . إنكم أنتم تشعرون بالخلال والشرف التى يسبغها عليكم وسطكم وحالتكم، أما أنا فكنت أدين بخلال المسجل وشرفه، وكان ثمة انسان تضره زلتى . واذا كان هذا الانسان الذى وقع عليه الضرر سيدة تحنو على، فقد كانت مع ذلك عميلتى، والدليل أنى قبلت منها أن تدفع لى عن عملى أجرا . واذن فكان واجبا أن أختفى، أو أن أتحمل نتيجة الخطأ وقدرها أربعمائة ألف فرنك، إذ لم يكن ثمه ريب فى أن الزوج السابق سيطعن فى الوصية ويكسب قضيته بلامراء . وكنت فى الواقع قد اتخذت كل أهبة للاختفاء فى الوقت المناسب فى حذر وتعقل، ولكنى قبل الاقدام على التنفيذ حاولت مع ذلك أن ألجأ الى الوسيلة الأخيرة التى بقيت لى وهى أن أجد مبلغ أربعمائة ألف الفرنك .

أجل، فكرت فى العم بوكار، وكان يقيم يومئذ فى «نبلى» على مقربة من باب «مابو» فى مسكن بديع حسن الأثاث والرياش، غاص بالتحف . فلما أدخلت عليه فى نحو التاسعة ذات صباح، ألفيته يفحص تحفة صغيرة ترجع الى القرن السابع عشر تمثل رأس قاض، فانتظرت حتى وضع تحفته، ثم سردت عليه قصتى برمتها فى جلاء وصراحة، منذ غزلى لمدام سميث حتى وعدها المشئوم بليلة مسرح، والى أن وقع الخطأ فى تاريخ الوصية . فلم يقاطعنى عمى مرة واحدة، ولكنى كنت ألاحظ على وجهه بوادر انفعال قوى يبدو شيئا فشيئا، فقلت لنفسى : «لقد ضاع كل شيء، فسوف يصرفنى وسوف ينكرنى، ويحرمنى ميراثه، بل وسوف يؤنبنى» .

على انى مضيت فى اعترافى حتى نهايته . فما انتهيت حتى نهض عمى ، وتقدم منى وأمسك يدى بيده الذابلة الصغيرة ، وحدق فى عينى مليا وقال لى : وهل فكرت يا ولدى فى الانتحار؟

أجبت : أجل يا عماه

قال : لولا ذلك لما تكلمت بهذه الصراحة . ثم ترك يدى وقال لى : لا ريب انك ستذهب بادىء بدء الى مدام سميث لتحاول اقناعها بألا ترتد الى المطالبة ضدك اذا خسرت ميراثها؟

أجبت : كلا يا عماه فسوف تحصل مدام سميث على ما لها وإلا ...

فقاطعنى ودنا منى ، وأمسك رأسى بيده وقبلنى قائلا : صه يا أحمق ، فلن أتركك فى الشدة ، فأنت مسجل حق يجيش بتقاليد آل بوكار . ولو كنت أقدمت على هذه الضعة وتضرعت الى موكلتك ، لما رأيتك مدى الحياة ، ومع ذلك فإن الشقية خليقة بأن تخسر ميراثها ، فهى التى وعدت بسهرة فى المسرح ، وعشاء فى مخدع ! وهى التى شغلت ذهنك بتواريخ سخيفة . أترى الآن ، يا بنى ما ذا يكبد الانحراف عن جادة العمل ! أنا الذى أحدثك لم أرد قط أن أعرف ما اذا كانت عين موكلتى زرقاء أو سوداء ، وما اذا كان شعرها أحمر أو أسود . أترى أن أمريكيتك الحسناء تكبدك الآن أربعمائة ألف فرنك ، إذ يجب أن تعرف أنك بأخذها منى تأخذها من مالك .

ثم أفرغ الأستاذ فيجيه بوكار كأسه دفعة ، وصمت برهة ، حتى سأله مدير السين قائلا : وهل رُفعت الدعوى بشأن الوصية؟

أجاب كلا ، فقد سويت المسألة على يد عمى ، إذ تفاوض مع ولد الأمير وأقنعه بالاعتراف بصحة الوصية نظير مائتى ألف فرنك ، قبضها راضيا ، مؤثرا أن ينتظر الأعوام حتى يحكم له .

فسأل مجريه : وماذا فعل الله بميعاد المسرح ؟

أجاب : لم نذهب الى المسرح ياعزيزى ، وقد يدهشك انني نسيت هذا التاريخ — ٢١ ديسمبر — بعد أن ملأ ذهني الى حد أني سجلته في عقد رسمي . وقد أنفقت كل يومي وكل مسائي في مفاوضة مع عمي ، وفي استشارة المحامين ، ثم عدت الى منزلي في منتصف الليـل منهوكا ، ونمت على الأثر ، ولم أذكر طالعي الضائع الا صباح الغد . فاحكموا على بما ترون . ولكنني لست آسف على شيء .

قال : ومدام سميت ؟ ؟

أجاب : لقـد رأيتها مرة . وقد قبلت أن يتولى عمي معالجـة الوجه الخطير من المغامرة ، وقـد سوى كل شيء واستولت موكلتي على ميراثهـا ، واعتزمت أن تعود لرؤية وطنهـا ، على الأقل مدى فصل . وقد زارتني قبل سفرها بيوم . ولم تكن مضطربة ، وكنت هادئا . فقالت لي : إنهـا تريد العودة الى نيو يورك وانها تود أن تستعيد كل أوراقها التي ما زالت عندي . فلما نهضت تستأذن في الانصراف قلت لها : أرجو أن تصفحي عن نكثي ليلة ٢١ ديسمبر التي لم أستطع قضاءها الى جانبك .

قالت : لقد كان هـذا طبيعيا جدا ، وما كنت لأحقد عليك من أجل ذلك .

قلت دهشا : ومم اذن تحقدين علي ؟

فترددت قليلا . بيد أنها قبل أن تختفي وراء الباب الذي كانت تمسك بزره ، قالت في اضطراب : «لقد كنت اعتقد أنك رجل عمل أشد ثباتا» .

ثم انصرفت ... وأدركت أن هـذه المرأة الصغيرة ، ذات الذهن الهائم العملي معا ، احتقرتني نوعا لأن الهوى الذي آنسته من أجلها قد أضاع صوابي لحظة ، فلم أكن في نظرها سوى فرنسي خفيف . وأعترف أن الدرس كان قاسيا . ولعل هذا الاحتقار القليل من جانب امرأة ، كان أشدّ أثرا في نفسي

من عتاب عمى ، وأشدّ وقعا من ريب الليلة الهائلة ، حتى أننى اعتزمت ألا انحرف بعد عن جادة العمل .

«وقد جزت اليوم سن الخطر ، ولكنى كنت طالما امتد ، أشعر فى كثير من الأحيان بأن شبح موكلة يطوف حولى فأتأمل رقعة « البنوار » التى حرصت على ابقائها فى خزانتى ، ثم اتصور عين مدام سميث الخضراء ، ونظرتها الأخيرة الفياضة بالاحتقار .

«وعندئذ أستعيد جأشى ، واثقا من أنى لن أهب ، «عميلا» ، ولو كان يرفل فى أثواب النساء ، حقا فى أن يحدجنى بهذا الازدراء[1] ! » .

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Femmes .

مقتل مدام أوبرى

انى لأؤثر بعد كل شىء أن أعترف بنفسى فى بضع عبارات واضحة على أن أعانى العذاب بل الضجر الذى يحمله استجواب هذين المحققين السخيفين : قاضى التحقيق ورئيس محكمة الجنايات . فكثيرا ما استقبلتهما على مائدتى يوم كنت حرا غنيا ، ولن أخدع فى حقيقة ذكائهما و بعد نظرهما . فليقرآ هذه المذكرة بإمعان ، وليشكرانى لأنى أقلتهما من مجهود عقلى قد يؤذى منهما الهضم ، ومن عبث الأسئلة السخيفة التى يلقيانها عادة .

لقد قتلت زوجى ، وها أنا استعرض ظروف الجريمة الظاهرة بإيجاز لكى أنير ذهن المحلفين .

شهدت أنا ومدام أوبرى السهرة الموسيقية التى أقامها مدير الخزينة . ولم يستطع الأضياف الذين كانوا معنا أن يلمحوا بينى و بينها بادرة من سوء التفاهم أو الغضب . كذلك صرح خادمنا الذى كان ينتظرنا فى المنزل ، أنه لم يلاحظ شيئا غير عادى فى تصرفنا الى اللحظة التى غادرنا فيها بعد أن حمل الينا عشاء خفيفا ، وتلقى أوامرى للغد . ولكن حدث بعد ذلك بساعة ، فى نحو الساعة الثانية إلا ربعا ، أن استيقظ الحشم على صوت ثلاث طلقات نارية ، فهرولوا الى غرفتنا فوجدوا مدام أوبرى مطروحة فى قميصها ، عند مؤخرة الفراش ، والدم يتدفق من عنقها فى ثلاثة مواضع ، وأنا أقف مرتديا «الفراك» وظهرى الى المدفأ ، وفى يدى مسدس .

فلم يك ثمة ريب فى شخص القاتل . هذا الى أنى لم أنكر . فأسلمت نفسى الى السجن مصرحا بأنى قتلت زوجى لأنها كانت تخوننى ، فلما سئلت كيف ظفرت بالبرهان على عارى ، أبيت الجواب وأصررت على الإباء حتى هذه اللحظة . بيد أنى اليوم أعتزم أن أشرح الأسباب ، وسأشرحها بوضوح

لانها كثيرة الشذوذ لايستطيع أن يفهمها الأثنا عشر من السذج المضحكين، تجار أو أرباب معاشات، الذين سوف يقررون مصير حياتى .

إن العمل الذى ارتكبت، واليقين المؤلم الذى حملنى على ارتكابه، يرجعان فى الأصل الى ظروف زواجى من مدام أوبرى، والى أخلاقها وما تلقت من تربية . ذلك أن مدام أوبرى — وكانت قبل الزواج الآنسة چان ده كارنول — تنتمى الى أعرق الأسر النبيلة . وقد ربيت فى قصر كارنول، بين أب أعجزته سقطة من جواد وثلاث نسوة، هن أمها وعمتها وجدّتها، وثلاثتهن متنورات محدثات . أما هى فكانت تعد لحياة الدير . ولكن إفلاس «الشركة العامة» أصاب الأسرة بالخراب المطبق، وانتزع منها كل ريع، وكل شبر من الأرض، وكل حجر فى القصر . ولبث النسوة الثلاث، مربيات چان، إزاء هذا الخطب ينتظرن من يوم لآخر أن يطردن من القصر جميعا، واذا بى أتقدم وأخطب چان . وكنت قد هبطت هذه الناحية منذ قليل لأشرف على استغلال أعمال معدنية، وحظيت برؤية هذا الوجه المكتئب الوسيم، وهمت به هياما .

ولو تقدّمت قبل حدوث النكبة، لطردت خارج القصر، وهم يسخرون منى . ولكنهم من بعدها احتفوا بمقدمى . وكنت غنيا، بل كنت أكثر من ذلك، لأن عملى كان يحمل الى فى كل عام ثروة بأسرها . فاستعدت كارنول، وأديت الديون، وتعهدت بنفقة كافية للنسوة الثلاث والرجل المريض، وغدت چان زوجى .

ولست بحاجة الى القول بأن مدام أوبرى كانت تقية، بل كانت تذهب يوم تزوّجت الى حد الورع الفياض، ولكن الزواج نظم هذا الورع وهذبه، لأن هذه الفتاة التى ربيت فى مهاد الصرامة، كشفت لى مذ دخلت حظيرة الزوجية، عن حب يضطرم . بل كانت فى الواقع خليلتى فى العامين الأوّلين

من زواجنا، وكنت أحبها الى ذروة هيام ذهني، وذروة نفاد قواي . ولكن الزمن هذب من هـذه الرغبات العنيفة، كما يفعل بكل شهوة بشرية، فغدا حبي لزوجي كل يوم في قلة؛ وصداقتي لهـا في ازدياد . والظاهر أنها كانت تعاني من ذلك ألمـا، بيد أنها لمـا كانت كثيرة العزة كثيرة الرقة، كانت تخفي ألمها، أو أني لم أكن صادق النظر . ولكن إخلاصها كان بالعكس يزداد . وعادت الى الإكثار من عاداتها القديمة التي كانت قد تركتها نوعا في أيام حبنا المضطرم، من استمساك بعرى التقوى، وانتظام في الشعائر ووفرة في الوعظ، حتى كانت تحاول وعظي وهداي . بيـد أني جاحد لا اؤمن بغير القوى الطبيعية التي أشاهد أثرها والتي تكفي في نظري لتفسير الطبيعة . وكنت فوق ذلك أسخر من المعتقدات الدينية، وأسخط لكل مظاهرها وبوادرها . وأذكر أني في أول ليـلة من زواجي حينما رأيت جان وهي نصف عارية تجثو فوق الفراش الذي ستغدو فيـه زوجا لي وتغرق في الصلاة، قـد ساورني ضيق وامتعاض . ولكني خشيت اذا احتججت ان أغضبها، ولبثت كذلك أياما حتى أيقنت أنهـا تحبني . فعندئذ بدأت أسخر منها وأمزح، وأطلق العنان لصارم النقد وفاضح المجون كلما رأيتها تصلي مساء أو صباحا . أما هي فكانت على رقتها وثباتها دائمـا، حتى أرغمت في أعماق نفسي على أن أعجب بهـذه المثابرة وهذا الثبات .

ومرت الأيام، والأشهر، والأعوام، وبلغت عامها الثاني والثلاثين . وناهزت الأربعين وحل عندي هدوء المشاعر مكان لهب الشباب، فكنت أشـعر نحو جان بحنـان متين يكاد يخـلو من الشهوة . وكانت هي تعمـل لإسعادي، وكانت هذه السعادة المنزلية الهادئة وهموم العمل والمصالح، تحول دون أن أتبين أن هنالك سببا خفيا، يذهب بشكل غير محسوس شيئا فشيئا، بصحة زوجي التي لبثت حسناء دائما، ولكن يهدمها داء، يرمق الناس جميعا

تقدمه دونى . ولم يخطر بذهنى قط أن چان، وقد هجرها زوجها جسميا، يمكن أن تفكر فى أن تعوض ذلك من ناحية أخرى . وكنت أشعر باطمئنان غامض من جراء تقواها القديمة، وكذلك مما أشاهد من هدوء نفسها، ومقتها للكذب والرياء اللذين كانا مع ذلك قرارة نفسها .

بيد أنى منذ نحو ثلاثة أشهر أخذت ألاحظ فى تصرفات مدام أوبرى تغيرا محسوسا لفتنى رغم قلة اكتراثى . ذلك أن زوجى التى كانت على مايلوح تقنع منذ أعوام بدور الرفيقة والصديقة، أبدت لى ببوادر ظاهرة، أنها تريد شيئا غير العطف وأنها تريد ملاطفة ... وكان شرفى وسعادتى فى هذه اللحظة لا يزالان سليمين، وكان يتوقف على وحدى أن أنقذ چان وأنقذ نفسى . على أنى بالطبع أهملت هذه الفرصة السامية، وضحيت فى سبيل أثرتى بصحة زوجى ورضاها . بل لقد فهمت أن بوادر الحنان الطبيعى التى تبينتها تضايقنى، فتركتها أخيرا . وعندئذ لاحظت، كما يقع فى مثل هذه الحالة، مضاعفة فى الإخلاص وإغراقا فى الورع والصلاة .

واستمرت الحال كذلك حتى وصلنا الى يوم ٢٩ مايو الماضى، يوم الجريمة . وقد مضى كغيره، تخصصته للعمل فى المنجم والمكاتب . أما چان فقد أثبت التحقيق أنها خرجت، وانفقت فى الخارج ثلاث ساعات، ولكن لم يرد أو لم يستطع أحد أن يقول أنى أنفقت هذا الزمن . ورأيتها وقت العشاء، الذى مر فى سرعة وصمت . ثم نهضنا لنرتدى ثياب السهرة الموسيقية . وما دخلنا الى مكان الاحتفال حتى افترق كل منا عن صاحبه، فجلست مدام أوبرى فى أول صف من النظارة، وحولها جماعة من الفتيان، يرهقونها فى كل مكان بمداعباتهم، ولكنى ما كنت لأحفل بهم كثيرا . أما أنا فانى أبغض الموسيقى، ولذا جزت الى الحديقة، وأخذت أدخن السيكار مع عضو نيابة شاب . وكان هذا الفتى ذكيا رغم كونه من رجال القضاء، فاضطر أن

يلاحظ أنى كنت طول السهرة هادئا ، ولم تبدر منى قط بادرة تشعر أنى زوج يفكر فى قتل زوجه بعدئذ بساعات قلائل .

وأنى لأوجز : فأمر على الحوادث التافهة التى أعقبت ، والتى يعرفها كل إنسان ، وأصل الى اللحظة التى وصلنا فيها الى المنزل وجزنا الى غرفتنا ، وغادرنا الخادم ، وانفردنا .

لم نتحدث كالعادة . وأخذت جان تخلع ثيابها ببطء . واستندت أنا الى المدفأ ، وأخذت أحقق حشو مسدسى الذى أضعه دائما على مقربة منى أثناء الليل ، وهى عادة اعتدتها أيام الفترة التى قضيتها فى أمريكا .

بيد أنى لاحظت فجأة ذلك الأمر المدهش ، وهو أن زوجى دنت من الفراش ، ورفعت الأغطية ، وتمددت للنوم ووضعت رأسها فوق الوسائد ، وكل ذلك دون أن تصلى ! وأرى انه يجب أن أترك محاولة أن أبث فى القارئ ما عرانى من الدهشة لأمر تافه فى ظاهره كهذا . أما أنا فقد دهشت له وروعت ، كما لو كنت قد رأيت امرأتى تقبل رجلا فى فمه .

فلم أملك نفسى من أن أنحو نحوها وأناديها باسمها . ففتحت عينيها بجهد ، وأجابت شاحبة . ما بالك يا صديقى ؟

فتكلفت الابتسام وقلت : انك لم تصلى الليلة . فأغمضت عينيها كأنما تريد أن تتقى نظراتى وغمغمت : كلا ! بصوت خافت جدا .

فقلت لم لم تصلى كعادتك ؟ فهل أكون انتهيت بالتأثير فيك ياعزيزتى ؟

فلم تجب ، وتظاهرت بالنوم ... فاخترقت ذهنى لمحة من الإلهام ، ورأيت أن هذا العدول عن الصلاة انما ينم عن ثورة هائلة فى روح زوجى .

وانى لعنيف بل شديد العنف بالرغم من أن بوادر غضبى نادرة . فشعرت برغبة فى أن أمسك بكتفيها العاريين البارزين من تحت الأغطية ، وأن أضربهما ، وأعركهما حتى يحملها الألم على التكلم .

بيد أنى ملكت نفسى ، وجثوت إلى جانب الفراش ، وأدنيت فى من أذن چان وهمست : عفوا ياعزيزتى ، فإنى أعرف أن الحافى مضحك سخيف ... وليس لى حق بعد أن طالما سخرت من تقواك ، أن اسألك لم لا تصلين بعد . ولكن صفحا وأجيبى ... قولى فقط إنها نزعة فحسب ، أقتنع فى الحال .

فأبت الجواب أيضا ، فنهضت ، ونزعت الأغطية لأضطرها الى النهوض فنهضت ، وقد اتسعت عيناها ، وقرأتُ فيهما فى الحال اعتراف الخيانة و روعة الموت .

فقلت لها : صلى ، واركعى ، وارسمى اشارةالصليب فلا أطلب اليك شيئا آخر. فاذا أبيت اعتقدت أنك قد دنست اليوم ، وأنك لا تجرئين على الصلاة .

فحركت شفتيها ، ولكنها لم تهمس بكلمة ، فتناولت مسدسى من على المدفأ ، وصوبت فوهته نحو الأرض وقلت : اعترفى بأن هذا صدق . لقد استسلمت اليوم الى رجل . وانى أتحداك أن تقولى لا ، وأتحداك أن تصلى .

فلم تتحرك ولم تتكلم . ولبثت تحدق بعينين واسعتين فى يدى اليمنى التى تحمل السلاح ، وتتبعها اذ ترفع السلاح ، وتصوبه نحو نحرها العارى .

قالت : رباه ! رباه !

فلم أسألها بعد ، وكنت على يقين ، فأطلقت النار ثلاثا ، فتقلبت الرصاص أمامى فى صدرها ، ولم تسقط الا عند الثالثة من فوق سريرها مخضبة بالدماء . عندئذ استندت الى المدفأ وانتظرت



وقد لبثت مدى شهر فى عزلة السجن أطلق العنان لتأملاتى وأفحص ضميرى . لم أك زوجا طيبا طالما عاشت زوجى ، وهذا هو خطئى الحقيقى ؛ ولكن اليوم الذى قتلتها فيه ، كنت زوجا عادلا لأنها خانتنى . كنت واثقا

من ذلك ألف مرة ، واثقا كما لو كنت رأيتها بعينى ، واثقا أيضا من عقلى وصوابى ، فما كنت لأندم على ما صنعت .

وماذا يهمنى إذا كان المحلفون والقضاة يشاطروننى اعتقادى أولا يشاطرون ؟ هل يعتقدون أنى مجنون ؟ وماذا يهم ؟

أقول لكم انى قد وقعت القصاص ...[1]

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Notre Compagne .

ملحـــــد !

أصحيح أن القسيس ، كما يروى الكتاب كثيرا ما يخوض المغامرات المؤسية؟ أما أنا فاعتقد بكل اخلاص أن لا ، فهنالك دائما بيننا نحن رجال الدين و بين العصر سد ، وفقاقيع العصر تتكسر على صخرة هذا السد . أما ما يعرض لنا و يشملنا أو بالحرى ما يغمر حياتنا ، فهو الموج المضطرب للضمير البشرى . فهو يواجهنا من كل صوب ، ولكننا نلقاه مجردا عن كل ماتتكون منه الحياة البشرية . وليس ثمة شبه بين الإفضاء الذى يتبادله الأفراد العاديون ، وذلك الذى يبثه رجل عادى لقس . ففى كل مرة يعرض لى مثل هذا الإفضاء ، يخيل لى انى اسمع روحا معتزلة انتزعت من جسمها وانها تعامل هذا الجسم كأنه أجنبي عنها ، أو كعدو تتهمه ، وتحاكمه ، وغالبا تبغضه .

هذه التأملات تهاجمنى اليوم ، — مساء السبت ليلة الفصح . وقد كنت وحيدا فى غرفتى ، أنتظر زائرا ، يأتى لرؤيتى فى كل عام منذ ثلاثة أعوام ، ولكنه تأخر هذا العام ، لأن ساعة المقدس قد دقت تسعا .

زارنى لأول مرة حينما كنت قسيسا لكنيسة شعبية وضيعة فى حى فوچيرار ، وليس لتلك الكنيسة الفتية الأنيقة . آه ، إن زائرى يومئذ لم يكونوا يطلبون رأيي فى اختيار الروايات التمثيلية التى يرونها ! بل كان ثمة ما أرى مأساة البؤس الخالدة ، وكان حكمى يطلب فى معظم الأحوال فى المعارك التى يكون موضوعها اغتنام القوت أو الدفاع عنه . أما ما يسمى بالحب فكان يخضع دائما لذلك ، أو كان على الأقل يخضع أمام مملكة القوت اليومى — ذلك الحب الذى يحدثنى عنه الفتيات الأنيقات ، بأصوات مرتجفة وهيئات تنم عن الوجل والأسى .

ففى ذات مساء ، يوم السبت المقدّس ، منذ أعوام ثلاثة ، كنت أغفو

بعـد العشاء ، لأنى كنت متعبا بعد ما قضيت اليوم فى سماع الاعترافات ، فطـرق بابى طارق . وأدخل غلامى رجلا لم أتبين وجهـه جيدا لأن الظل كان يحجبـه ، ولكنى تخيلته فى الخمسـين من عمره . وكان حسن الثياب ولكن دون إناقة . وكان يلوح عليه الاضـطراب والوجل حتى أنه رغم انصراف الغلام لم يستطع الا تلعثما .

قال : سيدى ، سيدى الأب ... سـيدى الكاهن .. انى أزعجك .. اذا كنت أزعجك فسأنصرف . فأكدت له أنه على الرحب والسـعة وقلت ضاحكا : إن الظلام يسودنا ، فعذرا وسأضيء المصباح . فوقف يدى قائلا : كلا ، وأرجوك . لا أريد نورا بل أفضل هذا ، دون ضوء .

ثم جلس على مقربة منى وأخذ يتكلم بذلاقة جمة .

قال : اليك حديثى . لست مؤمنا ، وهذا ما أصارحك به بادئ بدء ، وليس هـذا فقط بل إنى خصيم الإيمـان ، حر التفكير ، بل ملحد عدو ألد لكل دين ومعتقد . على انى لست أنتمى لفرقة ما ، ثم انى أسلم بقيام العقيدة الدينية لدى الغير ، ولا يثيرنى ذلك ، ويلوح لى أن الإيمـان من عدمه مسألة خُلُق قبل كل شيء ، أما أنا فإنى حيوان ملحد .

فأردت الاحتجاج ، فقاطعنى قائلا : اذا قاطعتنى فلن أتكلم حتى النهاية . اصغ الى ، إنى فى الخامسة والأربعين ، أستاذ بالمهنة ، أستاذ الكيمياء العضوية فى معهد عال . ولست مجهولا . بل أنى ممن يسمونهم « علماء » ولم أعن فى حياتى بالسخافات . وقد تزوجت وأنا فى السابعة والثلاثين من فتاة سامية هى طالبة طب يتيمة الأب والأم فى الثالثـة والعشرين من عمرها ، رفيعـة الخلال ولكن دون كثير جمال . وكانت تعيش من دروسها عيشة مسكينة ، وتعنى بتربية أخت صغيرة لهـا فى الثامنة . فحملت الطفـلة معنا بالطبع . وكنت سـعيدا بزوجى وثمين معونتها ، وكانت كاملة فى كل شيء فلم يحدث

بيننا فى ثمانية أعوام ما يكدر .

ثم توقف . وكان الظلام قد ساد غرفتى . وساد بيننا الصمت بضع لحظات . فأدركت أنه لا يستطيع الإفضاء بعد ما لم أساعده . فغمغمت قائلا : يا ولدى المسكين، لقد عرفت أو بالحرى تكهنت . مضت ثمانية أعوام كبرت فى خلالها الطفلة التى آويتها .

فنهض وارتد مذعرا وصاح : كيف استطعت أن تحزر ؟ أما أنا فقد ساخت شهورا وشهورا لكى أفهم، ولكن ثق أن إنسانا لا يريبه شىء ولاسيما فى أمر هذه الفتاة . بل إنى لأوثر أن أبتلع كأسا من السم ! ولكن اصغ الى . إنى أعانى عذابا هائلا . فتصور حياتى بين هاتين المرأتين، احداهما لا أحبها بعد ولم أحبها قط بمعنى الكلمة، والثانيــة تلك التى نفذت الى عاطفة كنت أجهلها، ولكنها اليوم ترهقنى وتنهشنى ولا تترك لى لحظة من السكينة . وقد تلمست الفرار منها بكل وسيلة، بالعمل المبهظ، والرياضة المنهكة، والمخدر، فلم يروح عنى شىء، ولا يسلينى شىء . وأمر ما فى الأمر أن تلك الفتــاة الطاهرة التى لا تجاوز الخامسة عشرة تحبنى ... وأنا على يقين من هذا .

فكررت : ياولدى المسكين !

فاستأنف : وقد تمر على لحظات أعتقد فيها انى أحمق اذ أقاوم نفسى . ذلك انى لا أومن بشىء، وأعرف أن مغزى الحب انمــا هو من مبتدعات الرجال ومبتدعات أثرتهم، وأنه ليس ادعى الى الاحترام من تعريفة جمركية . هذا مايقوله عقلى، ولكن الوراثة الخالدة لمبادئ الأخلاق التى ادمجت فى دمى تحتج وتصيح : « أنت شقى، وأنت وحش ! » وهــذا الصوت هو الذى ينفذ الى أعماق نفسى، ولست أستطيع ان أخمده .

ثم صمت ثانية فقلت له : اذن قد أتيت هنا يابنى لتضرع الى حرم الله .

فأجابنى : كلا، لقد قلت لك انى لا أومن بالله، ولكنى قدمت هنــا

لأبث عذابي الى مخـلوق من البشر . وجئت أيضا لأنى ذكرت ان رجالا مثلك ، يدينون بمـا تدين ، يمثلون منذ قرون واجب العزاء وتقويم الأخلاق لضمائر بشرية لا تحصى . لقد جئت اليك لأنى يائس ، ولأنى أريد أن أفرج كربي ولو من طـريق الخطأ . فقم بمهنتك كطبيب وهدىء روعى ، وأهدنى سبيل الرشاد فإنى مصغ اليك .

فتكلمت بدورى . ماذا قلت لذلك التائب الغريب ؟ لعمرى لم أقل شيئا عميقا ولا ذلقا . وأعتقد أن قوتنـا كمقومين هي ان نسـبر غور أرواح البشر بعيـدا عن المهمة الإجتماعيـة ، وكفاية البشر العقلية . لقد كان هـذا الأستاذ ، بلا ريب أكثر علما منى وأشد ذكاء ، وقد قرأ وفكر أكثر منى فيما يسمونه بعـلم النفس . ولكنى حدثته كما أحدث تائبا عاديا في مثل حالته . ولئن كان امرؤ على شفا الغـرق ، فإن نفس العصا المنقذة تصلح دائمـا سواء كان الغـريق صعلوكا أو سيدا عظيما .

فلمـا انتهيت من وعظى ، اسرجت السراج ، فلم يعترض زائرى فى تلك المرة . وعندئذ رأيت أمامى رجلا نحفيا ، تبدو عليه أمارات الذكاء والألم ، قـد وخطـه الشيب . فنهض وحدجنى بعينيه السوداوين اللذين يظللهما حاجبان كثيفان وقال بلهجة المؤنب : انك لم تشفنى ، وما زلت مريضا .

فقلت : انك لا تدرى من أمر ذلك شيئا ، فاذهب والله معك . ولعلك أقل مرضا مما تتوهم ثم عد لرؤيتى .

قال كلا : فلن تستطيع شفائى .

وكان مكتئبا كالطفل فوضعت يدى على كتفه وقلت : عدنى أنك لن تنفق عاما دون أن ترانى فاذا لم تعد فسوف أعتقد أنك هزمت . ولكنى على يقين من أنك لن تهزم .

* * *

فخرج ولم يعدنى شيئا، ومضى عام . ولكن ماجاء مساء السبت المقدس حتى كان زائرى الملحد فى غرفتى ثانية . فخيل الى أنه أكثر نشاطا وعزما، بل أكثر فتوة . فنبأنى انه قد اعتزم أمره وأنه لن يقاوم نفسه طويلا .

قال لى : لقد أفلحت فى أن أخمد فى ضميرى تلك النزعات التعسة التى تبثها تلك الفضيلة الصناعية . وسأرحل مع المرأة التى أحبها . فتلك شريعة عظمى لأخلاق الطبيعة، وهى التى تغلب على أية شريعة أخرى .

فقلت : ومتى ترحل؟

أجاب مضطربا ... قريبا، ... فى بضعة أسابيع .

فحدجته فى عينيه مليا وقلت له : كلا لن ترحل، وسوف تمنى نفسك لأنك رجل نزيه . وسوف أراك هنا فى العام المقبل .

فكاد يسبنى أو على الأقل شدد فى التأنيب واللعن والسخرية، وغادرنى دون مصافحة . ومضى عام آخر وجاءت ليلة الفصح مرة أخرى، ورأيت صاحبى فى الساعة المعتادة .

فدهشت اذ رأيته أشدّ سكينة من قبل .

قال لى : لقد اعتراها مرض شديد . أصابتها نزلة صدرية، فاعتقدنا أنها هالكة . ولله كم انفقنا الى جانبها أنا وزوجى من ليال ! ... ولكنها تماثلت نوعا، وما زلنا نراقبها خشية أن يدركها السل .

فحمدت الله سرا اذ أرسل ذلك المرض الفجائى، ولم يشر محدثى بكلمة بعد عن مشروعه الشيطانى فسألته : وماذا تشعر الآن فى نفسك ؟

فأجابنى، أشعر بشىء من الإنحلال ولكنى لم أشف بعد، وتساورنى روعة هائلة من اليقظة التى قد تعقب الاطمئنان على حياتها .

ثم افترقنا صديقين بعد أن وعدنى بالعودة ... ولست أشك فى أنه موف وعده . بيد انى نقلت خلال هذا العام الى كنيسة أخرى، فهل يعرف ؟وهل

يجرؤ على زياتى فى تلك الكنيسة الأنيقة النائية التى تختلف أيما خلاف عن كنيسة ڤوچيرار ؟ . ... ولكن يلوح لى انى أسمع قرع الجرس ، وانه لهو إذن ؟ .

* * *

أجل كان هو ! .

بيد انى آنست صعوبة فى تعرفه اذ رأيت أمامى شيخا ، فلم أتمالك أن أبادره بقولى : هل ماتت ؟ .

نخفض رأسه ثم ارتمى على مقعد ولزم الصمت برهة . ثم قال : كلا فلم تمت ، ولكنها حية وحسناء ، وقد تزوجت من طبيب فتى ارجنتى يشتغل فى معملى و ...

ثم تخاذل صوته وجرى دمعه ، وقال فى زفرة : ولقد عاد الى وطنه ... معها .

فأمسكت بأصابعه ، — أصابعه المسكينة المرتجفة وقلت له : يابنى ! انى على يقين من أنك أنت الذى أردت هذا ، وسعيت الى عقد هذا الزواج .

فأجابنى بصوت خافت : أجل ، فأنا الذى أردت . وقد كانت تحبنى ، بل أفضت الى بذلك الهوى . فهى لن تكون سعيدة . أما أنا فقد تحطمت ، وهذه هى نتيجة عملك .

واعتقدت أنه سيغرق فى اللوم كالمرة الأولى . ولكنه قال حقا ، وقد كان محطما ، فلم يستطع الا أن يبكى طويلا ، وهو ينثنى نحوى وجبينه فوق يدى اللتين تمسكان بيديه .

ولم ننبس ببنت شفة حتى نهض ، فمسح دمعه بيد مرتجفة وقال لى : وداعا ! ثم غمغم لدى الباب ، إذا أردت ... قدمت اليك قبل العام القادم .

قلت عد غدا . قال كلا ، ليس غدا ، بل قريبا .

... لقد كنت على يقين من ذلك[1] .

---

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Femmes

اخلاص ...

«من أنتوانيت الوصيفة الى سيدتها البارونة ده روزمون» .

صدعت بأمر سيدتى البارونة ، وبما قررته مع سيدى البارون ، فصحبت سيدى البارون الى روان حيث ذهب ليعنى بتسوية ميراث سيدتى الراهبة فارانكڤيل .

وإن سيدتى لتخطئ اذا اعتقدت أنى نسيت ما أوصتنى به ، وهو أن ابرق لها اذا غيرسيدى موعد عودته ، وخصوصا اذا اعتزم الوصول الى باريس ليلا . ولتسمح لى سيدتى بأن أفضى اليها بهذا اذ أنى موضع ثقتها : لقد اعتقدت جيدا أنها ستغتنم فرصة غياب سيدى البارون لتذهب الى رؤية سيدى «الكابتين» فى فونتنبلو ، وسيدتى قلما تنعم بساعة حرية !

بيد أن الأمور لم تحدث كلها كما توقعت ، فما استطعت أن أقف فى الوقت المناسب على نية سيدى فى الرحيل ، وقد حدثت فوق ذلك أمور يجب أن أقصها على سيدتى . فلا يتسرب الجزع الى سيدتى أو الى سيدى «الكابتين» فقد أجل سيدى البارون موعد عودته الى باريس ، وقال لى هذا الصباح : « ان المقام طيب هنا بحيث أود البقاء يومين آخرين أو ثلاثة » .

ويجب أن تعلم سيدتى بادئ بدء لكى يتضح لها كل شىء ، أن سيدى البارون يطاردنى فى المنزل منذ حين ، غير أنى لم أصرح بذلك الى سيدتى ، أولا لأن وصيفة مثلى لا يدعو شأنها الى الاهتمام ، وثانيا لأنى لم اعتد التقول على الأسياد ، وأخيرا لأنى لم استسلم قط الى سيدى ، فلسيدتى أن تطمئن . ومع ذلك فقد كان سيدى البارون متحمسا الى حد الاضطرام ، وما كنت أجرؤ على الدخول فى غرفة ثوى اليها . وكان يخاصرنى ويقبلنى خفية . آه لو تدرى سيدتى مقدار الجهد الذى بذلت ، كيلا أصبح ليلة أن ركبت العربة

الى جانب سيدى وسيدتى الى المحطة ، لازدحام مكان السائق بالمتاع ، وسيدتى تعلم أنى شديدة التأثر . إن مركز الوصيفة يغدو أحيانا صعبا دقيقا سيما إذا كانت مخلصة لسادتها .

على أنى أردت بصحبة سيدى البارون فى سفرته الى روان أن أسدى الى سيدتى يدا ، وقد كنت على ثقة أن سيدى سيغتنم فرصة خلوته بى فيستأنف حماقته . وهذا ما حدث ، فقد أراد سيدى بادئ بدء أن يركبنى معه فى الدرجة الأولى ، ولكنى كنت اشتريت تذكرتى منذ الليلة السابقة ؛ وبينما كان سيدى يشترى تذكرته صعدت توا الى الدرجة الثانية . فجاء هو حيث كنت واضطررت أن أقاومه حتى «مانت» إذ كنا منفردين فى المخدع أنا وسيدى ، فلما وصلنا الى «مانت» صعد الى مخدعنا لحسن الطالع جماعة من الراهبات ، فغادرنى سيدى عندئذ وذهب الى مخدعه .

فلما وصلنا الى روان ، عاد سيدى البارون الى اضطرامه ، حينما صعدنا الى العربة التى سارت بنا الى منزل الراهبة المتوفاة ، ولم تعد الى سكينتى إلا حين وصلنا . لم يجرؤ سيدى أن يضايقنى بعد امام الخادمين العجوزين يواكيم وأورسيل . وقد ساءنى أن تناولت الطعام معهما ، وكان سيدى مصيبا فى استصحابه لى لأنهما لا يحسنان خدمة أحد . وعلى ذلك فقد قمت أنا بخدمة سيدى و إن كان يرهقنى بملاحقته ؛ فلما جاء العصر تنفست الصعداء نوعا لاشتغال سيدى بمهامه حتى العشاء . ولكنه فى الليلة التالية أمرنى أن أنام فى الغرفة الملاصقة لغرفته ، زاعما أنه يعانى من مغص معدى ، وأن السوائل الحارة تخفف من ألمه . وقد كان بودى أن تشهدى هيئة الخادمين العجوزين حينما كنت أعد فراشى ، فقد أبدى يواكيم تذمره ولم يملك أن غمغم أمام سيدى البارون « إنها لفظاعة ... ! » وغمغمت العجوز « من المخجل أن تجىء وصيفة حقيرة فتنام الى جانب غرفة سيدتى التى كانت

قديسة ! » . فتظاهرت بأنى لم أسمعهما وأن كان من المؤلم أن يوصف المرء بالحقارة خصوصا إذا كان المقصود بالإهانة فتاة مثلى تعلم سيدتى أنها ذات حشمة وعفاف .

وكنت أرتاب فى نية سيدى البارون ، فلما جن الليل حصنت باب غرفتى ، وبينما كنت مستغرقة فى النوم إذا بحركة أيقظتنى ، وإذا سيدى البارون يطرق الباب ويحاول فتحه . ولكنى لم أتحرك فنادانى « انتوانيت ! انتوانيت ! » فاجبت « أى سيدى ! » — «انتوانيت ، إنى أشعر بمغص شديد فهيئ لى قدحا من الكراويا يابنية ! » فقلت فى نفسى « قد لا يشعر سيدى بشيء من المغص ، ولكن يجب أن أصدع بالأمر » ولم تمض نصف ساعة حتى هيأت ما طلب ، واضطررت أن أفتح الباب لأقدم القدح الى سيدى . فلما دخلت هم سيدى بمضايقتى ثانية ، وشدد فى إرهاقى حتى سقط القدح من يدى ، وسالت الكراويا . وكدت أجنح الى البكاء ، ولكن سيدى أمسك بيدى وقبلنى ، وقال لى انه يحبنى منذ بعيد ، وانه يتكفل بمستقبلى اذا تصرفت معه بلطف ، ويهيئ لى مسكنا صغيرا بالقرب من منزله ، وان جمالى أثمن من أن يذوى فى الخدمة ، فشكرته وأجبته أنى لا أستطيع ، فقال سيدى : رباه ، وماذا تريدين اذن ؟ وهل لا أروق لك ؟

— يعلم سيدى جدا ان لا ، فسيدى البارون جميل الطلعة ، ويروقنى كثيرا كما يروق جميع الناس .

— اذن ماذا ؟ ماذا تنتظرين اذا كنت أروق لك ؟

— لقد نسى سيدى ، سيدتى البارونة ، هذا الى أنى فتاة عفيفة .

— ان سيدتك لن تقف على شيء أيتها الحمقاء ، أما كونك عفيفة فلست اسألك التدهور ، بل بالعكس أريد متى هيأت لك مسكنك الصغير ، أن تلبثى عاقلة كما أنت الآن . وساجد لك عملا تزاولينه فى منزلك .

ثم اشتد سيدى فى الإلحاف ، بيد أنه آنس أنى لست هازلة فى الدفاع عن نفسى ، وان فتاة لا تكون عفيفة إلا اذا أرادت .

عندئذ استشاط سيدى غضبا ، وأمطرنى سبابا ، وصرفنى الى غرفتى وأغلق بابه بالمفتاح . فساءنى غضبه ، ولكنى اغتبطت اذ استطعت أخيرا أن أنعم بالنوم الهادئ ، وحصنت بابى زيادة فى التحوط ، إذ تعرف سيدتى ماذا يساور الرجل فى مثل هذا الظرف ! بيد أن سيدى لم يزعجنى بقية الليل .

وفى الغد — وكان يوم الاثنين — استقبلنى عابسا ، غاضبا ، ولم يكلمنى ببنت شفة ، وكنت أود أن أسأله هل ما زال مصمما على السفر صباح الثلاثاء . ولكن لتصفح عنى سيدتى ، فقد شهدت من عبوسه ما ردّنى عن أن أفاتحه الحديث . ثم غاب عن المنزل حتى العصر كالعادة ، ولم يعد إلا وقت العشاء . وما انتصفت الساعة التاسعة حتى جاء الى غرفتى وقال لى :

« هيئى متاعك ومتاعى يا أنتوانيت ، فسوف نرحل بقطار الساعة العاشرة .

— غدا صباحا يا سيدى ؟ — كلا بل هذا المساء ، بل الآن ... فقد أتممت أعمالى ، ولست أريد أن أقضى ليلة أخرى فى تلك المدينة القذرة .

وسيدتى تحرز أنى قد جزعت ! فمكاتب البرق مغلقة فى هذه الساعة بحيث لا أستطيع أن أخطر سيدتى ، وكنت أرجح كما قلت أن سيدتى كانت وقتئذ مع سيدى «الكابتين» وتصوّرت أننا نصل الى المنزل فى منتصف الليل فلا نجد سيدتى ... أو نجدها بصحبة سيدى «الكابتين» .

فلما لاحظ سيدى البارون اكتئابى قال لى : حسنا يا أنتوانيت ؟ ألم تفهمى ... ماذا عراك ؟ ولم هذا الاكتئاب ؟

فألهمنى المولى القادر فكرة فأجبت : أخشى أن يكون سيدى البارون قد اعتزم السفر بغتة لأنه غضب منى ... بيد أنى لم أقصد أن أغضب سيدى البارون ... ولو علمت أننا سنرحل هذا المساء ...

فلاح البشر على وجه سيدى وقال : حسنا ماذا كنت فاعلة لو علمت !... أ كنت تجنحين الى التعقل والرشاد ... ؟

ثم أمسك بذقنى ... رباه ... ولم أستطع أن أفتر فى تلك المرة . ألم تكن كل الوسائل حسنة عندئذ لمنعه عن اللحاق بالقطار ؟ شهد منى ذلك فعاد الى اضطرامه وجذبنى اليه بعنف فلم أرده بقوة، بل ضحكت وقلت : حذار ياسيدى، حذار أن يفوتك القطار! فأجاب، إنى أسخر من القطار .

ترى ما ذا ستقول سيدتى ؟ لم أستطع طول الوقت أن أضحك وأن أمرح، بل كان من المحتوم أن أصدع بإرادة سيدى البارون . وفى وسعى أن أؤكد لسيدتى انه لم تكن ثمة وسيلة أخرى لمنعه عن اللحاق بالقطار ...

ولا أود أن أقص على سيدتى كيف انقضى الليل . بالطبع لم يتركنى سيدى البارون أن أغلق باب غرفتى، ولم يكن لذلك وقتئذ من أهمية . وقد ظننت أننا نرحل بقطار الساعة الثامنة صباحا، ولكن سيدى لم يرد السفر بعد، وقال ان روان تروقه، وانه يريد أن يصحبنى الى رياضة خلوية .

لقد كنت صريحة مع سيدتى، وفى وسعها أن تثق بأنى قلت الحقيقة كلها، ولم أقصد بما فعلت إلا أن أسدى اليها يدا ، فاذا كتب الخادم العجوز أو الخادمة العجوز لسيدتى بشىء آخر فهو الكذب الصراح . ولست أريد الآن إلا أن تقول لى سيدتى ما ذا يجب أن أعمل، فاذا أمرت بعودتى توا الى باريس فعلت . أما اذا شاءت أن تنعم بقسط آخر من الحرية، فإنى على يقين من أنى أستطيع أن استبقى سيدى هنا ...

ان سيدى شديد الإلحاف . ولكن اذا شاءت سيدتى أن أبقى فإنى أفعل راضية حبا بسيدتى، إذ أعلم أن سيدتى تكون عندئذ سعيدة بصحبة سيدى « الكابتين » (١) .

---

(١) أخذت هذه القطعة من مجموعة Lettres de Femmes.

صحف

من

چان لوران Jean Lorrain

چان لوران

لوران ، قصصي وكاتب مسرحي ، ولد سنة ١٨٥٥ ، واشتغل حينا بالصحافة ، وعالج التأليف المسرحي فظهر فيه ، وكتب عدّة روايات تمثيلية قوية ، وكثيرا من القطع الغنائية والأناشيد الراقصة . ومن آثاره القصصية : Le Forêt blue ، و Viviane ، و Sensations et Souvenirs ، و La Dame turque . ومن آثاره النقدية Modernités . وفي سنة ١٩٠٠ أخرج أثره الشهير Histoire de Masques ، وهو الذي نقدّم بعض فصوله هنا ، وهو مجموعة مدهشة شائقة مثيرة من الصور الإجتماعية الخفية ، صيغت في قالب قصصي ، وفيها يعالج صور الانحطاط الإجتماعي التي تمثل في النفوس المنحلة ، والتي تجثم في أوكار باريس ومنتدياتها السرية . ويقدّم لوران الينا هذه الصور المثيرة في ألوان قوية شائقة ، ويجيد وصف هذه المخلوقات المترفة أو البائسة التي لفظها المجتمع الفاضل ، والتي تنسل الى الأقبية الرطبة المظلمة لتطلق العنان لشهواتها السافلة .

ويمتاز چان لوران بقوّة خياله ، ودقة تصويره وتحليله ، ونعومة أسلوبه ، وبيانه قوي ساحر ، لاذع في كثير من الأحيان .

وتوفي چان لوران سنة ١٩٠٦

قصص القنـــاع

أروع ما يكون الخوف اذا كان مصدره «المجهول» ، واذا كانت الأقنعة تحتوى كثيرا من الروع ، فذلك لأنها وجه الخفاء ذاته ، ولأن الخيال يستطيع أن يتصوّر كل شيء وراء ظاهرها من الشمع أو الورق ... ومع ذلك فيوجد ما هو أسـوأ من الوجه الزائف الذى تخفيه الأقنعة والدهانات : ذلك هو الوجه البشرى ذاته ؛ هو وجهى ووجهك ووجه صديقك أو خليلتك ، وكلها صيغت من النفاق ، واحتجبت بالتظاهر ، وكلها وجوه قد يسقط محياها المتكلف العمد بغتة ، كما تسقط صورة الذئب الحريرية عن وجه المقنع ليلة « الكرنفال » ، وعنـدئذ تكشف الإبتسامة الودود عن بارق من البغضاء ، وتكاد النظرة تقتل تحت الجفون التى مازالت مثقلة بنعومة المتاع ، وتكشف القبلة عن الأنياب ... هـذا التمزق الفجائى للحجاب ، وهذه الفورة الفجائية للروح التى تحررت أخيرا ، وبدت فى الابتسامة والنظرات غاضبة ساخرة ، وذلك الإنفجار الوحشى العاصف للبغضاء والحقد فلا تملك إخماده بعد — هـذا هو حقا كشف القناع ... ولن تستطيع أن تدرك ما يجيش من يأس وروع واشمئزاز بنفس المحب أو الصديق ، الذى يشهد هـذه الثورة الدنيئة للغرائز ، إلا اذا قاسيتها بنفسك ، وكأنها يومئـذ ملامسة الأفعى ، والانحدار الى الطين ، وقشعريرة البرد ، نافذة ثلجية تنهش المعذب ، وتقضم فيه العروق والقلب . ثم هى الغضب أيضا ، وهى الخيبة مجسمة ، وهى المرارة ، والغيظ الممزق ، وهى اليأس من كل شيء فى الحياة ، وكأنما تقرن بطعنة خنجر للفؤاد .

ولقد عانيت هـذا اليأس القاتل الذى يجيش به رجل لحقته الخيبـة ، وألقى الى براثن الروع ، وذلك الرعب الذى يقترن بانقضاض «المجهول» — عانيتهما مساء كاملا ، وذلك فى ظروف وصور خلقت للسرور . وتالله لقد

كانت مأساة حقة جزتها مدى دقائق ، مازلت أشعر أنها أشد ما لقيت فى حياتى . وهى مأساة مبتذلة فى نظر أولئك الذين لا يأبهون ، ولكن فى بعض تفاصيلها ما يروح عن النفس .

واليك قصتها : كان ذلك منذ خمسة عشر عاما ، ولم أكن يومئذ ذلك الموسيقى الشهير ، والمؤلف المحبوب ، بل كنت فى شظف من العيش ، أعيش من الدروس التى كنت أعطيها بالنهار والليل ، وأحيانا من العزف على القيثارة فى بعض المسارح المريبة ، فى الأحياء المريبة . كنت أعيش وأنفق على أخت لى كانت تقيم معى وتتولى مهام البيت . وارحمتاه لها ، لقد توفيت منذ بعيد ولم تشهد ظفرى ، وكانت أرمل ، وكان مهرها الضئيل ودروسى وعملى فى المسرح ، تحمل الينا إيرادا صغيرا يفى بحاجتنا .

فى ذلك الصيف طلبت للعمل أثناء الموسم فى «إيكس» ، وهى فترة بديعة فى سافوا ، وكنت أعزف ثلاث مرات ، فى الصباح والظهر فى الحديقة ، وليلا فى الكازينو . ولكنى تحررت هنالك من أعباء الدروس المرهقة ، ونعمت بالهواء العليل والطبيعة الساحرة . ولكنى أرغمت على ترك كل ذلك والعودة الى باريس فى اكتوبر ، لأعود الى جوب طرقاتها تحت رشاش المطر ، وظلام السحب ، مشغولا مهموما . آه ، تبا لأوقات الانتظار فى محطات الترام ، وندرة الهواء داخل المكاتب ، والبرد القارص خارجها ! وتبا لوقفات الترام الخالدة التى تعيل الصبر ، وتثير الأعصاب . وكنت فى المساء أشهد دائما فى نفس الساعة ، نفس المناظر العاصفة ، والوجوه الشاحبة التى تجوس خلال المسرح الصغير ، وفى الليل أخوض الظلام والوحل حين العودة ؛ ومع ذلك فقد أستطيع أن أفخر بأنى ذقت لذة العيش .

فى غمار هذا الاضطراب وذلك الضجر ، طلعت علىّ فتاة ، قابلتها فى مونمارتر ، نحيلة القد والوجه يبدو على محياها الحزن ، وكأنها زهرة ضاحية

صغيرة سقطت الى الغدير، ولكنها لم تذبل بعد، بل كانت تنوء فقط تحت أعباء الألم، وكانت أضنتها الرذيلة، وكنت قد عرفتها منذ خمسة أشهر، قبل سفرى الى إيكس بأيام قلائل فراقنى وجهها الوسيم المعنى، وجه بنت صغيرة، وديع رقيق، كأنما صاغته يد الفنان . ولقد همت مساء كاملا بعينيها الخضراوين، ومحياها النحيل الذابل، الذى كأنه سحر العناء والمرض. ثم غادرتها دون أسف، وسرعان ما اختفت صورتها من مخيلتى . ولكنها هى التى عادت إلى، وهى التى جاءت تبسم الى بعينين واسعتين، كادت خضرتهما تنقلب زرقة مظلمة، وتسألنى . وكانت تقف أمام مائدتى فى مقهى صغير كنت أتناول فيه القهوة، وهى باسمة فى معطفها القديم الباهت، وتحدجنى، وتتضرع الى، وتستمرئ النظر الى، وقد أضاء وجهها المسكين حبورا و بهجة... ولما كنت لم أفقه سر هذا الطرب، ولا هذه العودة، فقد جلست «جانين» الى جانبى وكأنها غدت أكثر حسنا فى اضطرابها، ثم قالت لى فى ظرف وحنان، إنها قد نبذت «الحرفة» . أجل كان هذا وقد انتهت بأن غلبها الخزى، ومزق فؤادها أن تستسلم فى كل يوم الى هذا وذاك، واستطاعت أن تجد لها عملا فى محل للخياطة، تتقاضى منه فى اليوم خمسة فرنكات أو ستة، وقد استأجرت غرفة خاصة، أستطيع أن أزورها فيها اذا شئت . فقلت فى نفسى «أجل، أستطيع أن أحبها اليوم إذ غدت عاقلة و فى وسعها أن تحبنى . واذا كنت قد آنستها باردة جامدة العواطف، فذلك لأنها كانت تحاول أن تخمد جوى يبتدئ، وكانت تخجل أن تبدى الى أنا الذى تحب، مثل ما تبدى لأجنبى، من ضروب التدلل والسحر، وكانت تخفى جبينها فى صدرها . ولله ما أشد شغف الرجال، اذ سرعان مازرت جانين .

بيد أنها كانت من أطيب ساعات حياتى . ولعمرى لشد ما كان يحتو يه هذا الجسم النحيل المضطرم من شغف، واشد ما كانت قدرته على

بعث الجوى ! كانت چانين مذ غدت عاقلة، تضيء كأنها نار الميلاد ، وكنت أغادرها بقبلة طويلة من العرفان، واعدا بالعودة . وكنت أعود فى الواقع، مرارا وتكرارا، فأجدها فى كل مرة أشد حبا، وأشد استسلاما لاضطرامها . وكنت فى كل مرة أترك لها هدية صغيرة، لأنى لم أجرؤ يومئذ أن أقدم لها شيئا من المال، وفى كل مرة تغدق على ضروب الشكر العميق، وتعانقنى عناقا حارا يمازجه البكاء . على أنى ألفيتها فى آخر مرة حزينة، فأرهقتها بالسؤال فقالت : إنها تحمل هما عظيما، وهو أن لها أخا، سيئ الخلال، هو الذى عجل بسفالته وفاة والدتهما . وقد خرج حديثا من السجن، وهو شريد فى باريس لا مأوى له ولا عمل ولا رغبة فى العمل، وفى كل يوم يرهقها بطلب المال . فلما غادرتها فى تلك المرة ألقيت فى يدها جنيها، ونصحت لها أن تغير مقامها وأن تستعين بهذا المبلغ على الإنفاق، فوعدت أن تفعل، على أن أزورها مرة أخرى فى نفس هذا المقام الذى نعمت فيه بكثير من السعادة؛ فهنالك « كانت كلها لى وحدى ، لا ساعة ولا اثنتين ولا ثلاثا ، ولكنها كانت ملكى الليالى بأسرها؛ وكان كل منا ملك صاحبه » هكذا قالت لى ، وأصرت أن أنفق عندئذ لديها الليل بأسره . فلما اعتذرت بعملى فى المسرح وهو يرغمنى على السهر الى ساعة متأخرة؛ قالت لى بصوت فاتر : « ولكن ذلك ليس بعذر، ففى وسعك عند عودك فى منتصف الليل أن تذكر اسم أخى لخادم المنزل، وسوف أنتظرك فى سريرى الحار، قل ألا تأتى ؟ » .

وقد ذهبت، وازدلفت الى ذلك المنزل الذى يغص بسكان من العمال، دون أن أرغم على ذكر اسمى للخادم . وكانت چانين تنتظرنى فى غرفتها الصغيرة الحقيرة ذات الورق الباهت . وكان المفتاح فى القفل، فدفعت الباب . وكانت ثمة شمعة تضيء فوق المائدة، ولم تسمعنى چانين حين دخولى لأنها كانت نائمة . ويالله لشدّ ما كان شحوبها عندئذ ! وما بدا لى قط من قبل

عناؤها بمثل هذا الطابع المؤلم . وكانت تنام وجفناها نصف المغلقين ، يسفران عن ضوء قاتم انقبض له فؤادى . ولم يكن ذلك نظرة ، ولم يكن دموعا ، بل كان أسوء من كل ذلك وأشق . كان الألم يتضرع بين هذه الأهداب المبللة . فخلعت ثيابى فى صمت ، وانسلات الى جانبها حذرا من أن أوقظها . ولله لشد ما كانت باردة ! وما بدا لى قط جسمها النحيل منلجا كما هو . فتناولتها بين ذراعى محاولا أن أدفئها . ولكن چانين بقيت جامدة ، باردة ، لا تحاول التحرك ، حتى لكأنها جثة هامدة الى جانبى . ولقد روعت أخيرا ، فهززتها قائلا : « تكلمى يا چانين ، هل أنت مريضة ؟ » فأجابت أخيرا فى نفثة : « أجل ، قليلا ، فإنى أطوف المدينة منذ البكور ، وقد فقدت عملى من جراء أخى . أجل ، أجل ، فاتركنى نائمة لأنى أموت تعبا ، وسوف نطرب بعد ، أليس كذلك ؟ » فثارت نفسى ألما واشفاقا ، وأطفأت الشمعة واعتزمت النوم .

وانتبهت فى جوف السحر مذعورا ، وهممت بالقيام ، ندى الجبين ، وأخذت أتلمس الفراش الخالى ، وأذنى مرهفة نحو الباب الذى سمعت صوت إغلاقه ، وأنا أقول «أهذا أنت يا چانين وهل أنت مريضة ؟ » وكانت أقدام تدنو من الفراش ، ثم أضاء ثقاب فى الظلام ، وأجابنى صوت رجل « ليست چانين بل أنا » ثم أضاءت الغرفة فجأة ، فألفيت نفسى أمام رجل متين القامة ، يرتدى معطفا أزرق وهو يقول : «نعم هو أنا ، أخوها . أما الفتاة فهى بعيدة ، فإياك أن تصرخ ، وإلا أجهزت عليك» ثم أخرج من جيبه مدية كبيرة ، وأشهرها على وجهى وقال : «هل معك نقود كثيرة ؟» .

وكنت عاريا ، نائما ، لاسلاح معى . فإن صحت اخترق الصلب عنقى ، وكان من الجنون أن أحاول مصارعة ذلك الشقى فى تلك الغرفة ، جسما بجسم فقلت له : خذ ما تجده فى ثوبى ففيه ستون فرنكا . فلما فرغ من افراغ جيوبى ، صحت والغضب يمزقنى «لست أخا لچانين ، ولكنك أنت «حاميها»

وتنبا لها من صغيرة شقية، فقد دبرت لى كمينا ! »

فأجابنى بهــدوء : ثم ماذا، إنك لجواد . ولقــد أنفقت دهرا شريدا فى الطرق لا عمل لى، بيد أنى لست أقنع بهذا، فاخلع خاتمك . قلت، وأى خاتم ؟ أجاب « هذا الذى يضىء فى أصبعك ! » رباه، لقد كان ضوء حجر كريم ورثتــه من أسرتى، ركب فى خاتم مصرى وزين بجعران أحضره لى من مصر صديق لى . وإذ هممت أن أدافع ما استطعت عن تحفتى، تقدم الوغد منى قائلا : أتراك تؤثران أنتزعه منك انتزاعا بأن أقطع هــذا الإصبع الذى يحمله، وتالله لو قاومت لفعلت» .

وأضاءت عيناه بغتة، وابيضتا، وتقلص وجهــه، وتشنجت أعصاب يديه، فاعتذرت، وبادرت فناولته الحليــة، فارتد عنى بهدوء وبطء وأغلق الباب وراءه .

وكان خادم المنزل هو الذى أفرج عنى ضحى الغــد . ألا فاعترف انهــا قصة قناع ممتعة ! (١)

---

(١) أخذت هذه القصة وما يليها من صحف جان لوران من كتاب Histoires de Masques

الرجل ذو السوار

فى اكتوبر، فى ذلك الجو المريب الموحش الذى يسود بعض شوارع الأطراف، وفى تلك الأيام الماطرة القاتمة التى تأتى فى نهاية الفصل؛ متى انتهى عناء الواجب اليومى، تفتحت فينا الغرائز الخبيثة، وأذكاها ضوء الشموع والمصابيح الساطعة، وتحريض رهط من الأثواب النسوية الجوالة فى جوف الليل : «اليك الليل الساحر، صديق المجرم» .

فهى الساعة، التى يهرع فيها الى حانات تنيرها أضواء مجوفة، جمهور صاخب قد تجوفت منهم العيون، عمال شيوخ وفتيان، يتآخون ويصخبون . وفى الخارج ترى شبح الفتيات مضطربا ساهرا؛ خصوصاليلة القبض، حيث يصلح أى رجل عامر الجيب . فهن هنالك يجبن الأرصفة، مكحولات الأعين، ناصعات الوجوه، كأنهن استعرن الحجب . وترى من جهة أخرى جماعة من النسوة البادنات القويات، وقد بدت عليهن أمارات اليأس والاستسلام : أولئك هن زوجات العمال وأمهاتهن، يتربص البغاء بهن، فيأتين خائفات حزينات ينتظرن أزواجهن وأبناءهن أمام حانوت الخمر، وهنالك فى رطب الأزقة وظلامها، يحرسن أجر الأسبوع : عجائز، قبيحات، كأنهن أشباح مسكينة للفضيلة جاءت تنازع الخمر والبغاء قوت الأسرة والبنين .

فاذا توغلت فى الشارع الآهل، وانحدرت الى أركانه المظلمة، رأيت حوانيت النبيذ، تحجبها الأستار كأنها تضم الخفاء، وسمعت أصوات العملاء خافتة؛ وهنا يقل تربص الفتيات فوق الأرصفة المقفرة، وترن الأقدام المتأخرة بسرعة . ثم تتفرق الجموع، بينما تنبثق من نوافذ المنازل الجديدة، والأبنية العتيقة، أنوار غامضة، وتبرز وجوه نسوية مشوهة مدهونة، تعتمد فوق حافات النوافذ بأذرع عارية شاحبة .

اليك بغاء النوافذ، وهو أبرع ضروب هذه الحرفة الشائنة، وأشد مايثير

حواس الفاسد . ذلك لأن المرأة المرغوبة تبدو هنالك بعيدة ؛ يغمرها العهر ، أو يغمرها الخفاء ، وتدلى بالمتعة المنتظرة ، ويحيط بها خطر المنزل المجهول ، ورجفة الكمين الذى قد ينصب فى ظلام السلم ، وأخيرا توقع السلب الذى ربما يجثم وراء الحجب . وهذا الوجه المغرى المنمق ، يبدو عاليا فى الظلام فى تلك الواجهة العمياء ، فهل هو وجه عجوز جعدته الخطوب أم وجه عذراء صغيرة ضحى بها البؤس أو الرذيلة ؟ هنالك ريب ، واغراء قوى بالمخاطرة لروح منحل ؛ وهو الدوار والركض الى الهاوية ، وهو جذب الهاوية القاهر . آه ، ان امرأة النوافذ لهى تفاحة من الذهب صيغت من السحر الملعون ، ووضعت فوق حافة النافذة ، كأنها رأس «سيلا» تدور فوق الموج ، وكأنها زهرة الهاوية . وأما فى الخارج ، فرشاش الماء والطين يلمع تحت ضوء الغاز ، والمطر يزفر و يداعب الأسقف ، وصوت الأقدام الوجلة فى الظلام .

هذه الفتنة التى تمثل فى النافذة ، وهذا السلطان الذى يملكه العراء والثوب المشقوق ، يسطعان فى ظلام الشارع و برد الليل ، لها أيما أثر فى حواس الرجل الحديث ، ورجل المدن خاصة . وهما أينما حلت : ففى برشلونة ، أوأنڤرس ، أوسيجون ، أومرسليا ، ينحدر السائح المتجول ، الى الأحياء المنحطة ، فيجذبه رأس جميل فتى ، يطل من نافذة منزل متهدم . فما يكاد يدخل حتى تخرج القصة العتيقة اليه أشخاصا روائية ؛ واذا بجارية لفت رأسها بحرير ذهبى تستقبله وتقوده خلال السلم المستدير ؛ واذا فى أعلى السلم ببغاء عجوز أبيض ، ودرج السلم تغطيه بسط فاخرة ؛ واذا الغرفة التى يقاد اليها كأنها مخدع أميرة شرقية تغص بالديباج والدمقس والفراء . وهنالك يونانية صقلية ذات لحظ كلحظ الأيقونة وعراء كتمثال البرنز ، فتاة طفلة لا تجاوز الرابعة عشرة ، تقدم اليه مرتجفة مضمخة ، جسما عذريا مريئا . وهنالك وسائد القطيفة ، والنبيذ الفاخر فى أقداح من البلور ، كى يضاف الى ثمول القبلات ، ثمول العطر

لحرق . وكل ما هنالك رياش وعطور وحلى كأنه جنة صناعية أو حلم ذاهل
ندره الأفيون . بيد أنه لم يك سوى حلم، لأن السائح الذاهل ينتبه فى الشارع
مام باب حانة غصت بالبحارة، فيحاول عبثا أن يستعيد المنزل المسحور .

ثم يغادر المدينة ليعود الى أسفاره . ويمضى عشرة أعوام، وإذا به بجأة
يد نفسه ذات يوم أمام الباب المطلوب ، وإذا بالجارية واقفة فى الزقاق ،
لببغاء الضخم فى قفصه، والسلم ما زال يعلوه الرطب، والبسط الفاخرة تغطى
ثما درجاته الأخيرة . ثم تفتح الجارية الباب ، ولكن رباه! لقد شاخت
نتاة اليونانية، وقد شوهت ، وتضخمت، وتدلى نهداها ، فلا يذكر شبح
رها الذاهب ، إلا فى قبلات باردة من خلال الدهان والمسحوق . هذا وقد
ست الوسائد الحريرية، وصدأ المصباح الساطع ؛ فيعود السائح أدراجه
لانقباض يملأ جوانحه ؛ ولكنه اذ يجوز الباب يناديه صوت أجش «ألا تعود؟»
خفض الرأس إذ يعلم فى أعماق نفسه أنه سيعود الى زيارة هذه الغرفة القاتمة
م ما تضم من لحم متهدم ، وشفة خامدة ، وملامح قبيحة يخفيها المسحوق والدهان .
ك أن الببغاء الضخم يعرف قلوب الرجال الذين يراهم منذ الحقب يتقاطرون
، السلم ، وهو انما يلقى على الفساق كلمة قدرهم فيسائل كلا منهم :
لا تعود ؟» والواقع أنهم يعودون جميعا ، والمرء يعود دائما الى الرذيلة ...

ولقد حدث منذ عشرين عاما ، فى أحد شوارع باريس الآهلة ، على مقربة
، مرقص وإجرام وهو ملتقى العاطلين والحماة ، أن لاحظ البوليس حيلة
، حيل النوافذ بسيطة معقدة فى نفس الوقت . ذلك أن بغيا لم يمكن أن
هركلها قط من النافذة ، ولكنها كانت منذ المساء تخرج ذراعها العارية ؛
صعة النقية ، من وراء ستار من الحرير الأحمر ، كأنها نحر عنقاء ، وتلبث كذلك
ى ساعات طويلة تلوح الى الرغبة والهوى ؛ وكانت الذراع والذراع فقط .
الفتاة نفسها فكانت محتجبة ، ولم ير إنسان وجهها قط . وكان ثمة سوار

من الذهب يلتف حول هذه الذراع الخفية . وكان السائرة يقفون ليتأملوا هذه الذراع الجامدة، ذات الحركة الجامدة كلما عن لها أن تتحرك، ذراع عبلة منمقة ، ناصعة باردة كأنها قطعة من الرخام . وكان رجال يصعدون، ولا سيما الشيوخ ، ورجال ذوو هندام حسن وذوو رذائل متأصلة ، ثم ينزلون سراعا بأعين عائرة، وخطوات متعثرة . واستمر ذلك الأمر زهاء أشهر؛ وإذا بإشاعات غريبة تدوى في الحي ، وإذا بحديث عن كمين ينصب للشيوخ من الفساق، ومنهم أسماء معروفة من تجار وملاك ، اجتذبوا بهذه الوسيلة الى غرفة ، وهددوا وسلبوا . ولما لم يتقدم انسان بالشكوى فإن البوليس هو الذى قام بالتحقيق من تلقاء نفسه . فلما هاجم جناح البغايا فى المنزل الذى تتدلى منه الذراع العارية ، وجد أن الجناح الذى فيه النافذة المشبوهة، يسكنه مصور فتى يحمل إجازة رومة ، ويعيش منذ عام فى ترف لا يعلم مصدره . وفى نفس المساء الذى حدث فيه هذا الاكتشاف ، فى الوقت الذى كانت تبرز فيه الذراع العارية من وراء الستار الأحمر، صعد شرطى تنكر بزى شيخ محترم الى جناح المصور، وبعد مفاوضات من خلال القفل، وبضع كلمات ساقطة القاها صوت نسوى ، فتح الباب قليلا ثم أغلق فى الحال على الشرطى . وفى لمح البصر ألفى الشرطى نفسه أمام فتى قوى يرتدى قميصا ، قد رفع كمه عن احدى ذراعيه حتى الكتف ، فانقض الفتى عليه وخنقه بإحدى يديه ؛ ورفع بالأخرى مدية كبيرة وهو يقول : «هيا أيها الفاسق العجوز، على بساعتك وحليك وكل ما تحمل، وإلا أوعزت بالقبض عليك لأنك جرؤت على الصعود لدى رجل، هيا» .

ولكن الرجل ذا السوار هو الذى قبض عليه البوليس تلك الليلة . وكان يجرى تجربته هذه منذ عشرة أشهر آمنا مطمئنا، ولم يجرؤ أحد ممن سلبهم أن يرفع شكواه، اتقاء لما يقترن بمثل هذه المغامرة المريبة من عار وخجل .

صرعى الأثير

قال لى صاحبي دى چاكل : أتريد أن ترى ؟ فليكن هذا ، وانما يجب أن ترتدى ثوبا للتحجب من الحرير الأسود ، وجوربا من الحرير الأسود أيضا ، وأن تنتظرنى فى منزلك حول منتصف الساعة الحادية عشرة من مساء يوم الثلاثاء ، فسآتى لأصحبك .

وفى يوم الثلاثاء ارتديت ثوبا طويلا من الحرير ، وقناعا من القطيفة ذا لحية من الحرير أوثقت بالاذنين ، ولبثت أنتظر صديقى دى چاكل فى جناحى الخاص بشارع تيبو وأنا أدفىء قدمى فوق المدفأ ، وأرتجف فى نفس الوقت من لمس هذا الثوب الحريرى الغريب عن جسمى . وكنت أسمع فى الخارج أنغام الموسيقى وأصوات المرح تدوى فى حفلة كرنفال فى ناحية قريبة من الشارع .

وكان غريبا بل مزعجا أن نتأمل فى ذلك الليل الموحش ، شبحا محجبا غارقا فى مقعد فى ظل نور ضئيل ، يكشف عن غرفة حافلة بالتحف والألوان ، فى المرايا المعلقة من حولك ، وأن ترى فيها ضوء مصباح غازى ، ونورا مرتجفا لشمعتين طويلتين ناصعتين نحيلتين كأنهما من شموع الموتى . وقد أبطأ دى چاكل ولم يأت ! وكانت صيحات المحجبين تدوى عن بعد فتزيد فى وحشة هذا السكون . وكانت الشمعتان تحترقان بانتظام شديد ، حتى لقد أخذتنى هزة فنهضت أمام الأنوار الثلاثة بغتة لأطفىء أحدها .

ولكن بابا فتح عندئذ ودخل دى چاكل . دى چاكل ؟ لم أسمع صوت الجرس ولا صرير الباب فكيف نفذ الى مسكنى ؟ بيد أنه قد دخل ، وكان الماثل أمامى شبحا يرتدى ثوبا كبيرا مظلما مقنعا مثلى . فسألنى بصوت مضطرب كدت أنكره : «أأنت على أهبة ؟ فهيا بنا فعربتى بالباب » .

ولم أسمع كرعربتـه ولا وقفتها تحت نوافذى ، فالى أى كابوس والى أى ظلام والى أى خفاء أخذت أنحدر ؟ والظاهر أن دى چا كل أدرك خاطرى فقال لى : «إن اثامك يغلق منك الأذنين ، ولم تعتد بعد على لبس القناع» . ثم رفع ذيل ثوبى وتحقق من مطابقة جوربى وحذائى لما طاب .

فاطمأنت نفسى لهذه الحركة اذ تحققت أن دى چا كل هو الذى يحدثنى بنفسه . ثم قال «هيا بنا» ، واندفعنا الى الخارج وأثوابنا الحريرية ترتفع من حولنا فى حفيف مزعج . فمن أين أتت هذه الريح المجهولة ! لقد كان جو هذه الليلة رطبا فاترا معا .

٢

أين نسير الآن وقد ارتمينا فى ظل هذه العربة الصامتة ، التى ليس لعجلاتها كر ولا لحوافر خيلها صوت يدوى فوق بلاط الشوارع والميادين المقفرة ؟

أنى نذهب ونحن نقطع هذه الجسور والأحياء المجهولة التى لا ينيرها هنا وهنالك سوى مصباح عتيق ؟ لقد تركنا منذ طويل شبح نوتردام وانحدرنا الى ضفة النهر الأخرى تحت سماء قاتمة ، وجزنا جسر سان ميشل وجسر تورنل ، وابتعدنا كثيرا عن الاوپرا وعن الأحياء الوسطى ، ولم نكن نسير مع ذلك فى طريق بوليه حيث تعقد الرذائل المخزية مآدبها ، وتضطرم عواصفها الشيطانية المروعة فى ليالى « الصوم » . وكان صاحبي يلزم الصمت .

ولقد تولانى ونحن نطوى ضفة النهر الصامت الشاحب ، ونجوز قناطره التى أخذت تقل شيئا فشيئا ، وأفاريزه التى تظللها الأشجار العالية النحيلة التى كأنها تحت السماء المتقعة أصابع الموتى — تولانى خوف مروع ، يزيده صمت دى چا كل ؛ وكدت أرتاب فى وجوده الى جانبى وأعتقد أنه شخص مجهول . وكان صاحبي قد قبض على يدى بعنف ، فكانت يده القوية ذات الارادة تسمر الكلام فى حلق ، وكنت أشعر أن ضغطه يبدد منى كل عزم

وثورة . وكنا عندئذ نسير خارج الحصون فى طرق شاسعة يظللها الغاب ومخازن النبيذ، وتخترقها الحواجز المغلقة . وكان القمر قد أخذ يبرز قليلا من وراء السحب . فخيل لى عندئذ أن حوافر الجياد قد أخذت تدوى، وأن كر العجلات قد غدا مسموعا يتكسر على الطريق .

وهنا غمغم صاحبى : «إنه هنا، فهيا ننزل»؛ فتلعثمت مضطربا : «أين نحن ؟» فأجابنى : « عند إفريز ايطاليا خارج الحصون، وقد اخترنا أطول الطرق اجتنابا للريب، وسنعود فى صباح الغد من طريق آخر» .

ثم وقفت الجياد، وترك دى چاكل يدى ليفتح باب العربة .

٣

كان بهوا شاسعا، عاليا جدا، دهنت جدرانه بالجير، وأغلقت مصاريعه باحكام، ووضعت فى طوله موائد، فوقها أقداح من الحديد الأبيض مثبتة فى الموائد بسلاسل من الحديد، وفى نهاية البهو على قيد ارتفاع قليل، أقيم خوان من الزنك قد غص بزجاجات الخمر، وقوارير ذات علامات ملونة . وكانت مصابيح الغاز تنثر ضوءها هنا وهنالك ، وكان اتساع البهو وانتظامه دليلا على أن العمل فيه حسن رائج .

فدفعنى دى چاكل الى البهو وهو يقول : « إياك أن تنطق بكلمة ، ولا تحدث أحدا ، ولا تجب أحدا ، لأنهم حينئذ يعرفون أنك لست من زمرتهم، وقد يحدث عندئذ ما يكدر . أما أنا فانهم يعرفوننى » .

وكان ثمة بعض محجبين يشربون . فلما دخلنا نهض رب المكان، ودنا منا كأنما يريد أن يعترضنا ، فرفع دى چاكل ذيل أثوابنا، فكشف عن الجوارب والأحذية المعينة؛ وكانت هذه بلا ريب كلمة الجواز، فعاد رب المكان الى خوانه ، وأدهشنى أن رأيته أيضا محجبا ، يضع على وجهه قناعا منيرا من الورق المقوى .

وكان الخادمان، وهما عملاقان يشمر كل منهما عن ذراعه المفتولة، يديران الأقداح حول الموائد، وهما مقنعان صامتان .

وكان الشاربون القلائل الذين يجلسون حول الموائد، يتحجبون بأثواب الحرير وأقنعة القطيفة . وكان ثمة محجب ضخم فى زى فارس وبالقرب منه حجابان أنيقان من الحرير الأحمر، وهو يحتسى كأسه، سافرا عن وجه وعر وشارب ضخم وعين زرقاء باهتة . وكان وحده ذا الوجه البشرى فى هذا الجمع الصامت . والحجب هنا وهنا لك من الحرير الأسود، وأغطية الرأس من القطيفة . فوقفت جامدا أتأمل ذلك المنظر الغريب، فجذبنى دى جاكل الى نهاية البهو نحو باب من الزجاج أسدل عليه ستار أحمر وكتب فوقه « مدخل المرقص » وأمامه شخص خيل الى أنه حارس من حراس البلدية، ولكنى لمسته حين مرورى فاذا به تمثال من الشمع ذو وجه وردى، فارتجفت اذ ألفيت الشخص الوحيد الذى يمكن أن يطمئن وجوده فى هذا الخفاء، انما هو تمثال .

٤

كم ساعة قضيتها فى التجوال بين هذه الحجب الصامتة، وفى ذلك البهو المقبى كالكنيسة ؟ أجل كانت كنيسة — كنيسة مهجورة — هكذا كان البهو الشاسع ذو النوافذ المطبقة التى نصف معظمها من البناء .

ولله ما أغربه من مرقص لا يُرقص فيه، وليست فيه موسيقى ! وكان دى جاكل قد اختفى فلبثت وحيدا بين ذلك الجمع المجهول . وكان يتدلى من السقف ثرية عتيقة من الحديد فتنثر من حولها ضوءا عاليا واضحا، وتنير البلاط المغبر، الذى كان فوق بعضه نقوش كأنه يغطى بعض القبور . وكان فى نهاية البهو مصاطب لعلها مكان الهيكل الذاهب قد ألقيت فى أركانها بعض سروج وأعنة عتيقة . أجل كان المرقص إسطبلا ! وكان بعض المرايا

معلقة هنا وهنالك، تعكس تجوال الحجب الصامتة، ولكنها لم تعد تعكسه بعد، لأن الحجب كانت قد تكدست كلها فوق هذه المصاطب، وجمدت هنالك صامتة لا تبدى حراكا كأنها تلجأ الى الخفاء تحت اللثم الباهتة، بل لم يبق ثمة حجب ولا نكرات مختلفة، لأنها غدت جميعا متماثلة، شملها نفس الثوب الأخضر، وسادت عليها خضرة قاتمة فيما وراء الأقنعة، حتى لقد يخيل اليك أنك أمام وجوه مبروصة. وكانت كل هذه اللثم جامدة كالتماثيل ومن فوق تيجانها السوداء، تسفر الكوات العليا عن ضوء القمر.

ولقد شعرت أن صوابى يغيض فى معترك الروع، وكان « الخارق » يغمرنى. اذ ما هذا الجمود، وما صمت كل هذه المخلوقات المحجبة ومن كانوا؟ ولو مرت بى لحظة ريب أخرى لجننت بلا ريب. فلم أطق صبرا، بل تقدمت من أحد الحجب، ونزعت بجأة بيدى المرتجفة لثامه.

فياللروع! لم يكن ثمة شئ بالمرة، ولم تلق عيناى الباهتتان سوى فراغ اللثام، وكان الثوب خاليا من صاحبه، ولم يكن هذا المخلوق الحى الا شبحا وعدما.

فكدت أجن روعا، ونزعت لثام الحجاب التالى، فكان لثامه الأخضر خاليا، وكذا كل اللثم الاخرى كانت تضم وجوها جامدة كالعدم.

وكان المصباح ينثر ضوءه قويا عاليا، وقد نفذ ضوء القمر ساطعا، فملكتنى أيما روعة بين أولئك المخلوقات الزائفة التى كأنها الأشباح، وملك لبى ريب قاتل أمام هذه اللثم الخالية.

ويالله لو كنت كذلك مثلهم، ولو أنى أيضا فارقت هذه الحياة، ولم يبق تحت قناعى سوى العدم؟ وثبت الى احدى المرايا، فألفيت أمامى مخلوقا باهتا كالحلم يتلثم بقناع أخضر قتم، وقد توجته زهور سوداء، وكان هذا القناع أنا، لأنى عرفت حركتى حينما رفعت لثامى، فصرخت

صرخة روع منكرة، ذلك لأنه لم يك ثمــة فى فراغ اللثام شىء : لقــد ك
ميتــا ؛ و ...

«قرع اذنى صوت دى چا كل وهو يقول مؤنبا « لقـد شربت ا
أيضا، ولعمرى انها لفكرة غريبة خطرت لك لقتل ضجرك» .

وكنت متمددا فى وسط غرفتى، فوق البساط، ورأسى مسند الى دقه
وكان دى چا كل فى ثياب السهرة، يلقى الأوامر الى خادمى الذاهل؛ وك
الشمعتان قد قاربتا النهاية، يرقص ضوءهما رقصه الأخير فيوقظنى ... لقد
حانت الساعة .



وكان تمام طبع هــذا الكتاب بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأربعاء ٢٤ ،
سنة ١٣٥٠ (٢ مارس سنة ١٩٣٢) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المص

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣١/١٠٣٦/٣١٠٠)

